نسائي الجميلات
أمنية طلعت
مدونة ابو عبدو
رواية
رواق
للنشر والتوزيع

١٤٢ x ٢٠٢

نسائي الجميلات

طلعت، أمنية
نسائي الجميلات / أمنية طلعت
القاهرة: روافد للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ ط ١
٢٨٨ ص ؛ ٢١ سم
١- رواية
٢- العنوان
أ - المؤلف
رقم التصنيف: ٨١٣.٠٠٨
رقم الإيداع 2013/8187
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 6370 -81 -4
جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com
تصميم الغلاف: مهند الغندور
تصحيح لغوي: محمد زويل
الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

نسائي الجميلات

رواية

أمنية طلعت

إهداء

إلى دبي ...

مدينتي الأثيرة ...معكِ سمعت صوتي لأول مرة وتعرفت على نفسي الحقيقية ونبتت لي أجنحة حلقت بها نحو السماء.

ستبقين دوماً مدينتي الفاضلة

أمنية طلعت

الفصل الأول

(١)

رنين جرس هاتفه المحمول يصدر صفارته المملة في أذنها، رنة.. اثنتين.. ثلاثاً.. لم تنتظر الرنة الرابعة.. ضغطت بإبهامها على زر الإغلاق، وباستياء شديد رسم ملامح وجهها ألقت بعنف جهاز المحمول بطول ذراعها اليمنى.. صفق الهاتف زجاج نافذة السيارة مصدراً دوياً عالياً، ثم تهاوى بسرعة إلى الأسفل حيث لا تدري. بعد أن التفتت فزعة أن يكون الزجاج قد شُرخ، واطمأنت إلى أن شيئاً لم يحدث، قبضت بكفيها على عجلة القيادة وزفرت بعمق هواءً كان مخزناً لبضع ثوانٍ داخل قفصها الصدري، ثم سبت "غانم" بصوت يملؤه الحنق والاستهانة في آن واحد "غور يلعن أبوك"!.. ما لبث صوتها أن أخذ طبقة عذبة، واكتست عيناها بسحابة من الدموع أسرعت في التقاطها بأناملها، خشية أن تنحدر على خديها فيفسد مكياجها، وما أن اطمأنت أن مكياجها بخير قالت: "إذا كان الغالي راح..

مش هتروح إنت كمان"؟!... صمتت قليلاً ثم مدت سبابتها اليمنى، وضغطت بحركة انسيابية على زر تشغيل الراديو، فانساب صوت فيروز متواطئاً مع الغالي ضدها:

صباح ومسا

شي ما بينتسى

أخدت الحب وتركت الأسى

لعل وعسى

اترك ها الأسى

ويرجعلي حبيبي

صباح ومسا

إنت وبس

بس إنت وبس

بس إنت

إنت وبس

مع "بس إنت.. إنت وبس" لم تستطع أن تتحكم في الدموع التي سالت مغافلة إياها، فصرخت لاعنة حتى "الغالي"، وبدأت تبحث من وراء غمامة الدموع عن مكان تستطيع ركن السيارة به حتى تصلح ما فسد من مكياجها!

استغرق الأمر دقيقة كاملة حتى تتمكن من العودة بسيارتها إلى الطريق. في هذا الوقت من النهار تكون السيارات متكدسة، تزحف بإطاراتها عبر طريق الشيخ زايد باتجاه جبل علي، لكن حظها العسر الذي

بدأت في نهارها، جعل الطريق خالياً ما سمح لسائقي السيارات أن ينتهزوا الفرصة التي لا تتكرر كثيراً، وينطلقوا متجاوزين مائة كيلو متر في الساعة بكثير من "الكيلوات"! ما أن تمكنت من العودة إلى الطريق حتى ضغطت بقدمها اليمنى بكل ما أوتيت من قوة على دواسة البنزين، فأصدرت السيارة أنيناً مكتوماً ثم ما لبثت أن استجابت لقدم صاحبتها، وجرت بكل ما لديها من قوة في اتجاه مدينة دبي للإعلام. نصف ساعة كاملة كانت قد مضت بالفعل على موعد بدء العمل، ومازالت تحتاج إلى ربع ساعة أخرى حتى تصل، وتتمكن من العثور على مكان آمن لركن سيارتها، فهي ليست مستعدة أن تكلل خيبات نهارها بمخالفة من الشرطة!

في العاشرة والنصف تماماً كانت أمل رفعت قد وضعت قدميها داخل مبنى تليفزيون **ITC** الذي تعمل به معدة للبرامج، وبمجرد أن استقرت على مكتبها متعمدة عدم إلقاء السلام على أي ممن حولها، تذكرت أنها نسيت التقاط هاتفها المحمول من أرضية سيارتها، فنزلت بكفها على سطح مكتبها وهي تشتعل غيظاً لاعنة اليوم! ثم نهضت وهي تغمغم: "ما كانش لازم أخرج من البيت النهارده"!

اليوم هو اليوم الثالث بعد الفاجعة... هكذا قالت سميرة عبد المنعم لنفسها، وهي تتقدم بخطى ثقيلة عبر الممر الذي تتفرع منه غرف مكاتب المهندسين في شركة "محمود خطاب للمنشآت الحديثة"، والتي تعمل فيها منذ نزلت من طائرة "مصر للطيران" القادمة من القاهرة إلى دبي في شهر أكتوبر ٢٠٠٢، تحلم بحياة جديدة ومختلفة عن التي عاشتها في القاهرة، منذ تخرجها في كلية الهندسة بجامعة القاهرة.

رفعت بيسراها سماعة الهاتف الأرضي وألصقتها بأذنها، ثم حملت كفها اليمنى لتثبت بها السماعة، عادت لتضغط بسبابة يسراها على أزرار الأرقام، بينما هاتفها المحمول يستقر على سطح المكتب حاملاً رقم أمل رفعت على شاشته.

سميرة: صباح الخير يا أمل.

انبعث صوتها عبر الأثير واصفاً حالتها دون تفاصيل للشرح باللسان، ما جعل أمل تتنهد وتقول: صباح النور يا سميرة.. إنتي لسه تعبانة؟!

ما كاد سؤالها يصل لأذن سميرة حتى انطلقت في بكاء مكتوم، راعت ألا يلحظه زملاؤها، لكنه كان أشبه بالعويل وهو يصل لأذن أمل التي قالت داخلها "مش ناقصاكي على الصبح يا سميرة"! لكنها بالطبع أبدت انزعاجها الشديد وحرصها على مشاعر سميرة المحطمة، وقالت بصوت بالغ الحنو: مالك بس يا سميرة؟!... إنتي لسه مش قادرة تسيطري على نفسك؟!

سميرة: مش قادرة يا أمل... مش قادرة خالص... مش متخيلة الحياة من غيره.

وحتى تتمكن أمل من الخلاص من سميرة، أو على أسوأ الفروض تُرجئ تورطها في مشاكلها التي لا تنتهي، قالت لها بنفس الصوت العذب الحاني الذي جاهدت من أجل إخراجه عبر حنجرتها: طيب إهدي بس دلوقت وبالليل نتقابل ونتكلم... ممكن توعديني إنك على الأقل تسيطري على نفسك لغاية ما نتقابل بالليل؟!

سميرة: مش عارفة.. بس هاحاول.. والله ده أنا عندي شغل كتير جداً ومش عارفة إزاي ممكن أخلصه وأنا في الحالة دي؟!

أمل: لا يا حبيبتي الشغل أهم من كل الرجالة اللي في الدنيا... على الأقل الشغل مضمون لكن مفيش راجل على الأرض مضمون شهرين على بعض!

سميرة: لكن ده احنا بقالنا سنة بنحب بعض؟!

شعرت أمل أنها تورطت بتخمين الزمن الذي يستغرقه الرجل في العلاقة العاطفية، ما يفتح باباً آخر للحديث مع سميرة المنهارة عاطفياً، فقالت بأسلوبها المعهود في السخرية من كل شيء: لا والنبي يا حبيبتي إحنا مش هنعد على الصبح... بالليل نبقى نعد براحتنا!... ياللا روحي اشتغلي وركزي في لقمة عيشك، بدل ما يبقى خراب من كل ناحية!

على الطرف الآخر قالت سميرة بوداعة: حاضر.. باي باي.. **SEE YOU TONIGHT**.

أمل: **SEE YOU** يا ماما!

يوم آخر من العمل الشاق مضى على كل منهما، وبينما تركز سميرة كل تفكيرها على ملاقاة أمل في محاولة لفهم أشياء استغلقت عليها في علاقتها برمزي، عملت أمل كل ما بوسعها كي تتجنب ملاقاتها، لأنها تؤمن في أعماقها بأنه لا توجد مشكلة من الأساس وأن الأمر ما هو إلا "راجل غار في ستين داهية"! لذا عمدت إلى تأخير نفسها بدعوى أن لديها عمليات بحث عن معلومات تحتاج إليها عبر الإنترنت، لن تتمكن من مغادرة العمل قبل إتمامها، وبداخلها تبرر أن التأخير سيكون في صالحها في النهاية، على الأقل تكون حدة زحام الطريق قد خفت قليلاً. لم تكف سميرة عن الاتصال بأمل حتى العاشرة مساء، تسأل ولا تمل من تكرار نفس السؤال:

"هل انتهيت من عملية البحث"؟ ما جعل أمل ترضخ في النهاية لقدرها المحتوم، وتغادر مبنى التليفزيون متجهة إلى منزل صديقتها القدرية سميرة.

في الطريق تذكرت أنها نسيت تماماً كل شيء يتعلق بغانم، رغم أنها مارست معه الجنس مرتين! كان ظهور غانم المفاجئ في حياتها خبراً لطيفاً، بعد أن مرت بأوقات عصيبة بعيداً عن عادل، الذي أنهى العلاقة وحمل حقائبه مغادراً الإمارات إلى مصر دون عودة، مقرراً أنه لم يعد هناك شيء يمكن فعله في ذلك البلد، متجاهلاً حبها الذي أخذ أبعاداً أعمق من مجرد مشاعر، أو شبق مجنون دام سنين طويلة، دون أن يهدأ أو يبرد أو يصل حدود الملل، متجاهلاً كل آلامها وأحلامها وأفراحها وانتصاراتها وهزائمها المشتركة... رمى كل شيء وراء ظهره وسافر حتى دون أن يودعها، وجاءها خبر رحيله كمعلومة سريعة سردها صديق مشترك خلال مكالمة تليفونية عابرة.

بعدما اطمأنت سميرة لخروج أمل من التليفزيون متوجهةً إليها، أخذت تستعد لتحكي لها كل شيء بصراحة، فحتى الآن لم تعرف أمل حقيقة ما حدث بينها وبين رمزي، ولذلك تستهين بانهيارها ولا ترى له أي داع، كل ما كان يشغلها هو من أين ستأتي بالشجاعة اللازمة لتخرج المسكوت عنه وتلقي به دفعة واحدة أمامها، لم يكن لديها خيار آخر فأمل وحدها دون باقي مخلوقات الأرض قد تتقبل سرها، وتفيدها بما يجب عليها فعله وفقاً لما لديها من خبرات واسعة مع الرجال!

يأخذ الطريق من مدينة الإعلام بدبي إلى شارع جمال عبد الناصر بالشارقة، نصف ساعة إذا كان خالياً تماماً، أما إذا لم يكن، فالله وحده يعلم كم سيستغرق!... الوقت يمر ببطء وسميرة لم تعد قادرة على الانتظار، فقد

أمسكت نفسها طويلاً عن التقاط هاتفها المحمول والاتصال بأمل للوقوف على موقعها بالتحديد، لكنها لم ترغب في الاتصال حتى لا تصيبها بالجنون، وبالتالي سماع كثير من السباب واللعنات التي لا تتوقف عن إطلاقها في أي لحظة وتحت أي ظرف!... ساعة كاملة مرت ولم تصل بعد، لم تحتمل سميرة أكثر من ذلك فتركت لأصابعها العنان بعد طول كبح، لكنها لم تكد تضغط على زر الاتصال حتى رن جرس الباب.

دخلت أمل بهمة فاترة، فقد كانت مستعدة لسماع قصة تكررت على أسماعها كثيراً، ليس من سميرة وحدها، ولكن من جميع الفتيات والنساء اللائي قابلتهن في حياتها، بل إنها خبرتها بنفسها أكثر من مرة حتى مع "الغالي" نفسه! إلى أن قررت الاستهانة بالحب واختصار الرجل في عضو ذكري يشبع رغبتها الجنسية، التي لا يضر أبداً تغليفها بكلام حب حفظته عن ظهر قلب، من كثرة ترديده على مسامعها وترديدها هي نفسها له على مسامع كل رجل مر عليها، حتى تشابه عليها الرجال جميعاً!... آه نسيت، في ما عدا الغالي الذي مازال شبحه يطاردها! باعتيادية شديدة ضغطت أمل بذراعيها في حنو بالغ على جسد سميرة، التي ألقت بنفسها داخلهما مطلقة العنان لدموعها وعويلها اللذين كبتتهما طويلاً منذ طلوع الشمس وحتى اقتراب الليل من منتصفه. حركت أمل عينيها صوب باب الحمام، آملة في استئذان سميرة أن تؤجل دموعها دقيقة واحدة تفرغ فيها المياه التي تضغط على مثانتها في عنف منذ منتصف الطريق وحتى الآن. الخجل من حالة صديقتها السيئة وقطع مشاعرها المنجرفة برغبة في التبول، حتى وإن كانت حقيقية! جعلها تلف ذراعها اليمنى حول جسد سميرة الضئيل، بينما تلقي

بيسراها حقيبة يدها على أقرب أريكة لها، ثم تدفع بقدمها من الخلف الباب الذي ظل مفتوحاً طوال اللحظات السابقة.

قادت سميرة الخطى نحو غرفة نومها، ثم بحركة دراماتيكية بدت متقنة لفت جسدها منفلتة من ذراع أمل التي تحيطها، وانطرحت بعنف على السرير ما جعله يهتز بها لبضع ثوانٍ، ثم سحبت كفها اليسرى بأسى ناعم لتغطي نصف وجهها وتنطلق في نحيب متواصل. لم تفعل أمل حيال بكاء سميرة شيئاً، سوى أن جلست جوارها تربت على كتفها التي انكمشت كثيراً حتى كادت أن تلاصق ذقنها!

أمل: إيه يا بنتي اللي حصل عشان ده كله... أنا عارفة إن فقد الحبيب صعب لكن مش للدرجة اللي انتي فيها دي!... يا سميرة ده احنا تجاوزنا الثلاثين... سيبنا إيه بقى للمراهقات عشان يعملوه؟!

سميرة: لا يا أمل الموضوع مش بسيط خالص... اللي بيني وبين رمزي ما كانش مجرد مشاعر.

أمل مبتسمة: أيوه أيوه اللي بينك وبين رمزي كان أكبر من مجرد مشاعر عادية بين اتنين بيحبوا بعض، اللي بينك وبينه فاق حب روميو لجولييت وقيس لليلى... والنبي يا سميرة بلاش الكلام الكبير ده... كل يوم في اتنين بيقعوا في الحب وبرضه في اتنين بيسيبوا بعض!

اعتدلت سميرة على السرير وكل معالم الأسى قد ارتسمت على وجهها، فقد اقترب حاجباها كثيراً من بعضهما البعض حتى كادا يلتصقان، بينما تراقص أنفها ارتعاشاً على نغمة ناي حزينة، وبدأ لعابها ينسال عبر لسانها الذي يحاول النطق فبلل شفتيها، وارتكن على الجانبين مستعداً لمواصلة طريقه نحو الذقن، أما جبهتها فقد حملت خطوطاً كثيرة متوازية في

تعرج.... هذا هو الأسى الذي ارتسم على وجه سميرة وطالعته أمل بعينيها، فلم تحتمل الاحتفاظ بالماء في مثانتها أكثر من ذلك، وقامت دون اعتذار متجهة نحو الحمام.

سميرة بمسكنة واضحة: إنتي رايحة فين؟!

أمل دون حتى أن تنظر لها: هاموت... هاعمل على روحي... استني دقيقة!

ما وقع بين أمل وسميرة بعد ذلك جد تراجيدي، يشبه كثيراً مشاهد الأم التي تكتشف فقد ابنتها لعذريتها في غفلة وجهل منها، في أفلام الأسود والأبيض! بعد أن استراحت أمل مما كان يفسد عليها قدرتها على التواصل مع مشاعر سميرة، عادت لتجلس في مواجهتها على السرير الذي لم تتحرك من عليه، ولم تكن تخلت حتى عن الصورة المأساوية التي رسمتها على وجهها، وبهدوء واهتمام أموي حقيقي قالت: ممكن بقى أعرف إيه بالظبط اللي حصل؟!

سميرة وقد شخصت بوجهها للأسفل، معبرة بشكل آخر متجهم: اللي بيني وبين رمزي ما كانش مجرد مقابلات وكلام حب وبس.

أمل باستهانة: ماشي يا ستي... مسك إيدك؟! باسك؟!

سميرة: أكتر.

أمل: باسك في شفايفك يعني؟! مد إيده على صدرك؟

وبمجرد سماع سميرة لآخر جملة تفوهت بها أمل، نهضت بعصبية من على الفراش، وفي لمح البصر تقوس جسدها مائلاً نحو أمل ثم قالت وهي تلطم خدودها: أكتر يا أمل أكتر... رمزي جالي هنا البيت.

رغم أن أمل تعيش حياتها الجنسية بأريحية ودون تعقيدات، منذ فازت بالطلاق من زوجها، إلا أنها لم تكد تسمع ما قالته سميرة، حتى نهضت بدورها مواجهة صديقتها وقابضة على كتفيها بكلتا يديها في عنف وصرخت في وجهها: يا نهار أبوكي أسود... جالك البيت؟! هو أنا مش مية مرة حذرتك من الموضوع ده، وقلتلك إوعي يا سميرة تسمحيله بالدخول لبيتك وإنتي لوحدك... وفي كل مرة كنت بتقوليلي لا.. رمزي لا يمكن يعمل كده أو حتى يطلبه؟!

سميرة وبنبرة نادمة: أيوه وكنتي دايماً تردي علي بإن الراجل اللي ما يطلبش من الست إنه يجيلها البيت وهي لوحدها، ما يبقاش راجل!

أمل: وبعدين يا هبلة إيه اللي حصل... نام معاكي؟!

بعد هذا السؤال انهارت سميرة تماماً، وانهار جسدها على الأرض وهي تولول وتلطم بكفها اليسرى على خدها وهي تقول: أيوه... أيوه يا أمل أيوه، وكان بيقولي إنتي مراتي ومفيش حاجة على الأرض هتمنعنا من الجواز!

أمل: جتك ستين نيلة ما كلهم بيقولوا نفس الكلام... هو إنتي ما شفتيش أفلام عربي قبل كده؟!... يعني تاريخ السينما المصرية ده كله ما عداش عليكي؟!

لم تجب سميرة بل زاد نحيبها وعويلها، في حين لم تتوقف أمل عن توبيخها إلى أن أنهت كلامها بسؤال حاسم: المهم الجنس بينكم وصل لحد فين؟!

نظرت سميرة لها ببلاهة حقيقية وقالت: يعني إيه؟!

أمل: يعني يا منيلة على عينك إنتي لسه عذراء، ولا العصفور دخل العش والموضوع خلص؟!

سميرة منتفضة من تكومها على الأرض، واقفة كسهم في لمح البصر: لا.. أنا عذراء والله تلاتة لسه عذراء... أنا قلتله نأجل الموضوع ده لبعد الجواز عشان يبقى ليه بهجته.

هنا انفرجت أسارير أمل، بل إنها غرقت في ضحك هستيري متواصل، وسط دهشة وذهول سميرة التي لم تفهم سبباً لضحكها في هذا الموقف العسر. خرجت أمل بعد أن توقفت عن الضحك إلى الصالة، محضرة علبة سجائرها من حقيبتها الملقاة على الأريكة، ثم عادت وسميرة مازالت على نظرتها الدَهِشة، بينما استراحت هي على السرير ووضعت ساقاً على ساق ثم أشعلت سيجارة، وبعد أن سحبت نفساً عميقاً قالت مبتسمة والدخان يتسرب تدريجياً من فمها: ها.. وانبسطتي؟!

سميرة: إنتي بتقولي إيه؟!

أمل: بأقولك انبسطتي؟!... يعني الواد رمزي طلع شغال، ولا أحسن إنه غارّ في داهية؟!

(٢)

قابلت أمل سميرة عبد المنعم لأول مرة في قسم الملابس الداخلية بوول وورتس، في ديرة سيتي سنتر بدبي. كان قد مر عامان تقريباً على إقامة أمل بالإمارات، بينما كانت سميرة لا تزال تتحسس خطاها الأولى، ولا

تعرف من الإمارات غير الشارع الذي تسكن به في الشارقة، وموقع المكتب الذي تعمل به في شارع المكتوم وديرة سيتي سنتر بدبي لشراء حاجاتها منه!

في الوقت الذي كانت أمل تعيش مرحلة متوترة في علاقتها بعادل الصحفي بجريدة الخليج، كانت سميرة تفتقد الحديث مع أي كائن حي في هذا البلد الجديد عليها تماماً، والذي هبطت عليه مخلفة وراءها أعواماً طويلة من العمل والعمل فقط بالقاهرة... سميرة التي لم تعتد وجود أنواع مختلفة من حمالات الصدر، ولا تفهم لها هدفاً سوى احتجاز الصدر حتى لا يهتز برعونة أمام الناظرين! تقف حائرة بين أعداد وأنواع لا حصر لها من الحمالات المعلقة على مشاجب صغيرة في ركن خاص بقسم الملابس الداخلية للنساء! لاحظت أمل - التي تهوى كثيراً التلصص على الآخرين ومراقبة تحركاتهم وتصرفاتهم!- توترها وهي تائهة لا تدري أي حمالة صدر من الأشكال والألوان التي أمامها تشتري. لا تدري أمل حتى الآن لماذا اقتحمت عالم حمالات الصدر الذي تشعر سميرة حياله بالتيه؟! ولا لماذا بادرت بالحديث وإطلاق النكات على حمالات الصدر معها؟! لكن هذا ما حدث.

أمل: إنتي عايزة نمرة كام؟!

ارتبكت سميرة ما جعل حمالة الصدر التي تمسكها بيدها تفلت متجهة إلى الأرض فانحنت لترفعها، لكن أمل باغتتها بالقول: سيبك منها، كده كده مقاسها أكبر منك بكتير!

ثم نظرت نظرة متفحصة لصدر سميرة المنكمش وشبه المختفي داخل قميصها الفضفاض الذي كانت ترتديه، ما زاد من ارتباك سميرة وإسراعها بوضع كفيها على صدرها، وكأنها تخفي شيئاً عارياً! فقالت أمل مبتسمة

بسخرية: لا لا يا ماما ما تخافيش.. أنا عندي اتنين زيهم بالظبط!... كل الستات اللي حواليكي دول عندهم من نفس الصنف.. يمكن المقاس يختلف لكن المضمون واحد!

لم تستطع سميرة أن تكتم ضحكتها، فانفلتت قهقهاتها بصوت طفولي عالٍ، ما لبثت أن أدركته فكتمته بيسراها ونظرت لأمل قائلة: إنتي باين عليكي دمك خفيف.

احتفظت أمل ببسمتها الساخرة ثم قالت: تقصدي فقرية!... شوفي إنتي مقاسك ٣٤ B وشكلك مش بتحبي تعملي حركات.. يبقى تاخدي النوع ده!

اختارت لها حمالة صدر غير مبطنة، ذات شريط عريض حول الجذع، وكأسين شبه ملتصقتين وكاسيتين تماماً لتفاحتي الصدر نفسه... نظرت سميرة إلى حمالة الصدر التي اختارتها أمل، وقالت بارتياح: أيوه بالظبط أنا كنت بادور على حاجة بالشكل ده.

أمل: طب وليه بتعملي في نفسك كده؟!

سميرة: أعمل إيه؟!

أمل: يعني ليه الكبت ده؟! ليه تكبتي صدرك ما تسيبيه يفلت ويتنفس!

عادت سميرة لضحكتها الطفولية لتكتمها بنفس الطريقة مرة أخرى، ثم قالت: مش ممكن.. إنتي دمك خفيف أوي... عموماً أنا مش باحب أعمل الحركات دي.

نظرت لها أمل بدهشة وسألتها: إنتي متجوزة؟!

سميرة: لا.

أمل: عشان كده!... بس عموماً حتى لو ما كنتيش اتجوزتي لازم تعيشي (ثم أشارت لصدرها بسبابتها) وتعيشيهم!

من هنا انطلقت الشرارة الأولى لعلاقة الصداقة بين أمل وسميرة، حيث تبادلتا أرقام الهواتف المحمولة وتواعدتا على الاتصال. كعادة أمل لم تذكر شيئاً عن سميرة في اليوم التالي وأكملت حياتها بشكل طبيعي جداً، عمل ومناقشات في كل شيء وأي شيء مع الزملاء، وافتقاد شديد لعادل الذي لم يتوقف عن إرسال رسائل مشفرة لها عبر مقالاته الأسبوعية بالجريدة، تحمل في كثير من الأحيان تجريحاً وتشكيكاً في حبها له. أما سميرة فقد فرحت كثيراً بتلك الصدفة السعيدة التي جمعتها بأمل، وبنت عليها آمالاً عريضة بتطور العلاقة وتوطد أواصر الصداقة بينهما، وإن ظلت متشككة في ترحيب أمل باتصالها لمدة يومين، حيث إنها لم تعتد في القاهرة أن يتبادل الغرباء أرقام التليفونات في محال البيع والشراء، ومن ثم بناء علاقة على هذا الأساس، بعد يومين قررت - بعد أن أقنعت نفسها بأنه ربما يكون ذلك هو نمط الحياة في دبي والإمارات كلها - أن تتصل بأمل لكنها لم تجب عليها، ما أدخل إلى نفسها مشاعر حزينة ربما ما كانت لتداخلها لو كانت في مصر، لكنها في النهاية أقنعت نفسها بأن تلك هي النتيجة الطبيعية للطريقة التي تعارفتا بها، وأنه ما كان عليها أن تتسرع وتخطو خطوة الاتصال.

من الطبيعي أن تتلقى أمل اتصالات عديدة خلال اليوم من مصادرها الصحفية وزملاء العمل، للاتفاق على مواعيد التصوير أو إجراء المقابلات الصحفية وغيره مما تقتضيه ظروف عملها، والطبيعي أيضاً أن يفلت منها اتصال أو اثنان، وكان اتصال سميرة لسوء حظها ربما، واحداً من تلك

الاتصالات: في المساء وبينما تجلس على أريكتها المفضلة في صدر صالة منزلها، تشاهد شاشة التليفزيون ببلاهة حقيقية، حيث صور لشخوص يتحركون دون أي تركيز أو وعي حقيقي منها لسبب تحركاتهم، مدت يدها نحو هاتفها المحمول على سبيل التغيير وكسر حدة الملل القاتل، وأخذت تضغط على الأزرار دون أن تعرف ما الذي تريده بالتحديد، حتى وصلت إلى المكالمات التي لم ترد عليها، فاكتشفت اسم سميرة بينها، حينها وقعت في حيرة كثيراً ما تقع فيها، فغالباً ما تسجل أسماء كثيرة لأرقام تليفونات، ثم تنسى أصحابها في ما بعد ومتى قابلتهم ولماذا سجلت أرقامهم! حينها تقوم بإلغاء الرقم وصاحبه. لكنها هذه المرة ومع سميرة، لم تدر لماذا راودتها الرغبة في الاتصال؟ ربما لكلاسيكية الاسم! فسميرة اسم كلاسيكي ارتبط غالباً بشخصيات روائية وسينمائية، بينما يندر في الواقع، خاصة واقعنا المعاصر.. فكم امرأة في القرن الواحد والعشرين تحمل اسم سميرة؟!

اتصلت أمل وهي حذرة من أن تدرك سميرة أنها لا تتذكر أي شيء عنها، فبدأت المكالمة بمباغتتها قائلة: أهلاً سميرة.. أخيراً قررتي تتصلي بيا.

عندما شاهدت سميرة اسم أمل على شاشة الهاتف، انتابها إحساس غامض بالفرح، ربما لأن الإحساس بالغربة يأكلها، ولا تدري ما الذي يمكن أن تفعله حياله سوى الصمت وترقب تطور الأمور... فتحت الخط على الاتصال، وقبل أن تنطق كانت جملة أمل قد سبقتها إلى أذنها ما زاد إحساسها بالفرحة، فأمل على ما يبدو كانت تنتظر مبادرتها بالاتصال خوفاً من أن تُقابَل بالرفض، خاصة وأنها هي التي بادرت بالكلام والتعارف في وول ورتس، وحشرت أنفها في ما لا يعنيها، إضافة إلى مبادرتها بطلب تبادل أرقام التليفونات.

سميرة بصوتها الحيي المنخفض: لا أبداً... بس أنا كنت مترددة لتكوني طلبت رقم تليفوني مجاملة مش أكتر، لما لقيتيني متلخبطة في وول ورتس.

هنا أضاء المصباح في عقل أمل، واستطاعت خزينة ذاكرتها إخراج الورقة الخاصة بسميرة، فقالت مجيبة بإحساس حقيقي بالخيبة، وهي تلطم بيدها على خدها من هول إدراك أن تلك البلهاء التي كانت تقف حائرة بين حمالات الصدر في وول ورتس هي سميرة! والتي لم يكن تدخلها في أمر حيرتها سوى واحدة من نكاتها التي تطلقها على البشر من حولها في خبث لا يفهمه غيرها.

إزاي تفكري بالشكل ده؟! يا شيخة ده وشك السمح هو اللي خلاني أكلمك، وأحب أتعرف عليكي.

لم تدر أمل بهذه الكلمات التي أطلقتها في رعونة كعادتها، أنها سوف تتورط في الخروج لمقابلة سميرة بعد إغلاق الخط مباشرة! في الوقت الذي كانت سميرة ترتدي ملابسها مبتهجة لأنها أخيراً ستجد من تخرج لمقابلته والحديث معه في هذه المدينة الصامتة، كانت أمل تسب وتلعن أبا الذي أنجبها في هذا الكون، والجينات التي تجعلها دائماً تتورط في مشاكل وتعاسة الآخرين، بينما تسير هي في هذا الكون الفسيح كسيسزيفة حقيقية تحمل صخرة آلامها دون أذن واحدة تسمع أو تستجيب!

ربما ما جعل أمل تخرج في نهاية الأمر، وهي راضية عن هذا اللقاء مع هذه الفتاة التي تدعى سميرة، هو أنها بحق كانت تريد أي شيء يلهيها عن التفكير في عادل الذي اختفى، ورسائله المؤلمة إليها التي يضمنها مقالاته بالجريدة، فهي لم تكن تدرك طوال العامين اللذين مضيا على علاقتهما أنه

بالفعل تورط في حبها، فقد كانت تواصل سيرها في علاقتهما على أنها وحدها التي تورطت في حبه، أو ربما اعتياد وجوده في حياتها بشكل أو بآخر، بعد أن قدمت إلى الإمارات مكللة بفشل ساحق ومنقطع النظير في زواجها، وحرمانها من ابنها الذي اضطرت إلى أن تتركه في حضانة أمها، بعد أن رفض والده الموافقة على سفره عندما قررت مغادرة مصر. لم يكن أمامها سوى الاختيار بين أن ترضخ لقانون الذكر أو أن تضرب به عرض الحائط، فحزمت أمرها مع حقائبها ورحلت، مؤكدة لزوجها السابق في صلف غير مبرر أنها عائدة لأخذ ابنها يوماً ما، لكنها لم تعد لتأخذه حتى الآن. بعد مرور عامين على رحيلها لم يتبق من أمومتها سوى بضع مكالمات هاتفية تذكرها بوليدها، الذي لم يعد يتذكرها إلا عند تسلمه هداياها التي تصله من وقت لآخر، وعند زيارتها الوحيدة التي قامت بها لمدة أسبوع خلال عامين.

خرجت أمل لملاقاة سميرة وهي محملة بكثير من الأسى للذكريات المؤلمة التي تدفقت على وعيها فجأة، من اختفاء عادل وطلاقها العظيم وفقدان ابنها الذي لم تعد فعلياً تمتلك شيئاً مهماً في الحياة سواه، وإن كان هذا الأمر مشكوكاً فيه؛ فهو لا يحمل اسمها ولن يحمله يوماً حتى في الرقم القومي أو جواز السفر! في سيارتها أخذت تقنع نفسها بأنه ليس من العدل أن تذهب لهذه الفتاة بكل هذه الآلام التي لابد وأنها مرسومة بوضوح على معالم وجهها، فأخذت طوال الطريق تدلي المرآة المثبتة أمامها وتنظر إلى وجهها، محاولة العثور على تعبير أكثر مرحاً.

سميرة على العكس تماماً، عندما نزلت من شقتها كانت تشعر بفرحة حملتها تعبيرات وجهها بوضوح، وخلال الطريق وهي في التاكسي كانت

تفكر في شكل الحديث الذي من الممكن أن يدور بينها وبين أمل، ليس لديها الكثير لتحكيه، فهي مهندسة معمارية ماهرة، عملت منذ تخرجت في العام ١٩٩٤ في كلية الهندسة بجد واجتهاد، ألقت وراء ظهرها فكرة الزواج أو حتى الارتباط برجل، بعد قصة حب واحدة فاشلة مع أحد زملائها بالكلية، قررت بعدها ألا تسلم قياد حياتها ومشاعرها لآخرين، وعزمت على أن تصنع فرحتها بنفسها، فلم تجد على الأرض شيئاً يمكنها من خلاله تشكيل الفرحة ونحتها في حياتها سوى العمل، فهو الشيء الوحيد الذي لا يتدخل فيه الآخرون، فقط هي وقدرتها على الإبداع، فكان أمر سني عمرها كلها بعد انتهاء الدراسة، العمل ثم العمل ثم العمل.. نجاح يقود إلى نجاح فنجاح جديد، حتى تم ترشيحها من قبل صاحب شركة الاستشارات الهندسية التي تعمل بها كي تسافر للعمل في فرع الشركة بالإمارات، والعكوف على إنجاز مشروع معماري ضخم في دبي، يتطلب مهارات عالية.

عندما وصلت كلتاهما إلى مقهى لانا روسا في منطقة القصباء بالشارقة، كانتا في وقت واحد تبحثان في الوجوه المستقرة على الطاولات عن بعضهما البعض، مما أدى في النهاية إلى اصطدام خفيف لجسديهما أعقبته آهة ثم اندهاش مبتهج، وبعد تصافح حار بالأيدي وعناق سريع صحبته قبلتان تم تبادلهما بشكل آلي على الخدود، نظرتا في حركة آلية مستديرة للبحث عن طاولة فارغة، ما دعا النادلة الفلبينية بابتسامتها التي تشبه ابتسامة الفأرة في أفلام الكرتون، إلى أن تقودهما وهي تحمل قائمة المشروبات في يدها إلى طاولة جانبية، يجاورها مصباح باهت الضوء يضفي جواً رومانسياً على المكان، ثم وضع قائمتي المشروبات أمامهما في أدب شديد الاصطناع.

ربما لم تدر أمل وسميرة أن لقاءهما العبثي هذا سيؤدي إلى صداقة قوية، مستعدة لتقبل جميع التصادمات والاختلافات العنيفة بين شخصيتيهما بصدر رحب، والمضي قدماً في الصداقة غير متقبلتين لمجرد احتمال واحد يؤدي إلى انتهائها. وبرغم أن علاقتهما بدأت بسلطة عليا من أمل، إلا أن الأيام على تراكمها أثبتت أن أمل أيضاً تحتاج إلى سميرة ونصائحها، بل وإلى إرشادها إلى التصرف الصحيح في كثير من المواقف، خاصة تلك المواقف التي لا تتطلب رعونة بل هدوءاً.

تحولت أمل وسميرة لما يشبه الأسطورة في دبي كلها، ذلك البلد الذي لا تتشكل فيه علاقة إلا إذا كان وراءها مصلحة ما! حتى وإن كانت المصلحة مجرد كأسين من النبيذ الأحمر في أحد البارات، أو مضاجعة عابرة تقوم بها امرأة شابة تحلم بالعثور على فارس أحلامها في بلد لا تعرف الفروسية، وإنما آلات متعة لابد ستحتاج إليها المرأة مهما تحكمت في وخزات أسفلها وارتعاشات رحمها الذي ينشد ساكناً يقيم داخله ولو لبضع ثوانٍ، وسط قفر المشاعر وصراعات العمل ومقاومة العودة إلى الوطن، ذلك الذي تخلصت معه من القيود وانطلقت بما يحلو لها من الملابس والشعور بالاستقلال بعيداً عن قوانين الأهل. الأهل الذين في الغالب لا يعنيهم ما الذي يمكن أن تفعله فتاتهم في الغربة، مادامت الحوالة المالية تصل كل شهر في موعدها، ومادامت تفعل ما تفعله بعيداً عن مراقبة الجيران والناس الذين يتخبطون في عرق أيامهم في الشارع.

بنات.. بنات.. بنات .. هذه هي دبي، بلد مليء بالبنات اللائي يحلمن بالرفاهية التي لم يوفرها الأهل، ولم يكن ليقدمها فارس الأحلام الذي ضل طريقه في الوطن، أو ربما رحل مع البنات لكنه بالتأكيد لن ينظر للراحلات

معه، بل سيبحث عن فتاة قابعة جوار منزل أمه لا تملك فك القيد، وتنتظر من يمنحها قيداً مغايراً عما اعتادته في بيت أبيها، كي ترسلها له في أول شحنة قادمة من الوطن!

كان رمزي أول ذكر تتورط معه سميرة في علاقة حب حقيقية، مليئة بالدهشة والمعرفة لطبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، بعد تامر حبيب الجامعة الذي تخلى عن عشقها وولى ظهره لها عند أول مفترق طرق سببه إعاقتها.. سميرة التي تعيش مع إعاقة طفيفة في ذراعها وساقها اليمنى إثر جرعة تطعيم شلل أطفال فاسدة، حاربها والداها باستماتة، تلاها فقدها لوالدتها بعد معاناة مع سرطان الثدي وهي على عتبات السادسة، قررت الانسحاب من الحياة موارية إعاقتها الجسدية، ومكتفية بطاقتها الجبارة وذكائها الملحوظ، كي تحقق انتصارها الوحيد في ذلك الجزء من الكون الذي يتم تقييم النساء فيه بأجسادهن، إلى أن التقت أمل الجنية التي تحول تراب الجميع إلى ذهب في ما عدا ترابها الشخصي، تعيش به يملأ رئتيها، ولا تصلح أعتى أنواع السجائر قوة أن تأخذه إلى الخارج مع زفرات الدخان.

أما أمل فهي لا تدري حتى الآن الدافع الحقيقي وراء توطد علاقتها بسميرة، فلم تكن لتتخيل أبداً أنها ستكون صديقة حميمة لفتاة منطوية على ذاتها، يعلوها الكثير من طبقات الطين التي تواري جمالها. ملابس فضفاضة، وغطاء شعر يأكل وجهها، وألوان كئيبة تطرد البهجة عن المكان الذي تراوحه! لا تدري إن كانت فعلاً تتمتع بموهبة الرؤية عن بعد وقوة سبر الأغوار! لأنها بعد مرور العديد من الأعوام وهي تحمل حقائبها في رحلة عودة نهائية إلى الوطن، لم يكن هناك من تبكي على فراقه بحرقة سوى

سميرة، وأدركت وهي تجلس على مقعد الطائرة منتظرة لحظة الإقلاع أنها خلفت وراءها جزءاً حقيقياً من وطنها الذي تقصده.

في الوقت الذي كانت أمل تشعر بقليل من الاستقرار العاطفي غير المشمول بالنفاذ على أرض الواقع، حيث غياب ورقة ممهورة بتصديقات الرسميين تقرها امرأة رسمية لعادل، ظهرت سميرة لتشكل تحدياً حقيقياً لها. كان السؤال الذي لم تسأله لنفسها يوماً: هل ستكون سميرة سبباً في فهمها لموقعها الحقيقي كامرأة في العالم؟ فلقد فجر وجودها العديد من التساؤلات، وفتح الكثير من النوافذ التي لم تكن تدرك أنها تحيطها مغلقة على أشرعتها. عندما بدأت رحلتها مع سميرة كانت تسلي نفسها أثناء غياب عادل المؤقت، بلعب لعبة جديدة تكسر حدة الصمت الذي كانت تعيشه، بين روتين عملها اليومي والاستوديو الفقير الذي كانت تقطنه في منطقة الرولة بالشارقة، بين جيرانها الهنود الذين يوفرون عليها عبء الإقامة كامرأة وحيدة في أحياء التكدس العربي. في البداية لم تكن تهدف لأي شيء سوى التفرج على سميرة، الفتاة الثلاثينية التي تعيش بمعزل عن العالم حتى لا تتذكر إعاقتها كلما نظرت في عيون الآخرين. متعة مشاهدة تلك الفتاة بجسدها المختفي داخل الأقمشة، والوجه المظلل بغطاء شعر يأكل نصفه، بينما تنطلق بوعي وتحدٍ حقيقي في عالم المعمار، تقفز من نجاح إلى نجاح يزيد بهاءه ذراعها اليمنى التي تتدلى جوارها في صمت، وقدمها اليمنى التي تأخذ جسدها للأسفل قليلاً مع كل خطوة تخطوها. سميرة التي لم تعتد أن تنطلق في الحكي مع أي إنسان على الأرض، حيث أمها التي رحلت إلى أرض الموات وهي في السادسة، وأبيها الذي لم يفعل سوى الدوران بجلد في ساقية الحياة التي حرمته زوجته، مخلفة له عبء رعاية طفلين، ولد في

الثامنة وفتاة معاقة في السادسة. من العمل إلى المطبخ إلى طاولة المذاكرة اليومية للطفلين، اللذين تعلقا به كآخر قشة خلفتها الحياة لهما بعد غياب غير مبرر لأمهما. لم يكن لدى أي منهم الوقت ولا الرغبة في فتح بوابة البوح الداخلية، صمت متفق عليه ضمنياً، في محاولة للعبور إلى شاطئ أمان مأمول، لكنه غير محدد الموقع.

نشأت سميرة وسط كل هذا الصمت المكلل بصخب دفع والدها لها، كي تحقق ذاتها في الدراسة والعمل، كان الرجل يؤهلها للعيش وحيدة حتى نهاية العمر، لأنه كان يدرك في داخله أنها ستكون بضاعة غير رائجة وسط سوق النساء اللواتي يمتلكن أذرعاً وأقداماً سليمة، وسميرة الصغيرة التي لم تع ضخامة مصيبتها في سوق المنتج النسوي، تستجيب لأبيها فرحة بما تنجزه من أشياء عادة لا تقبل عليها الفتيات.

مشاهدة سميرة في صمت كانت لعبة أمل الأولى، حتى بدأ شريط الحكايات في الدوران. لم تدر أي منهما النقطة التي وقفتا عندها لتأذنا لذلك الشريط في البدء، لكنه بدأ على أية حال. ما تتذكره أمل جيداً أنها فصلت بين حياتها السرية مع عادل وبين سميرة، لم تكن تتخيل قط أن بإمكانها استيعاب وجود عادل في حياتها دون زواج، لكنها على أية حال لم تكن ترغب في أن تعطيها أي شيء، كل ما فكرت فيه أنها تحمل لها شيئاً ربما يكون ثميناً وربما يكون رديئاً في تلك الحياة، وعليها أن تنتظره وتتقبله أياً كان.

بعد انقضاء فترة الثرثرات الفارغة بين الامرأتين، وبسؤال عابر من أمل، واربت سميرة بوابة البوح وسمحت لقليل من سيل داخلها المكبوت أن ينسكب بين يدي أمل، دون أن تدري إن كانت ستحمل قليلها هذا بحرص، أم ستتركه يسيل من بين أصابعها غافلة عن قدسيته؟!

أمل: إنتي حبيتي قبل كده يا سميرة؟

سميرة بنظرة نحو السماء التي تعتليهما، وهما جالستان على النجيل المجاور لكورنيش بحيرة خالد في الشارقة: أكيد!

أمل ضاحكة بعبث كعادتها: يا بنت الإيه يا سوسة!

سميرة متعجبة: سوسة؟! ليه يعني؟!

أمل: أصلك عاملالي فيها شيخ غفر، ومالكيش علاقة خالص بالرجالة غير أبوكي وأخوكي!

سميرة: احتمال تكون هي دي الحقيقة.

أمل: أمال إيه حكاية الحب ده؟!

سميرة: تصدقي يا أمل؟! أنا نفسي من زمان أحكي عن تامر، بس مش عارفة لمين؟!

أمل: ليا أنا طبعاً... قولي قولي خلينا نتسلى!

سميرة: ما أفتكرش إنها هتكون قصة مسلية بالنسبة لي أبداً.

أمل: لو مزاجك هيتعكر منها بلاش تحكيها.

تعرف أمل جيداً أن أداء اللامبالاة تجاه أي معلومة يتم طرحها بشكل عفوي من قبل أي شخص، يكون دافعاً حقيقياً له كي يحكي، وهذا ما حدث تماماً مع سميرة، فقد انطلقت تروي قصتها مع تامر، ربما للمرة الأولى بصراحة.

تامر... جارها وزميلها الذي يسبقها بعامين في كلية الهندسة قسم عمارة في جامعة القاهرة.. ملاحقات مراهقة لها وهي طالبة في الثانوية العامة، يتأرجح شعرها الملموم على شكل ذيل حصان على ظهرها، بينما

تخطو بدلال، خطواً وئيداً وهي تلكز بقدمها المصابة. كان تامر يرى خطوها مثيراً على علته، وينفذ بعينيه الحالمتين إلى أبعد مما يراه العامة، فسميرة التي أنقذها والداها من شلل كاد يعصف تماماً بنصفها الأيمن، مخلفاً آثاراً طفيفة على ذراعها وقدمها، كانت تمتلك من الجمال والرقة والذكاء، ما يغطي على علتها، وتامر استطاع أن يرى كل ما يكمن خلف تلك العلة، التي تتحسر كل الشفاه عليها وهي تمصمص في كل مرة تتحدث إلى سميرة. أخفى تامر عشقه لها، لكنها أدركته بفراسة أنثى حقيقية تتفتح زهرتها على العالم. في صمت عشقا بعضهما بعضاً، وفي صمت قرر تامر أن تكون سميرة امرأته إلى النهاية. بعد التحاقها بكلية الهندسة وانضمامها لقسم العمارة، بدأ حبهما يشهد بعض التطورات، لم يكن هناك كلام في الحب، لكن الحب هو الذي ظلل خطاهما في تلك الكلية، حيث يعطيها بعضاً من خبرته كطالب قديم، وهي تساعده في تنفيذ المشاريع المطلوبة منه بلعب دور *"العفريتة" الخاصة به عن جدارة. تخرج تامر ولحقت به سميرة بعد عامين، وبعد عامين آخرين تقدم لخطبتها وهو يجرجر خلفه والديه اللذين ذهبا معه مجبرين، وهما لا يريان فيها فتاة كفؤاً لتكون زوجة لابنهما، الذي يستحق فتاة سليمة البدن!

أمل: مش فاهمة.. يعني إيه ماكانوش شايفين إنك تستاهلي ابنهم؟! ما إنتي خريجة هندسة زيه وبتشتغلي ومن عيلة محترمة، إيه اللي ناقص؟!

سميرة ببعض من الشعور بالخزي والنقص: هما عندهم حق برضه، كل أب وأم يتمنوا لابنهم ست جميلة وكاملة.

أمل بغضب حقيقي: وهو إنتي وحشة وناقصة؟

سميرة بنفس الإحساس بالنقص: طبعاً... مش عندي إيد ورجل مشلولين.[1]

أمل: إنتي مش مشلولة يا سميرة، وحتى لو مشلولة إيه يعني؟!

سميرة: متشكرة إنك بتقولي كده.

أمل مستهينة بشكر سميرة إياها: العفو أي خدمة!... إنتي عبيطة يا سميرة؟!

سميرة: ليه؟!

أمل: لأن واحدة في مكانتك صعب قوي تكون دي نظرتها لنفسها.

سميرة: وهي إيه نظرتي لنفسي؟!

أمل: نظرة نقص...إنتي عندك شعور بالنقص وإنك أقل من اللي حواليكي.

سميرة بتحد: لأ... أنا مش محتاجة لحد رغم إيدي ورجلي.

أمل: مش هو ده اللي أقصده.

سميرة: أمال تقصدي إيه؟!

تقرر أمل إرجاء تلك المناقشة لحين سماع بقية القصة، وتقول: بس قوليلي الأول إيه اللي حصل وبعدين نتناقش.

---

(١)العفريتة : لقب يتم إطلاقه على الطلاب الأصغر سناً في قسم العمارة بكلية الهندسة، والذين يقومون بمساعدة الطلاب الأكبر في تنفيذ مشاريع تخرجهم.

تنطلق سميرة في سرد بقية قصة حبها الحزينة، فقد حضر والدا تامر مجبرين لخطبتها من والدها، ولدهشة الأب الذي لم يكن يتخيل أن سميرة ستجد طريقها لبيت الزوجية بهذه السرعة والسهولة، ومن رجل متميز مثل تامر، قرر أن يخلي مسئوليته فقال لأهل العريس قبل أن يقرأوا الفاتحة: بقى صلي بينا على النبي يا أبو تامر.

أبو تامر: عليه الصلاة والسلام.... خير؟

أبو سميرة: أنا عارف إن بنتي عندها مشكلة في إيدها ورجلها.

تنهد أبو تامر آسفاً وقال: وإحنا كمان عارفين.. بس ابني عايز بنتك.

أبو سميرة: أنا بس حبيت ألفت نظركم، عشان ماتبقاش المسألة دي سبب لمشاكل في المستقبل.

تتنهد أم تامر بدورها وتقول: إن شاء الله مافيش مشاكل وينهي ربنا الموضوع ده على خير!

في داخل والدي تامر، كانا يتمنيان أن تضع تلك القصة نهايتها سريعاً، ويستيقظ ابنهما على حقيقة الفتاة التي اختارها لنفسه في ظل اندفاع الشباب، بينما أقنع والد سميرة نفسه أنه أخلى مسئوليته أمام المشترين! عندما أعلن بأمانة شديدة عن عيوب البضاعة التي يعرضها في سوق البنات!

عاشت سميرة شهوراً معدودة في ظل قصة عشق كللت بالنجاح، وخاتم خطبة في الكف اليمنى المعطوبة يستعد لينتقل قريباً للكف اليسرى، لكن الحلم الوردي لم يستمر حتى مشهد النهاية بقبلة عميقة في ليلة الفرح، فقد استطاع والدا تامر أن يقنعاه بأن سميرة ليست كفؤاً له، فكيف لتلك

الفتاة ذات اليد الواحدة أن تحمل طفلاً، أو تغسل أطباقاً متكدسة في حوض المطبخ، أو تعد طعاماً لعائلتها؟! وكيف لقدمها اليمنى المعتلة أن تتحمل ثقل بطنها في الحمل؟! بل وصل بهما الأمر إلى التشكيك في قدرتها على الحمل من الأساس، فمن أدراهما أن العقاقير الكثيرة التي تناولتها وهي صغيرة أثناء إنقاذها من الشلل المحقق قد أثرت في قدرتها الإنجابية؟!... رضخ تامر لضغوط والديه، ونصائح الجيران الذين تطوعوا لفتح عينيه على حقيقة سميرة المريعة، ونسي أن تلك المشلولة صاحبة الذراع والقدم الواحدة تخرجت في قسم العمارة مثله، وحملت مسطرة "تي" الضخمة خمس سنوات ورسمت بها، واستخدمت المثلثات والاسطنبات، وقبضت بيسراها على أقلام التحبير وأقلام الرصاص لترسم رسوماً دقيقة تقاس بالملليمتر على أوراق يضاعف حجمها حجم جسدها الضئيل، وأن وجودها في كلية الهندسة تكلل بالنجاح والعمل مباشرة بعد تخرجها في مكتب أستاذها بالجامعة، الذي اختارها من بين العديد من طلاب الدفعة لكفاءتها كمعمارية مبدعة، بينما احتاج هو بعد انتهائه من فترة الجيش إلى عام كامل كي يبحث عن عمل، حتى عثر على فرصته بأحد المكاتب الاستشارية الصغيرة!

وهكذا انتهت قصة الحب الوحيدة في حياة سميرة، لكن النهاية لم تحتج إلى بضعة أشهر أو عام أو حتى عامين كي تضع أوزارها تماماً داخلها، فالنهاية كانت بداية عهد جديد لها مع الحياة. لأول مرة ترى ذراعها المدلاة جوارها في سكون، وتلحظ قدمها التي تلكز بها الأرض، وتتجلى أمامها حقيقة لم تتعامل معها يوماً ولم ترها وهي تتزين كأي فتاة أمام المرآة. ارتدت الحجاب واختارت ملابس فضفاضة، يضيع داخلها جسدها ليصبح بلا

ملامح. حكمت على قدمها السليمة أن تُسجن مع اليمنى، وحشرتهما داخل أحذية جلدية سوداء تستوي نعالها بالأرض. أحكمت لف غطاء رأسها، وكبحت جماح خصلاتها الليلية التي كانت تتناثر على ظهرها في دلال، ثم انطلقت في أيامها لا تنظر جوارها ولا خلفها ولا ترى أمامها سوى العمل... وتحلم بالرحيل... الرحيل من ذلك العالم الذي رفضها إلى أي مكان لا يعرفها، ولا يرى سوى نصفها الأيمن المعطوب!

الخوف، هو الإحساس الذي تملك أمل عقب جلسة البوح الأولى تلك، فلأول مرة ترى بوضوح نصف سميرة الأيمن، بل إنها ضبطت نفسها تسترق النظر كي تقف على حقيقة تلك الإعاقة التي كانت سبباً رئيسياً وراء انعزال إنسان عن العالم. اجتاحتها مشاعر قيء عند كل صباح حتى اعتقدت أنها حامل، لكنها بحسبة بسيطة أدركت أنه من الصعب حدوث ذلك مع اكتمال شهرين على غياب عادل. عادل.. كم تفتقد ذراعيه الآن! اكتشفت أنها فعلاً تحبه، وأنها كانت تنكر ذلك الحب رغم ترديدها لكلمة أحبك في كل مكالمة تليفون تجري بينهما، ومع كل قبلة وكل عناق.. توهم نفسها في كل مرة أنه فقط يعجبها، وأنها من المستحيل أن تقع في عشق رجل قررت تحت تأثير الفودكا أن تضاجعه، لتنتقم من مضاجعات زوجها السابق لنساء بلا أسماء، كن يشطبن بآثارهن على جسدها كله، ويحلنها إلى شبح بلا ملامح حقيقية تراها في المرآة وهي تستعد يومياً للذهاب إلى عملها.

قررت أمل في خفاء داخل روحها ألا ترى سميرة مرة أخرى... تملكها الرعب من أن تعود إلى التلصص بالنظر نحو جسدها، خافت من نصف سميرة الأيمن الذي رأت فيه جسدها المشوه، تحت تأثير طعنات

إيلاج زوجها في فرجها، جسدها الذي ألقته لعادل مهملة إياه لتكتشف وهو غائب أنه تسلل إلى قلبها.

أسبوعان كاملان تدور حول نفسها بين مقر العمل ومقر سكنها، ترتعش وهي قابضة على كتاب لا تتذكر حتى عنوانه، وعيناها زائغتان بين السطور وبين شاشة المحمول، في انتظار يائس لرنين قد يأتي بصوت عادل إليها ليقول أي شيء... أحبك ربما؟ أو ربما أحترمك رغم جسدك المنثور على فراشي دون ورقة ممهورة بتوقيع الرسميين في الكون؟ أو ربما عشقتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها بأحد بارات دبي تسكبين الفودكا دفعة واحدة نحو فمك بلا مبالاة؟! أو... أو أي شيء... كانت تنتظر الاتصال وكفى... وصلت في النهاية إلى انتظار محموم لأي رنين من أي مخلوق، يطمئنها على قدسية جسدها وعلى اكتماله.

بعد مرور أسبوعين ارتفع رنين محمولها برقم أرضي من الشارقة، أجابته بلهفة، لكن الصمت كان مجيبها على الطرف الآخر، أخذت تصرخ: "ألو..ألو"، وعندما ظل الخط مفتوحاً يجيبها الصمت المحاط بالفراغ، توسلت "أرجوك رد علي... من فضلك رد"، انتهت المكالمة وانهارت مع انغلاق الخط باكية. انزلق جسدها بانسيابية من لا أعصاب في جسده، لتتكوم على بلاط غرفتها الوحيدة في شارع الرولة، ثم انخرطت في نحيب متصل... وبين شهيق وزفير عال تختلط به دموع ساخنة، ارتفع رنين المحمول مرة أخرى... عادت الأعصاب لجسدها دفعة واحدة، والتفتت بحدة متلهفة نحو الأريكة لتلتقط بكلتا كفيها التليفون، وبحركة عصبية أزاحت دموعها التي تكاد أن تختم على عينيها، لكنها لم تجد سوى رقم سميرة.

طالت لحظات التردد فتوقف الرنين تاركاً ملاحظة (١ مكالمة لم ترد عليها)، وفي يأس حقيقي اتصلت بسميرة.

سميرة: ألو!

أمل ببكاء شاهق: سميرة... أنا تعبانة قوي... أنا تعبانة بجد يا سميرة... أنا عايزة أموت... خلاص كفاية عليا الدنيا كده!

سميرة: لا إله إلا الله... إهدي يا أمل... إيه اللي حصل؟!

لم يكن من الممكن أن تقص أمل سبب حزنها الحقيقي على مسامع سميرة، لكنها استطاعت بحيلة تعلمتها من الحياة أن تسكب في أذنيها قصة زواجها الفاشل وابنها التي أُجبرَت على تركه... من الضروري أن يكون ابتعادها عن ابنها إجباراً، وإلا ما اكتملت قصتها في الصورة المأساوية التي بإمكانها أن تذرف معها كل الدمع الذي تنكره داخلها على عادل!

اقتنعت سميرة دون مبررات مقدمة من أمل، أنها كانت قد ابتعدت عنها طوال تلك الفترة لأنها تتألم من فرط مأساتها مع طليقها وفقدها لابنها، وبنوع من الرغبة في حمد الله على بلوتها من باب رؤية ما ابتلي به الآخرون، صلت لله ركعتي شكر على حفظه لها من مأساة مماثلة! عادت سميرة وأمل للقاءاتهما المتكررة مرة أخرى، ولكنهما تضامنتا على الصمت عن المآسي، وانشغلتا في حملة تسوق اقترحتها أمل على سميرة، كي تغير قليلاً من أسلوب ملبسها، وتختار ألواناً أكثر زهواً تعبر عن جمالها المدفون. أحبت سميرة الفكرة، فقد كانت قد بدأت مشوار الانعتاق من الاختفاء والرغبة في التعبير عن نفسها، وسط زحام أجساد البنات المتكدسات في مراكز التسوق، والعابثات بالأنامل في خصلات الشعر الملون خلف مقود السيارات الفارهة قياساً بسيارات القاهرة المتهالكة!

أثناء واحدة من حملاتها اليومية عقب انتهاء العمل في مراكز التسوق، وصل إلى مسامع أمل صوت رنين هاتفها، الملقى داخل حقيبتها في زحام أقلامها ومفكراتها ومحفظتها والعديد من بطاقات العمل والأوراق المسجل عليها الكثير من الملاحظات وأرقام تليفونات مصادرها الصحفية. تناولت حقيبتها المعلقة على كتفها، وبعدم اكتراث حقيقي وهي تكمل حديثها مع سميرة أدارت كفها العمياء داخل الحقيبة لتفتش عن الهاتف، لحسن حظها وقعت الكف على الهاتف جاذبة إياه خارج الحقيبة، ما إن وقع نظرها على الشاشة حتى ضغطت على زر الإجابة في لهفة صحبها ضجيج دقات عنيفة، صدرت عن قفصها الصدري ارتج لها كامل جسدها، وقالت وهي تلهث واضعة الهاتف على أذنها مشيرة بكفها الأخرى لسميرة كي تنتظرها قليلاً: ثانية واحدة يا سميرة.

عادل: مين سميرة دي؟!

أمل: دي واحدة صاحبتي.

عادل: أول مرة أسمع إن ليكي صاحبة واسمها سميرة.

أمل: دي صديقة جديدة إنت ما تعرفهاش.

عادل: وعرفتيها إمتى بقى؟!

أمل بصوت لائم: في التلات أشهر اللي فاتو!

عادل: آه ه ه!

أمل:.....

عادل: إنتي ليه ما فكرتيش تتصلي بيا ولو مرة واحدة في الشهور اللي فاتت دي؟!

أمل: وإنت ليه ما رديتش عليا لما اتصلت بيا من رقم أرضي رغم إني اترجيتك ترد؟!

عادل بصوت واثق: أنا ما اتصلتش بيكي قبل كده، لا من تليفون أرضي ولا من موبايل.

أمل: والله؟!

عادل في حنو: وحياة أمل عندي.

أمل بدلال: وهي حياة أمل لها أهمية عندك؟!

عادل: تبقي عبيطة لو كنتي ما تعرفيش كده... إنتي ليه ما اتصلتيش... ما وحشتكيش خالص؟!

أمل: وحشتني لكن خفت أرخص نفسي أكتر من كده معاك.

عادل في ضيق: رخيصة؟! مش قلتلك إنك عبيطة... إنتي عمرك ما كنتي رخيصة... حتى لما لقطتك من البار عميانة من الفودكا اللي أربعتيها (ينطلق ضاحكاً).

أمل: شفت؟! شفت إنت قلت إيه؟!

عادل: أنا باغيظك يا غبية.. وأنا اللي بأقول عليكي مختلفة عن كل الستات.

أمل بثقة أنثوية: أنا فعلاً مختلفة.

عادل: ما إنتي ماطلعتيش مختلفة أهو... وبتقولي نفس الكلام اللي كل الستات بيقولوه... رخيصة وغالية وبطيخ!

أمل: يعني أنا مش غالية عندك؟!

عادل: لا طبعاً غالية، وإلا ما كنتش اتصلت بيكي بعد الكرفة السودا اللي كرفتيهالي طول الشهور اللي فاتت.

أمل: بذمتك مين اللي كرف مين؟!

عادل: مش وقت عتاب... إنتي وحشاني وعايز أشوفك.

أمل: وأنا كمان.

عادل: والست سميرة اللي إنتي ماشية معاها اليومين دول!

أمل برعونة: إنت عارف يا عادل إن قعدة الستات بمليون جنيه، بس لما ييجي راجل واحد...!

تنطلق ضحكة عادل عالية، لتنطلق بعدها أمل نحو سميرة مقدمة لها مبررات لا تحمل أي تسلسل ولا منطق قياسي واحد، لكنها تستجيب تعاطفاً مع أمل التي اضطرت إلى تركها وحيدة بين المحال المتراصة بانتظام، تتقيأ سلعها في ابتذال تعشقه محافظ النساء!

(٣)

كان لعودة عادل إلى أمل بعض من الانتصار الذي داخلها عند أول مضاجعة بعد الغياب، فلقد عاد إليها معبأً باشتياق جعلها تسهر طوال الليل بين ذراعيه، شفتيها تهدهد شفتيه اللاهثتين، وساقيها تحيطان خصره من الأسفل إلى الأعلى في رقصة اهتز لها صدرها على أهازيج حب شبق. استراح داخلها عندما اطمأنت لامتزاج العشق بالرغبة، وأحست أنها أكثر اقتراباً من أطر المجتمع الذي تجتهد في رفضه منذ توقيعها ورقة الطلاق من

زوجها! يومان كاملان أغفا كل منهما على فراش يجمعهما، وتغافلا خلالهما عما يدور في الخارج. عادل يرقد على طرف الفراش الأيسر لا يلوي على شيء، سبابته ووسطاه تضيقان على سيجارة تتلوها أخرى، يتصاعد الدخان بطيئاً من بين شفتين وعينين هادئتين بين الأهداب، بينما هي تتنقل من النوم عارية على ظهرها إلى الارتكان على ذراع عادل، ترقب الدخان المتصاعد من فمه نحو سقف الغرفة، يدور في رأسها سؤال واحد (هل يفكر في؟ هل يحبني فعلاً؟!).. نهضت متهادية على أطراف قدميها كما اعتادت أن تسير وهي عارية، كمن ترفع ثوبها لتخطو على يابسة مبللة بماء. ذهبت إلى المطبخ وصبت كوبي عصير فراولة خلطته بنفسها، ثم عادت بنفس الخطو الخفيف، تتلوى يميناً ويساراً في تراخ مثير لم تقصده، وشعرها المشعث تنسكب خصلاته في فوضى على وجهها، فتظهر ملامحه خلف الخصلات على ضوء "الأباجورة" الباهت، كجنية هاربة من البحور السبعة. تمر ثوان عديدة وهي تلف حول الفراش، لتصل في النهاية إلى الطرف الأيسر الذي يتمدد عادل على حافته، تهبط ويداها تعانقان كوبي العصير لتستقر على ركبتيها، وكما اعتادت بعد كل جنس مشبع، لوت عنقها جهة اليسار ونظرت إلى عادل مقدمة العصير، ليتناوله في صمت ويدفعه إلى فمه مرة واحدة. ابتسمت سعيدة لاستعادتها رجلها بعد أن يئست من غيابه، وأخذت تحتسي رشفات قصيرة من كوبها، وهي تفكر إن كان بإمكانها أن تسأله السؤال... صمت كسول يحيطهما وعادل يكتفي بالنظر إليها... لم تستطع كبح السؤال داخلها أكثر من ذلك...

أمل: عادل؟

عادل كمن يفيق من غفوة: أيوه!

أمل: إنت بتحبني فعلاً؟!

لم تتمكن أمل طوال خمس سنوات، هي عمر علاقتها بعادل، من أن تحصل على الإجابة التي تريدها، ولم تتمكن أبداً من حسم الأمر داخلها رغم كل ما رأته من حب على يديه، ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تسأله فيها هذا السؤال، لكنها في جميع المرات التي تمكنت من جمع شجاعة كافية لطرحه، لم تحصل سوى على إجابة واحدة، يبتسم عادل والدخان الذي يتصاعد من سيجارته التي لا تفارق كفه يحوم حول رأسها، ثم يمد ذراعه بهدوئه المعتاد ليطفئها بينما يده الأخرى تجذبها نحو صدره، لتلحق اليد التي تخلصت من السيجارة لتوها بالأخرى، ومن ثم تغوص بكلها بين ذراعيه، وتغيب معه في التحام عميق أو سطحي... هذا هو ما يقرره الموقف وملابساته وفقاً لحالة عادل عند كل مرة تطرح فيها السؤال!

يومان من العشق الخالص على يدي عادل، حولا بوصلة أمل ناحية الشرق، ووجدت نفسها دون خطط مسبقة تدفع بسميرة نحو الحب، فقد كان أول ما فعلته عند لقائها بها أن سألتها إن كانت تفكر في الحب والزواج رغم تجربتها الفاشلة مع تامر، لكن سميرة ومن دون مقدمات اتخذت موقفاً دفاعياً لا يتلاءم وجلستهما المتراخية، حيث يجلسان على كرسيي بحر بجوار قناة القصباء المصممة وفقاً للطراز المعماري في فينيسيا، بعد أن خفت حدة حرارة الشمس وأفسحت الرطوبة الطريق لبعض من النسمات المختنقة خلفها.

سميرة محتدة: لأ طبعاً... لا يمكن أسمح لحد إنه يوجهلي إهانة تاني.

أمل: هو الحب إهانة يا سميرة؟!

سميرة: بالنسبة لحالتي ..أيوه!

أمل: مش عارفة ليه على طول محسساني إنك حالة خاصة جداً، مع إنك إنسانة طبيعية للغاية.

سميرة: يمكن من وجهة نظرك، لكن أكيد مش من وجهة نظر الناس التانية.

أمل: مش معنى إن في ناس جاهلة اتسببوا في إهانتك إن كل الناس كده، ومش معنى إن تامر كان ضعيف في مواجهة أهله ومواجهة الناس، إن كل الرجالة كده.

سميرة: ما أقدرش أجازف يا أمل... مش عارفة لو اتعرضت للموقف ده تاني إيه اللي ممكن يحصل لي؟!

أمل: مش كل البنات عندهم مشاكل في إيديهم ورجليهم، ومع ذلك كل البنات بيتعرضوا للهجر وفسخ الخطوبة والطلاق... وأنا قصادك أهو... ما أنا مطلقة.

سميرة: بس إنتي مطلقة بإرادتك... إنتي اللي طلبتي الطلاق وأصريتي عليه.

أمل: بلاش أنا يا ستي... في مطلقات كتير في الدنيا مش بإرادتهم، أزواجهم طلقوهم غيابي... من غير حتى ما يبلغوهم وجهاً لوجه... مش كل الرجالة تامر.

سميرة: طب ما أنا ممكن ألاقي إنسان أتجوزه... لكن إيه اللي هيأكدلي إنه ما يخونيش زي جوزك ما عمل معاكي؟!

أمل بعد تنهيدة حسرة: ومش كل الرجالة محمود طليقي!

سميرة: يا أمل ده إنتي كنتي متجوزة فنان تشكيلي وأستاذ في فنون جميلة.

أمل: وإيه اللي يمنع الفنان التشكيلي من الخيانة؟!

سميرة في محاولة للبحث عن مبررات: أقصد إنه إنسان مثقف وواعي... فنان يا أمل مش أي حد!

أمل: الخيانة مش قاصرة على الزبالين والعربجية يا سميرة!

سميرة في محاولة للتملص: ويعني أنا هالاقي راجل أحبه فين هنا؟!... إن كنت مالقيتش في مصر!

أمل: إنتي في مصر كنت قافلة أبوابك وشبابيكك ورافضة المبدأ من أصله.

سميرة: ولسه رافضاه.

احتاجت أمل إلى ما يقارب الشهرين أو الثلاثة كي تقنع سميرة بمد يديها لفتح نافذتها على الدنيا، فقد كانت سعادتها مع عادل تطغى على أي حسابات أو تجارب سابقة خذلتها، حتى إنها استخدمت الأطفال لإقناعها... الأطفال الذين تخلت هي عن واحد منهم كي تهرب من طغيان زوجها الذي لم يكتف بعامين كاملين في المحاكم كي يطلقها، ولا بتنازلها عن كل شيء كي تحصل على خلاصها بالإبراء، لكنه استمر يلاحقها في كل مكان، يغزل قصص خيانتها له، يلوث بيديه سمعة أم ابنه بدم بارد، فقط لأنها تحررت منه بإرادتها وليس بإرادته هو! كان دائماً ما يردد أن المرأة لا يحق لها ترك الرجل تحت أي ظرف، لكنه عندما يريد أن يلقيها في سلة المهملات، يلقيها ببساطة لتبقى وحيدة منبوذة العمر كله لا يدنو منها رجل

آخر بعد ذلك، تنعق الغربان في مقبرة وحدتها، وتنهش ما تبقى من لحم جسدها المهمل.

نسيت أو تناست، لكنها بالفعل لم تكن تشعر سوى بالحب آنذاك، فعادل يحادثها يومياً ويتفنن في عشقها مع نهاية كل أسبوع، حيث يختبآن عن عيون العالم في جحر أي منهما، فقد ظلا مبقيين على سكنين منفصلين، رغم مبالغتهما في عرض قناعة مستحدثة (لا داعي للأوراق التي تضع الأصفاد في أيدينا، يكفي أن الله شاهد على عشقنا)!

في الإمارات لا يحتاجان إلى شهادة الناس، فكل ملهي في حاله، يسير على صراط النقود في استقامة لا تدفعه يوماً أن يحيد ولو زل فإنه هالك لا محالة! فالأيام في ذلك البلد تمضي أسرع من الضوء، وإن ألهتك نفسك عن الصراط فسوف يأتي اليوم الذي تجد فيه نفسك مقذوفاً إلى بلادك، تعود إليها تماماً مثلما خرجت منها... صفر اليدين.

لم يضع عادل وأمل بند الاستقرار في منزل واحد أبداً في قائمة متطلباتهما، يكتفيان باللقاء في نهاية الأسبوع ومحادثة أو اثنتين في اليوم، يشتكيان مر العمل أو يبثان العشق في آذانهما عبر الأثير... لكن في داخلهما يحسبان ألف حساب للناس، رغم أن الناس هنا غير الناس هناك!

لم تيأس أمل من سميرة، يومياً تحادثها عن التغيير الكبير الذي يحدثه الحب في حياتنا، وكيف أن الحياة لا تستقيم من دون رجل...

(رجل نعشقه... رجل لقاؤه صلاة في قدس الأقداس... شفتاه تبعثان الروح بعد الفناء... في ذراعيه رحاب الجنة... وعلى ضفتي منكبيه حدود الانتشاء... عرقه ارتواء ورائحته ملح الأرض... رجل في عينيك

آدم الوحيد، ينفي كل الرجال عن باقي البقاع... ويتربع في جلاله على عرش الذكر... رجل... رجل يا سميرة... رجل)!

سميرة منبهرة في بساطة: وهو في راجل كده؟!

أمل: أيوه ...عادل كده.

سميرة: يااااه إنتي بتحبيه أوي كده؟!

أمل: أنا مش شايفة إن فيه رجالة تانية في الدنيا!

سميرة: طب ليه مش بتتجوزوا؟

نسيت أمل نفسها كالعادة، لكن سؤال سميرة أعاد إليها الدنيا الحقيقية مرة أخرى... أفاقت على السؤال كمن نهض من نومه مفزوعاً على صراخ ملتاع إلى جواره... لم تستطع أن تخفي ربكتها، لكنها غيبت سميرة عن رؤية رد فعلها بسحبها سيجارة من علبتها وإشعالها، ثم قالت: أكيد هنتجوز.. بس محتاجة أحل مشكلة ابني الأول.

مرة أخرى ابنها، تلقي على غيابه كل همومها، فهي الأم الملتاعة التي سُلبت حقها في احتضان وليدها، بقرار قاس من رجل ظالم آخر في الدنيا... الرجال الظالمون يملؤون الأرض، فوراء كل امرأة تعيسة لابد أن نجد رجلاً ظالماً يمتلئ قلبه بالقسوة... هكذا تسير الأمور منذ استسلمت المرأة في صراع السيادة!

فتح كلام أمل أبواب الحلم على مصراعيها أمام سميرة، عاودتها أحلام المراهقة الأولى... فها هو فارس الأحلام ربما في سيارة فارهة هذه المرة، يأتيها بكامل فتنته، مصففاً شعره بالجل، حالقاً ذقنه أو ربما مشذباً إياها بماكينة الحلاقة الكهربية، تاركاً ذكورته المهيبة تشع من شعيرات ذقنه

الخشنة، تفوح منه رائحة "لاكسوت" الملهبة للحواس! وآخذاً إياها على مقعد سيارته المجاور... يقود في أنفة بذراعه اليسرى ولافاً إياها باليمنى... يتحدث خليطاً من العربية والإنجليزية بطلاقة يُحسد عليها، ونافخاً دخان سيجارته المارلبورو بثقة، ليلفها ويعزلها عن تفاصيل المكان المحيطة. ولأول مرة منذ زمن طويل يبلل ماء نشوتها الدافئ ما بين ساقيها، فتنهض من نومها تسمع صوت دقات قلبها جلية، لتظل جامدة في مقعدها على الفراش لا تملك حيال آلام مبيضيها شيئاً!

قاومت سميرة تلك الأحاسيس التي باغتتها وهي في الثلاثين من عمرها، بعد أن كانت نسيت أو تناست الرغبة، لتضيع في عالم ألوان الفوتوشوب وخطوط الأوتوكاد، ولا تحلم سوى بادخار بعض المال ليكون عوناً لها في شيخوختها القادمة لا محالة... وحيدة بين جدران بيتها الذي أهلكت نفسها كي تمتلكه في القاهرة، قبل أن تتوجه إلى المطار حاملة حقيبة وحيدة لعالم ما بعد الحدود.

كل مقاوماتها باءت بالفشل، فصورة القبلة والعناق التي برعت أمل في رسمها لها تحاصرها أينما ذهبت. لم تجد سوى تامر لتضعه في الفراغ المقابل لها في الصورة، ووجدت نفسها فجأة تستعيد مشاعرها تجاهه، فداهمها الأسى على فقده وارتمت داخل هوة الحزن... ذلك الحزن الذي لم تعشه من قبل، حيث كانت مأساة نصفها الأيمن هي الأجدر بالبكاء عليها عندما رحل تامر "بشبكته".

لم تدر أمل أنها من داخل جنة عادل تسببت بشقاء سميرة، حتى تلقت مكالمة منها في منتصف ليل الخميس، كانت تمضي السهرة مع عادل في أحد الملاهي الليلية التي تعج بها دبي... فوجئت بشاشة محمولها تضيء باسم

سميرة، فالتقطت الجهاز بسرعة واستأذنت عادل لتخرج بعيداً عن صخب الموسيقى العالي.

أمل: أيوه يا سميرة... إيه اللي حصل؟!

سميرة: (صوت بكاء).

أمل: في إيه با بنتي... إيه اللي حصل؟!

سميرة من بين بكائها: تامر راح يا أمل... تامر راح مني خلاص... مش هيرجع تاني.

أمل: ما هو راح من ست سنين يا سميرة... إنتي لسه عارفة دلوقت يعني؟

سميرة بأسى: أنا عارفة من زمان بس أول مرة أحس دلوقت.

كلمات سميرة أوجعت أمل في الصميم، ولم تدر لماذا تذكرت ابنها؟ وسط هذيان سميرة عبر سماعة التليفون، ودموعها التي وصلت إلى شفتيها ملحية وساخنة، تهاوت على بلاط الممر المؤدي إلى صالة الملهى الليلي، فاردة ساقيها أمامها وشاخصة نحو الفراغ... لم تع أمل إنهاء المكالمة من طرف سميرة عندما لم تأتها أي إجابة منها، فقط أفاقت عندما سمعت عادل يسألها إن كانت قد أثقلت في الشراب، متعجباً لأنها لم تحتس سوى كأسين من الفودكا!

في ذلك اليوم لم يشعر عادل بدفء رحم أمل الذي يعشقه، كان بارداً جامعاً الخواء داخل جدرانه، بينما ذراعاها تلف شيئاً غير مفهوم، لكنه بالتأكيد ليس هو!

(٤)

كثيرا ما نرجع الإدراك لزمن آخر غير الذي نعيشه الآن، قد تأتينا لحظة الكشف وقد لا تأتي، لكننا بالتأكيد لا نرى أبعد من حدود موضع قدمينا في متاهة الزمن. قسوة تجلي الكشف لدى كل من سميرة وأمل، جعلتهما يلتصقان ببعضهما البعض ربما لأول مرة باحتياج حقيقي منذ التقتا. حبيب سميرة الذي ضاع في زحام انتصابها أمام رفض الناس لنصفها الأيمن، وابن أمل الذي تعمدت تجاهل وجوده في دنياها دفاعاً عن روحها، الذي كان زوجها يسحبها رويداً رويداً مع خياناته.

تواجهتا تحت سقف واقعهما الذي هربتا من مواجهته كما هو بجميع تفاصيله... وحدهما تتعريان من قشور وضعتاها بأيديهما على جلديهما كي تتحاشيا القسوة... تلك القسوة التي تأخذنا من البهجة، وتحبسنا في غرف عديدة بلا شعاع ضوء واحد، نتعثر في هوات عديدة لا نراها ولا ندركها إلا بعد السقوط.

ربما كان الابتعاد قليلاً هو المنهج الذي اتخذتاه لنفسيهما في كل مرة يسقط فيها بعض من قشور جلديهما، فقد مضى أسبوع لم تتحدث أي منهما للأخرى... تتعمدان عدم الضغط على زر الاتصال، لكنهما في ذات الوقت لا تكفان عن التفكير في بعضهما البعض، يداخلهما إحساس بأن الخلاص عند الأخرى، لكنهما تنكران وتمضيان في سبيلهما المضبب، كمن يتعمد البقاء في بيت جحا غير آبه بالخروج من المتاهة!

هيستريا الضحك على أي شيء، والاندفاع بالمشاركة في أي حديث يجري حولها وإن لم تُدع إليه، كانت الطريقة المثلى التي اتبعتها أمل للهروب من سميرة، والرغبة الملحة في الاتصال بابنها المستقر في مملكة الشر لدى أمها! أما سميرة فلأول مرة منذ أن وضعت قدميها داخل شركة "محمود خطاب للمنشآت الحديثة"، تبتسم في وجه زملائها ولا تبتر إجاباتها على أسئلتهم، ربما استطاعت أن ترى رجلاً آخر غير تامر يقويها على مقاومة الرغبة في الاتصال به، رغم أنها لا تعرف مُستَقره الآن، وإن كانت مستعدة للقيام برحلة اتصالات عبر العديد من الأشخاص لتصل في النهاية إليه.

مرت أيام الأسبوع... وفي نهاية يوم الجمعة حيث كان عادل مستعداً للعودة إلى منزله، قفزت أمل تلتقط الموبايل في لهفة، بينما عادل ينظر لها متعجباً.

هاي يا سمسمة!

أمولة... وحشتيني.

يبقى نتقابل.

إمتى؟

دلوقت فوراً.

نظرت أمل إلى عادل وقالت وهي مبتسمة: خدني في طريقك للقصباء... مش عايزة أسوق.

كانت تصرفات أمل جد غريبة على عادل، فهو لم يرها تنظر بعينين لهما ذلك الإشراق البريء، ولم يشهدها مقبلة بمثل تلك اللهفة على مقابلة أحد،

حتى داخله شعور خفي بالغيرة والشك، فسألها بسخريته المعهودة: إنتي متأكدة إنك رايحة تقابلي سميرة مش سمير؟!

أطلقت أمل ضحكتها الرعناء الخاصة بعادل دون باقي رجال الأرض، وقالت: لأ سمير... وعايزاك إنت بالذات اللي توصلني ليه!

عادل: لأ بجد... إيه سميرة دي اللي شاغلة تفكيرك وملهوفة عليها بالشكل ده؟!

أمل: تحب تشوفها عشان تتأكد بنفسك إنها سميرة مش سمير؟!

عادل نافياً عن نفسه شبهة الشك: أيوه عايز أشوفها... بس مش عشان أتأكد إنها مؤنث، لكن عشان أعرف إيه المؤنث ده اللي شغل بالك لأول مرة في حياتك!

اصطحب عادل أمل في سيارته متجهاً إلى القصباء، حيث تنتظر سميرة كالعادة في مقهى لونا روسا، لكنها على غير ما توقعت تجد أمل متجهة نحوها تتأبط ذراع رجل ضخم يضاعفها طولاً وحجماً، فتقف يعتريها الخجل وهي لا تحتاج إلى التكهن بأنه عادل حبيب أمل.

كان مظهر سميرة محبطاً لعادل، فلم يكن ليتخيل أبداً أن تلك البائسة هي التي تشغل بال امرأته وتسيطر على تفكيرها، لدرجة أن تذكر اسمها في كل موضوع يتم فتحه بينهما على مدار يومين، ما جعله يتيقن أنها لن تتخطى حدود تجربة جديدة من تجارب أمل المعملية في الحياة، لإثبات نظرية من نظريات علم النفس الخاصة بها، والتي لا تمل سردها وتدوينها في مذكراتها الخاصة، لاعنة أبا فرويد ويونج وكل النفسيين العظماء الذين لم يكونوا في رأيها سوى (شوية رجالة منفسنين)!

يبتسم عادل عريضاً دون سبب مفهوم لسميرة وأمل، ثم يسحب جسده من على الطاولة وينهض طالباً من أمل أن تصحبه للخارج، بعد أن يسلم على سميرة ويتلو على مسامعها جمل سعادته الجمة بالتعرف عليها. وعلى باب المقهى احتضن سميرة، وهمس في أذنها ضاحكاً بهدوئه المعهود عندما يكتشف أمراً كان مستغلقاً عليه: حرام عليكي البت... دي مش هتستحمل في إيدك غلوة!

تبتعد أمل وتسأله متعجبة: ليه بتقول كده؟!

عادل: أصلها شكلها غلبان أوي، وبالتالي هي مش أكتر من تجربة من تجاربك المعملية... مش كده ولا إيه؟!

أمل وهي لا تدري إن كانت سميرة كذلك بالنسبة لها: يمكن... مش عارفة... بس أكيد أنا عايزة أكون معاها في الوقت الحالي.

عادل: أنا عارفك كويس يا أمل... عشان كده بأقولك خفي عليها شوية هي مش أدك.

تعود أمل إلى الطاولة التي تنتظرها فيها سميرة يدور داخلها كلام عادل، حيث فتح لها باباً لم تكن تدرك وجوده في علاقتها بسميرة، فربما كانت بالفعل تجربة تثبت بها نظرية نسائية جديدة في تلك الحياة التي ألف فيها الرجال العديد من النظريات الخاطئة عن النساء، وتحاول هي أن تثبت عكسها!

أن تقع سميرة في الحب، كان الهدف الرئيسي في حياة كل منهما في ذلك الوقت، فقد كانت أمل تؤمن بأنها لن تخرج من أزمة نصفها الأيمن إلا بحب رجل جديد لا يراه مشوهاً، مثلما فعل تامر وعائلته. لكن السؤال الحائر بحثاً عن إجابة هو "أي رجل من كل هؤلاء الذين يعبئون الشوارع

والمقاهي وأماكن العمل والتسوق، يصلح للعب ذلك الدور؟!". ولأول مرة فوجئت أمل بنفسها تتأمل الرجال في كل مكان، وتحاول التقاط صورة له إلى جوار سميرة في ذهنها لترى إن كان يصلح أم لا؟!

البحث في أقرب الاحتمالات وصولاً، كان الخطوة التي طالبت أمل سميرة أن تبادر بها، فلابد أن هناك زميلاً ضمن العديد من الزملاء بالعمل، يمنحها اهتماماً أكثر من غيره، ولما نفت سميرة وجود ذلك الزميل المفترض، صرخت أمل بعصبية متهمة إياها بأنها لا ترى شيئاً حولها، بحكم العادة التي جبلت نفسها عليها منذ سنين، فتراجعت سميرة من فورها عما أكدته، ووعدت أمل بأنها سوف تحاول ملاحظة ذلك الأمر الذي تؤمن بحتمية وجوده! (دايماً على الأقل فيه واحد في أي مكان عمل مهتم بواحدة بشكل خاص، وقاعد مستني منها إشارة عشان يكمل).

في اليوم التالي ذهبت سميرة إلى العمل، وكل ما يشغل ذهنها هو البحث عن هذا "المهتم المنتظر لإشارتها"، بل إنها لم تضيع وقتاً وبدأت بحثها بمجرد أن خطت داخل المصعد الذي ينحشر فيه عدد لا يستهان به من العاملين، الذين قدموا من جميع بلدان العالم للبحث عن فرصتهم نحو الثراء في دبي! سرعان ما نفت الفكرة عن ذهنها، فغالباً ما تلتقي بأحد الزملاء أو الزميلات العربيات في رحلتها الصغيرة نحو الطابق الرابع الذي يستقر فيه مقر شركتها، ولم يحدث أن لاحظت شيئاً على أحد! وبعد أن هزت رأسها محاولة التخلص من فكرة أمل الشريرة، أضاءت صورة حسين زميلها في الشركة، فهو وفقاً لشرح أمل لأشكال الاهتمام تستقر عليه عجلة الروليت! وأخذت تعدد تلك الأشكال بداية من كونه دائماً أول المصبحين،

وحتى سؤاله اليومي عما إذا كانت ستخرج لتناول بعض الطعام في وقت الراحة، إضافة إلى أنه الوحيد الذي يتردد على مكتبها بسبب أو من دونه.

(أيوه هو حسين) هكذا رددت داخلها، وهي تخطو خارج المصعد متجهة إلى مقر الشركة، وفي نفس الوقت تخرج من حقيبتها التليفون لتطمئن من أمل إذا كانت تكهناتها صحيحة.

أمل: طبعاً يا بنتي... هو ده الاحتمال الأول في الشغل.

سميرة: طب أعمل إيه؟!

أمل: غيري معاملتك معاه.

سميرة: إزاي يعني؟!

أمل: يعني اضحكي في وشه، ردي على أسئلته الهبلة باهتمام حتى لو كانت إجابتك هي كمان هبلة وماهاش معنى! لو سألك إن كنتي ناوية تخرجي في "البريك" عشان تاكلي في حتة، قولي أيوه بس مش عارفة فين... كده يعني!

سميرة: طب لو قال لي تعالي معايا في حتة؟!

أمل مغتاظة: طبعاً وافقي وروحي معاه!

سميرة معترضة بشدة: لأ يا أمل... إحنا ما اتفقناش على كده!

أمل: هو إيه اللي ما اتفقناش عليه؟! إنتي عبيطة يا بت إنتي ولا إيه؟!

سميرة: لأ... بس أنا لا يمكن أخرج مع حد في حتة... أنا لا يمكن أخون ثقة بابا فيا!

أمل: وإيه اللي دخل أبوكي في الموضوع دلوقت؟!

سميرة: طبعاً له دخل... بابا عارف إني مش باخرج مع شباب وأنا لا يمكن أخون ثقته دي!

أمل ساخرة: هو حسين عنده كام سنة؟!

سميرة: يعني بتاع ٣٥ سنة كده.

أمل: خلاص يبقى مش شباب! وإنتي عند ٣٠ سنة يعني ما بقتيش بنوتة صغيرة، وباباكي ما عدش له عندك حاجة قصاد القانون بقاله تسع سنين دلوقت!

سميرة: إنتي بتقولي إيه؟! هي بالسن؟!... لأ يا أمل أنا لا يمكن أعمل كده.

أمل متحايلة: طيب طيب... الأول إضحكي في وشه وكلميه كويس، وبعدين نبقى نشوف الباقي!

بعد أن أنهت المكالمة مع أمل وهي تعلم تماماً أنها الآن تستشيط غيظاً منها، ارتفعت ابتسامة على شفتيها تحولت إلى ضحكة سريعة مرحة، كتمتها قبل أن تخطو بقدمها اليمنى داخل الشركة، مستعينة بالله العظيم على شقاء الاستجابة التي يجب أن تبديها لحسين مع أي شيء يصدر منه حتى لو "أهبل" كما قالت أمل! تنهدت سعيدة لمجرد أن هناك شبهة احتمال بوجود رجل ما على الأرض يهتم بها ويراها. أراحت حقيبتها بتراخ على المكتب، ثم رفعت عينيها بخمول وأدارتها دورة كاملة في جميع أرجاء الغرفة، ثم تسللت بالنظر نحو البهو الخارجي ربما استطاعت أن تراه قبل أن يباغتها بالصباح، فتستعد بجملة حليبية تبل بها ريقه وتُعلمه أنها تفهم وتستجيب لإشاراته، لكنها بعد أن استغرقها الأمر قرابة خمس دقائق، قررت أن تلتفت لعملها المتكدس داخل الكمبيوتر، والذي يجب عليها أن تنهيه قبل رحيل

يوم العمل. لم تدر كم من الدقائق مرت، ربما اكتملت ساعة، وحدث ما كانت ترجو أن تستعد له، فلقد باغتها حسين بصباحه المعتاد، والمغلف دائماً بابتسامة عريضة ترفع من خديه الممتلئين ليضغطا على عينيه الآسيويتين، فتزيدهما ضيقاً على ضيق، بينما شعيرات شاربه المتناثرة في فوضى فوق شفته العليا تتفرق منتفضة كشوك قنفذ لأعلى! لاحظت سميرة سمنته لأول مرة فابتلعت ريقها، وكمن يقنع نفسه بأن الأمر ليس مهماً، قامت من مجلسها وردت ابتسامته بابتسامة مماثلة مجيبة على صباحه. شعر حسين بأن هناك أمراً جديداً طرأ عليها، فقال وهو يتأرجح على قدميه ويداه منغرستان بشدة داخل جيبي بنطلونه، حتى انزلق الحزام للأسفل مبرزاً بطنه قليلاً: إنتي فيكي حاجة جديدة النهارده!

سميرة: حاجة جديدة؟! زي إيه؟!

حسين: مش عارف... بس يمكن محلوية شوية؟!

ضغط دم الخجل على عيني سميرة، وشعرت بسخونة ملهبة في خديها، ولم تدر بنفسها وهي تتأرجح على قدميها مثل حسين، لكنها لم تستطع تشكيل جملة مفيدة للرد عليه، فأنقذها بعد أن لاحظ خجلها الذي بدا عليها: يا خبر... خلاص خلاص... إنتي بتتكسفي بسرعة أوي!

غمغمت سميرة: أتكسف؟... إم آه ... يعني!

حسين منهياً طقوس الصباح: طيب أسيبك بقى لشغلك، أنا كمان ورايا شغل كتير.

استدار حسين تاركاً إياها، بينما ظلت واقفة لثوان طويلة وهي لم تدرك بعد انتهاء الموقف، أو حتى تفهم أن عليها الجلوس لمتابعة العمل

الذي كانت قد بدأته، حتى سمعت صوت إحدى زميلاتها وهي تسألها: سميرة... في حاجة؟! واقفة ليه؟!

مر يوم العمل وسميرة تحاول جاهدة استجماع قدرتها على التركيز، كي تنهي قدراً معقولاً من المشروع الذي يجب أن تسلمه في نهاية الأسبوع، كانت بين الحين والآخر تقول لنفسها "لازم أكلم أمل عشان أقولها على اللي حصل"، لكنها تعود لتقبض بيسراها على "الماوس" محاولة سكب بعض من الألوان على جزء من المنظور الذي تعمل عليه، فيباغتها المشهد الصباحي ووجه حسين المدور بابتسامته التي رأتها خلابة!

مر يوم العمل على هذا الحال، حيث لم يظهر حسين مرة أخرى ليسألها إن كانت ستذهب لأي مكان في ساعة الراحة، كما اعتاد أن يفعل بشكل يومي، ما دفعها إلى التساؤل عن السبب، ووجدت نفسها تتجهم وتفسر الأمر بأنه حصل على ما كان يرمي إليه، وتأكد أنها وقعت في غرامه، ما أرضى غروره، وبالتالي لا يوجد ما يريده بعد منها. اجتاحتها رغبة في الصراخ في وجه أمل، فهي من دفعتها دفعاً إلى التصرف على هذا النحو، لكنها لم تتمكن من الاتصال بها، حيث تركب عربة توصيل خاصة مع عدد من الأشخاص الغرباء، فأخذت تهدئ نفسها حتى تصل إلى منزلها. وبمجرد أن وطئت عتبة دارها حتى أخرجت هاتفها من الحقيبة بعصبية واتصلت بها، وبعد رنات متصلة دون إجابة، جلست على الأريكة التي تتصدر الصالة وتناولت جهاز التحكم الخاص بالتليفزيون لتديره. بعد مرور عشر دقائق في ظل صخب الأصوات التي تندفع من التليفزيون، مصحوبة بحركة لأجساد لا تعي منها شيئاً؛ أعادت الاتصال بأمل، لكنها هذه المرة تلقت الصوت المسجل "إن الهاتف المتحرك الذي طلبته مغلق

يرجى الاتصال في وقت لاحق". ألقت الهاتف بعنف إلى جوارها، ونهضت ممتلئة بالغضب والدموع تتسابق على خديها وهي تصرخ: الكلبة ورطتني وفي الآخر تقفل التليفون... أنا مش عايزة أعرفها بعد كده.. مش عايزة أشوفها ومش عايزة أحب ولا أتنيل أتجوز... مش عايزة... مش عايزة!

نامت في تمام التاسعة ليلاً، أو لنكن أكثر دقة، حاولت أن تنام في تمام التاسعة ليلاً، لكنها ظلت تتقلب في فراشها يميناً ويساراً وإلى الأمام، ليواجهها السقف بلونه الحيادي وكأنه يخبرها عما يجب أن تكون عليه، حيادية تماماً تجاه كل شيء، تجاه الحب والرغبة في الارتباط بذكر واحد لا غير من بين ذكور العالم أجمع، حيادية تجاه الأمومة والرغبة في أن يكون لها طفل واحد لا أكثر، حيادية تجاه الوحدة التي حاصرتها بعد أن تزوج أخوها وقررت الابتعاد عن أبيها الذي شاخ ودخل في ظلال الصمت العجوز، حيادية حتى تجاه الصداقة التي تحطمها أمل بنزقها واختفائها غير المبرر.

أمضت سميرة ليلاً موجعاً مختلطاً بالدموع، وعندما تسلل النهار داخل غرفتها لم تجد سبباً للبقاء في الفراش أكثر من ذلك، فنهضت لتتوضأ وتلوذ بالذي لا ملاذ إلا عنده، وتكمل البكاء في حضرته... لم تكن ترجو منه خلاصاً من أزمتها، بل ترجو مجرد عزاء.

وعلى العكس تماماً من اليوم السابق، دخلت سميرة مقر شركتها وهي مطأطئة الرأس منتفخة العينين، تحاول جاهدة أن تتحاشى النظر لأي من زملائها، تجر قدميها بانهزام وتدعو الله ألا ترى حسين في أي مكان بمقر الشركة على الأقل هذا اليوم.

لكن القدر كان يخبئ لسميرة مفاجأة سعيدة، أو ربما لم يكن القدر يخبئ شيئاً، فتسلسل تطور أي علاقة بين رجل وامرأة كان يسير بروتينية

شديدة، كل ما في الأمر أن سميرة لم يكن لها علم مسبق بها، فبمجرد أن وصلت لمكتبها لمحت بطرف عينيها المتفختين وردة حمراء مستكينة جوار الكمبيوتر، في انتظار أن تلتقطها يسراها.

لم يظهر حسين في يوم الوردة هذا، لكنه ترك وراءه ما أدخل البهجة إلى نفس سميرة، حتى إنها قررت داخلها أنها تحبه... هكذا... فجأة!... وذلك لثلاثة أسباب ربما يضاف إليهم الرابع مستقبلاً، فهو يلقي عليها الصباح كل يوم، ويسألها إن كانت ستخرج إلى مكان في وقت الراحة من العمل، و... والأهم مما سبق أنه جلب لها وردة! حتى إنها لم تحاول التأكد من أن حسين هو صاحب تلك الوردة الحمراء التي رأتها مستريحة على مكتبها، دون أن تحمل أي بطاقة إهداء أو حتى ورقة منزوعة من دفتر قديم ومكتوباً عليها أي شيء... أي شيء!

ورغم سخط سميرة الذي صبته على رأس أمل في اليوم السابق، إلا أنها هاتفتها عقب عودتها من العمل وأخبرتها عن كل ما حدث، ولم تتذكر أن تلومها على إغلاقها الهاتف عقب اتصالها، فقط انطلقت في سرد وقائع العشق بينها وبين حسين، وأمل لا تصدر أي رد فعل حتى انتهت.

توقفت سميرة فجأة عن الكلام، وكأن قاموس اللغة لديها نضب، في الوقت الذي كانت أمل تعبث ببعض الأوراق على مكتبها ولا تنصت جيداً لما تقوله، لم يكن رد فعل أمل نابعاً عن عدم اهتمام، فقط هي تنظر لمثل تلك الأحداث بعادية، ولا ترى فيها سوى إشارات قد يعقبها تحولات حقيقية على طريق العلاقة بين الرجل والمرأة. عندما طال الصمت ليصل إلى عدد كبير من الثواني، اعتقدت سميرة أن الخط قد انقطع فقالت: أمل؟ ...إنتي معايا؟!

تداركت أمل الموقف قائلة: أيوه يا سميرة ...أيوه.

سميرة: طب إيه رأيك في اللي قلته؟

أمل: يا سميرة اللي إنتي بتقوليه ده مش اسمه حب، ده اسمه إعجاب، ممكن يقلب بحب وممكن لأ!

سميرة كنسر هبط من الأعالي فجأة: يعني إيه؟!

أمل: يعني اللي حصل خطوة على الطريق مش أكتر... لازم نكمل الخطوات.

سميرة: يعني عايزاني أعمل إيه؟!

أمل: والله ده متوقف على اللي هيعمله هو... أنا متخيلة إنه بكره هيطلب منك إنكم تتقابلوا بره.

سميرة تعود لإصرارها وتزمتها السابق: أبداً... والله لا يمكن أخون ثقة بابا فيا!

أمل بيأس: يا دي بابا... وثقة بابا دي عملتلك إيه بقى؟!... ما جوزكيش ليه بابا ده لغاية دلوقت؟!... عموماً يا ستي بلاش نسبق الأحداث، خلينا نشوف هيعمل إيه سي حسين... إلا قوليلي... هو شكله إيه؟!

سميرة مترددة: يعني... هو مش حلو أوي.

أمل: يعني شكله إيه يعني؟!

سميرة: هو تخين حبتين و....

أمل مقاطعة إياها وهي تضحك بصوت عال: يا لهوي!... طب بقى ربنا يخليلنا ثقة بابا وتنقذك من المصيبة دي!

سميرة معاتبة بجدية: أمل!.. إخص عليكي ليه كده؟!

في اليوم التالي، لم يظهر حسين في الصباح، ولم يترك شيئاً يدلل على أنه مر من هنا. ظلت سميرة في حالة انتظار قلق، تؤرقها فكرة أنه قد يختفي للأبد ولا يحدث أي تطور لما بدأ بينهما بالفعل، لكن مع اكتمال دقات بيج بن *عشر دقات مَثَّلَ المدعو حسين في كامل أبهته عند مكتب سميرة، يتقدمه نتوء في بطنه يبشر بكرش عظيم، ومن قلب ابتسامته التي يرعاها شاربه القنفذي، سألها كما اعتاد سابقاً إن كانت ستخرج إلى مكان في وقت الراحة. رغم أن أمل تنبأت لها بأن تلك هي الخطوة التالية، إلا أنها لم تفكر في الاستعداد لها بأي جملة تمكنها من عدم فقد "ثقة بابا"، وفي نفس الوقت عدم فقد العريس المرجو من الله الذي لا يكثُر عليه شيء!

(وقولتي له إيه؟!) كان هذا أول ما بادرت أمل سميرة به، بعد أن سردت عليها وقائع ما جرى، وبالطبع أجابت سميرة بكثير من الندم المغلف بقوة الثبات على المبدأ مهما حدث: طبعاً قلت له لأ مش رايحة أي حتة، بس ياريتني قلتها بطريقة حلوة شوية!

أمل بتوجس: أمال؟!

سميرة بعصبية: يووه بقى يا أمل... أهي طلعت لأ وخلاص!

وكانت تلك "اللا" هي آخر ما يمكن سرده في قصة حسين وسميرة، فقد تراجع الرجل عن اتخاذ أي خطوات أخرى، معتبراً هذه الإجابة إجابة على كل شيء يخصه. في نفس الوقت لم تحاول سميرة إعادة فتح باب المحادثات الثنائية بينهما بأي طريقة، بل إنها تعاملت مع ابتعاده على أنه رفض لشخصها. وبعد أن كانت ترتعش من فرط الإحساس به منذ أيام

معدودة سابقة، أخذت منه موقفاً عدائياً، وأوقفت حتى ردها على صباحاته الروتينية اليومية.

استمر الصمت بين سميرة وحسين قرابة الشهور الثلاثة حتى إنه امتد ليشملها وأمل، فقد أخذت جلساتهما طابعاً اعتيادياً، من تبادل أخبار العمل وحكايات الزملاء، كما أن أمل كانت منغمسة في علاقتها بعادل التي دخلت أبعاداً لم تكن في حسبانهما عندما بدآها، اختفى الجنس وراء ظلال الحب الذي اشتعل بينهما وجعلهما ينظران لبعضهما البعض بشكل مختلف، يتبادلان النظرات الولهى وكثيراً من الكلام حول كل شيء... الماضي الذي عاشاه قبل أن يتعارفا، والمشاكل الكبيرة والصغيرة التي يواجهها كل منهما في أروقة الجريدة والتليفزيون. حتى إنهما بدآ يخططان لمستقبل مشترك، حاولت أمل جاهدة ألا يغلفه ورقة ممهورة من الرسميين تقرهما زوجاً وزوجة.

في نفس الفترة تمكنت سميرة من الحصول على رخصة قيادة، وقامت بشراء سياوة تويوتا إكو من وكالة الفطيم، تعاملت سميرة مع الأمر على أنه انتصار جديد لها في الحياة الظالمة، فبعد أن رفضوا في إدارة المرور التعامل معها على أنها من ذوي الاحتياجات الخاصة، نظراً لأن إعاقتها غير واضحة، رفضوا أيضاً التعامل معها على أنها صحيحة البدن، وبين جدل هنا وجدل هناك تمكنت من استخراج رخصة قيادة تقر بأنها صحيحة البدن وذلك في الاختبار الأول، رغم أن تلك الاختبارات في دبي لا تقل صعوبة ورهبة عن اختبارات الثانوية العامة!

وفي ظل انتشائها بحصولها على الرخصة، قابلها مكتبها بمقر الشركة بلعبة على شكل دب يحمل قلباً كتب عليه "**congratulation**"، قابعاً في

استكانة بانتظارها كي تحمله وتضمه إلى صدرها. وقد كان بالفعل ما توقعه، فبمجرد أن حملت الدب اللعبة واحتضنته، ظهر حسين خلفها وهو يقول: مبروك عقبال ما نباركلك على الجواز.

تم التعامل مع هذا الموقف من قبلها وأمل على أنه إقرار صريح بالحب وإصرار عليه أيضاً، وطالبتها أمل بأن تلين قليلاً وتنحي مسألة ثقة والدها جانباً، حتى تتمكن من تنمية علاقتها بحسين، ما يجعل هناك احتمالاً قوياً في الأفق بحدوث فعل الزواج. لكن القدر لم يمهل سميرة الوقت الكافي كي تتخذ الإجراءات اللازمة في سبيل ما اقتنعت به، فقد حضر حسين إلى مكتبها في اليوم التالي، مخبراً إياها أنه مسافر لقضاء عطلته السنوية في القاهرة، وأنه يرجو أن يرى وجهها على خير عند عودته. كان القرار التالي المصدق من قبلها وأمل أن الله قد خلق الكون في سبعة أيام، ولا مانع من الانتظار شهراً آخر، يمكن ضمه للشهور الثلاثة الضائعة التي مضت، وبالفعل انتظرت سميرة ثلاثين يوماً عدتهم واحداً تلو الآخر، وعندما حانت اللحظة الحاسمة لاستقباله في المكتب عقب عودته، فوجئت به واقفاً داخل دائرة من الأجساد البشرية للموظفين، وهو يتلقى التهاني والتبريكات على زواجه الميمون وعروسه التي تشبه القمر في تمامه، والتي بالطبع كان يحمل صورتها إلى جواره مبتسمة في ردائها الأبيض!

* عشر دقات: العاشرة صباحاً بتوقيت جرينتش، تعني الثانية ظهراً بتوقيت الإمارات العربية المتحدة.

(٥)

على موسيقى التانجو قادت أمل سيارتها نحو مبنى تليفزيون ITC، تداعبها ذكرياتها مع عادل الذي عاشت معه عمراً جميلاً خالته لن ينتهي أبداً. صورتها معه وهما يرقصان التانجو في صالة منزله الواسعة، تميل على ذراعه بخفة وهما يتتبعان الخطوات الإرشادية التي تطل من شاشة التليفزيون، بعد أن اشترت فيديو تعليمياً لتلك الرقصة اللاتينية المبهرة. تذكرت كيف اشترته وهي تتشكك في قبول عادل بالأمر، فعادة ما يتمتع الرجال المصريون بأجساد مخشبة ترفض الرقص، وتتعامل معه كشأن نسائي لا يخرج عن نطاق هز البطن والصدر لإثارة غريزتهم في خطة تكتيكية نسائية نحو الفراش! لكنها فوجئت بابتسامته تنير وجهه وهو ينهض ملتقطاً منها الشريط ودافعاً به نحو جهاز الفيديو، ثم ناظراً إليها نظرته الجانبية المضيئة بالمكر الطفولي، وكما اعتاد أن يلقبها قال وهي ملفوفة بالدهشة (ها... الهانم جاهزة؟!). حينها نظرت إلى نفسها وأخذت تعدل رداءها في ارتباك معلن، وقبل أن تفيق كان قد التقطها بذراعيه ودار بها دورتين شعرت معهما أنها تحلق في السماء، تلامس بكفيها الندف القطنية للسحاب لتمسح عنها آلام ما قبله.

منذ أن انتهت علاقتها بعادل وهي تلقبه بالغالي، وتنظر إلى جميع الرجال على أساس ما يمتلكون من أدوات جنسية تقيمها بنظرة سريعة نحو البنطال، تتكهن بها بما يستره بين ساقيه! في ما عدا ذلك لا يمكن لأي رجل أن يأخذ ما كان الغالي يحصل عليه، فهو المستحق الوحيد لقبلها النهمة، وهو الوحيد المالك لتنهيدات قلبها الدافئة، وهو الوحيد الذي من حقه أن

تدفعه بحنو نحو صدرها تضم جسده بكامل ذراعيها لينام كطفل مدلل. عادل الذي مضى في غفلة منها، أو ربما في حركة مباغتة خلفتها مملوءة بالوحدة بعد أن سقطت إعياءً على أرض الحياة.

تربط أمل دائماً بين عادل وابنها، فهما الحبيبان الوحيدان من الذكور، أو هما جل ما كانت تأمله من عالم الرجال الذي يغص بالملايين منهم. ضاع عادل مثلما ضاع ابنها في لحظة دامية، كان لزاماً عليها أن تختار فيها بين نفسها وبين كل من الغاليين، وفي كل مرة كانت تجد نفسها بعد مرور اللحظة نائمة في صقيع التكييف الذي يحرص على تعميق وحدتها!

وصلت أمل إلى مبنى التليفزيون تعتريها حالة غالباً ما تعيش داخلها، لكنها تخفيها دوماً عن الأعين إلا في ما ندر. وكان ذلك اليوم أحد تلك النوادر التي عادة ما لا يفهمها فيها زملاؤها، الصوت الهادئ والصبر الذي لا ينفد والنظرة الآسية والرموش المبللة بالدمع، الذي لا يلبث أن يتكون في مآقيها حتى تمسحه قبل أن ينحدر فيلحظه الجميع. بعد أن وضعت أغراضها على مكتبها، اتجهت نحو مقهى التليفزيون طالبة قهوتها وجلست في استكانة، كفاها متعانقتان أسفل ذقنها بينما تحملق في الفراغ، منتظرة ربما القهوة وربما معجزة تضع عادل وابنها دفعة واحدة على الطاولة التي تستكين عليها.

بعد أن تسلمت قهوتها من النادلة الفلبينية، وقبل أن تصعد بالفنجان نحو شفتيها، استقرت منال مذيعة الأخبار الشهيرة أمامها وهي تلقي صباحاً شارداً، غالباً ما تتلقاه منها دون أن تدري سبباً لشروده، لكنها لم تحاول يوماً أن تسألها ربما لأنها مكتفية منذ سنوات بسميرة ومشاكلها التي لا تنتهي، ولا تنقصها حكاية جديدة من حكايات البنات في ذلك العالم

المُشَتِت لهن. لكن منال هذه المرة جاءت لتحكي الكثير، دون أن تدري لماذا اختارت أمل لهذه المهمة، ربما لما تراه منها من عنف تجاه الذكور، وربما لأنها تراها مطلقة وأماً ألقت بابنها وراء ظهرها دون ألم واضح عليها، بل تراها مغمورة بسعادة الشعور بالقوة، في مواجهة عالم يُلزم نساءه بواجبات مهلكة يبررها بالغريزة والدين والطبيعة التي لا يغلبها غلاب!

تشعر منال دوماً بأنها امرأة شاذة، فهي لا ترى في كونها أماً قيمة تذكر وتستميت في رفض إنجاب آخر، لا تحب جلسات الأسرة ولا تجمعات الأهل، ولا ترغب في شيء بقدر ما ترغب في أن تحقق نجاحات متتالية لا تتوقف أو تنقطع في عالم الإعلام، تعشق نظرات الرجال لها، ولا تتوانى عن قبول دعوات من بعضهم إلى العشاء أو الغداء تبررها لزوجها بأنها لقاءات عمل. لكنها لا تستطيع التصريح بذلك، ولا تفعل سوى المغالاة في الحديث عن علاقتها الوطيدة بابنتها، وكيف أن عشقها لزوجها لا يضاهيه عشق، وأنها لا تمل جلسات المنزل والسهر على أريكتها المواجهة لجهاز التليفزيون، تهدأ بين ذراعي زوجها بينما تلعب الصغيرة أمامهما، تلك الصورة التي انتقتها بعناية من بين مشاهد الأفلام والمسلسلات والإعلانات الإرشادية لتنظيم الأسرة!

عاشت منال سنوات زواجها ترتدي وجهاً ليس لها، وتؤدي أدواراً لا تعشقها، فقط تشعر بأن روحها عادت لجسدها عندما تغلق باب بيتها وراءها متجهة نحو العمل، حيث الشاشة التي تعشق أن تطل منها على ملايين المشاهدين، ومكتبها المكدس بالأوراق وشاشة الكمبيوتر التي تصلها بجميع أنحاء العالم.

غلف الصمت سماء الطاولة التي تجمع أمل ومنال، أنهتها أمل بوضع الفنجان بعد آخر رشفة للقهوة، ثم نظرت لمنال بوداعة تناسب مزاجها لليوم وقالت: طيب يا حبيبتي أشوفك آخر النهار بعد ما نخلص شغل.

فوجئت منال بانتهاء اللقاء الصباحي، وهي التي جلست منذ البداية مترددة في البوح بما يعتمل داخلها، فمدت كفها بلهفة كي تُوقِف أمل، ما أدى إلى إفاقتها بعنف من الشجن الذي يغمرها، ونظرت بجزع نحو منال متسائلة: في إيه يا منال؟!

ارتبكت منال من إثر حركتها المباغتة، فنهضت بدورها وبعد أن عركت كفيها ببعضهما بعضاً وهي زائغة العينين، نظرت في عيني أمل مباشرة وقد حسمت أمرها: أنا عندي مشاكل كتير متوهتني وقربت تموتني و... و... وبصراحة فكرت كتير في مين ياللي ممكن يسمعني وينصحني وما يفضحني بعد هيك... وما لقيت غيرك!

نزلت جملة منال على رأس أمل كالصاعقة، فهبطت بجسدها كله دفعة واحدة على الكرسي، ونظرت إليها ولسان حالها يقول: "هو أنا لسه خلصت من مشاكل سميرة ومشاكلي عشان تطلعيلي إنتي كمان؟!"، لكن ما خرج على لسانها ظاهراً كان "أوي أوي يا منال يا حبيبتي... هو إحنا لينا مين غير بعضينا؟!"، وفي محاولة للهرب المؤقت أو فتح باب للجري بعيداً وبأقصى سرعة عن القنبلة، نظرت في ساعتها وقالت: "بس إنتي عارفة إني لازم دلوقت أروح مكتبي عشان أشتغل، وإنتي لازم تحضري لنشرة ١٢ مش كده ولا إيه؟!".

كان هذا هو واقع الحال فوافقت، وبينما تحاول أن تصحب أمل باتجاه المصعد جرت الأخرى قافزة إلى أول واحد انفتحت أبوابه، دون أن تركز

في اتجاهه صعوداً أم هبوطاً وهي تغمغم "يا ربي هو أنا خالية وما عنديش مشاكل، عشان تبعت لي الديفا منال؟! مش كفاية سميرة اللي اتدروشت وما بقتش عارفة أكلمها؟!".

لم تتمكن سميرة من تجاوز أزمة علاقتها برمزي، فلم يفلح كلام أمل في أن يجعلها تتعامل مع موضوع علاقتهما الجسدية كأنه أمر طبيعي، فداخلها يؤكد أنها كانت في احتياج إلى أن تعرف طعم القبل وكيف تخاطب جسد الرجل، وهي التي مرت على سنواتها بجسد واحد لم يُثَنه آخر ولو بقبلة عابرة وحيدة، تنقلها من عالم الدوران حول النفس لتدرك أن هناك آخر في هذا الكون. لكن عقلها لم يتمكن من تبرير الإثم الذي وقعت في براثنه، رغم تأكيدات أمل لها بأن الزنا في الإسلام يتوقف على عملية الإيلاج، وهو ما لم يحدث بينها ورمزي، إلا أنها لم تتمكن من الغفران لروحها التي لم ترها سوى ملوثة وبعيدة ملايين الفراسخ عن رحاب الله، فغرقت في محراب التعبد لا تبرحه إلا إلى عملها لتعود إليه مرة أخرى. ما بين سجادة الصلاة في المنزل و"موكيت" المسجد المجاور تمضي أيامها صائمة قارئة للقرآن، تتذلل لله كي يعفو عنها، ولم يأت يوم شعرت معه منذ هجرها رمزي بأن الله عفا، ولا استطاعت هي أن تعفو عن نفسها لتتركها تمرح قليلاً في حياة الله التي منحها للناس!

جلست أمل تداعب الأوراق على مكتبها، محاولة تجميع شتات عقلها الذي استيقظ على ذكرى عادل مع نغمات التانجو، ثم شاركت منال التي أتت من لا مكان كي تزيد في تشتته، تنتقل يدها من الأوراق لأزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ثم تتناول سماعة الهاتف لتجري اتصالاً هنا وآخر هناك، وهكذا مضت ساعات العمل واستطاع عقلها أن يدفن موضوع منال في

درج مظلم داخل نفسها، فجمعت أغراضها من فوق مكتبها ودستها داخل حقيبتها، وانطلقت بسيارتها بعيداً عن مبنى التليفزيون.

في طريقها للمنزل وهي تقود السيارة بتراخ في شارع الشيخ زايد، متجهة نحو الشارقة، جاءها رنين المحمول يحمل رقم منال تسأل عنها أين ذهبت؟ لم تستطع إخفاء شعورها بالإحراج، فلقد اتفقتا على اللقاء مع انتهاء اليوم، لكنها مع ذلك حاولت أن ترجئ اللقاء إلى اليوم التالي. منال التي في ما يبدو على وشك الانفجار، لم تقبل اعتذارات أمل وقالت لها: "أمل أرجوكي شوفي أي مكان ممكن توصلي إله عندك في الشيخ زايد... وأنا جاية لعندك"، فلم تجد أمل سوى أن قالت لها: "خلاص نتقابل في كوزمو اللي جنب أبراج الإمارات".

بعد خمس عشرة دقيقة تماماً توقفت سيارة ليكزس فارهة جوار مقهى "كوزمو"، واستطاعت أمل أن ترى منال تترجل منها عبر زجاج المقهى، فزفرت كمية جيدة من الهواء كانت معبأة داخل صدرها، استعداداً لحمل ما سوف تضعه على كتفيها. دخلت منال بحركة استعراضية وهي في كامل تأنقها كما اعتادت دائماً، فهي تعيش كل دقيقة من حياتها وكأنها أمام الكاميرا تطالع جمهورها، أدارت عنقها يميناً ويساراً بحثاً عن أمل، فتحركت خصلات شعرها التركيب! والتي تحقق بها نظرية الشعر الحرير الأشقر المنسدل على الكتفين، وبمجرد أن وقعت عينها على أمل أزاحت الخصلة التي نفرت على جبينها مظللة عينيها، وتوجهت نحوها لتجلس برشاقة على المقعد المقابل.

كل هذا وأمل ثابتة مكانها لا تفعل سوى مراقبة حركة منال من السيارة نحو المقهى بهدوء، حيث تعرف أنها يجب أن تقدم استعراضها

كاملاً حتى لو تدخلت كي تدلها إلى الطاولة التي تستقر عليها. بمجرد أن جلست منال تعتلي وجهها ابتسامة عريضة لم تخف اضطرابها، تساءلت إن كانت أمل قد شربت شيئاً...

أمل: بصراحة أنا جعانة وبما إني هتأخر على ما أرجع البيت، يبقى خلينا ناكل حاجة.

منال كمن تنفي تهمة: لا لا أنا ما راح آكل شي، أنا بحب آكل بالبيت مع زوجي، أصله ما بياكل بدوني.

أمل: يا بنتي الساعة ٨ وعلى ما نخلص كلام مش هيكون قبل ١١، لا يمكن هيستناكي كل ده.

منال بتردد: تفتكري هيك؟

أمل مبتسمة: أنا ما أفتكرش حاجة يا حبيبتي... ده جوزك وإنتي أدرى بحاله!

ثم باغتتها بالسؤال: هو إنتي ما قولتيلوش إنك هتتأخري معايا ولا إيه؟!

منال وهي شاردة بنظرها نحو سطح الطاولة: لا ما قلتله... ما بعرف!

أمل متعجبة من حالها: هو في إيه يا منال بالظبط؟!.. أنا أول مرة أشوفك كده.

منال: فعلاً... أنا أول مرة أوصل لهيك حالة... بقالي أربع سنين متزوجة ومتماسكة، بس خلاص ما عدت قادرة أتحمل أكتر من هيك.

أمل باندهاش: إيه ده؟! أنا أول مرة أعرف إن إنتي وجوزك مش متوافقين سوا... ده إنتي دايماً تتكلمي عن سعادتك وحبك ليه وحياتكم المثالية!

تتنهد منال ثم تقول: كله كدب... أو بمعنى أصح...كله تمثيل بتمثيل.

أمل وقد علمت أن الحكاية تبدو عويصة من أولها، نظرت حولها في محاولة للعثور على النادل كي تطلب الطعام، على الأقل لا تموت جوعاً وهي منشغلة بحل مشاكل النساء، التي تحمل لها دهشة كل يوم، وهي تكتشف منطقة جديدة لم تعها من قبل في حياتها كامرأة معبأة بأفكار مسبقة عن نفسها، توارثتها عن أمها وجداتها، وربما ملأها بها المجتمع منذ أن فتحت عينيها على أول خيط لضوء في الحياة. لكن الشعور بالراحة كونها ليست المرأة الوحيدة الشاذة عن ناموس الكون الأنثوي، جعلها تفتح أذنيها تماماً استعداداً لما سوف تسمعه من منال الوزي، تلك المذيعة الناجحة التي جلب لها أهلها زوجاً من لبنان تحت إغراء فرصة عمل في دبي.

(٦)

منال الوزي، ابنة لرجل سياحة لبناني مشهور، انتقل إلى الإمارات ليعمل بها مع اشتداد وطأة الحرب الأهلية على لبنان، ووقوع شركته السياحية في أزمة مالية طاحنة. حاول الهجرة إلى إحدى الدول الأوروبية لكن الأمر احتاج إلى إجراءات طويلة وصعبة، فصفى شركته وحمل نقوده

وهرب مع زوجته وابنته وابنه إلى الإمارات، ليؤسس بالاشتراك مع أحد عملائه الإماراتيين شركة سياحية. لا نستطيع أن نقول إن إبراهيم الوزي وصل إلى ثرائه الفاحش الذي ينعم فيه وأسرته الآن في لمح البصر، فقد احتاج إلى سنين طويلة كي يعيد تأسيس شركة "الوزي للسفر والرحلات" لتصبح إحدى أهم الشركات السياحية في الإمارات والخليج. احتاج أيضاً إلى أن يغيب تماماً عن أسرته تاركاً عبء تربية ابنيه على كاهل زوجته، التي استعاضت بدورها عن غيابه بالإمعان في عمليات التسوق والانتقال من مرحلة رفاهية إلى أخرى، بينما لا تبذل الكثير لتربية ابنيها، تاركة همهما إلى الخادمة الفلبينية التي استقدمها زوجها إليها من بلادها بناء على طلبها، مبررة الأمر بأنها تعبت من حمل هم الأبناء والمنزل وحدها. لم يكن إبراهيم الوزي بقادر على رفض واحد من متطلبات زوجته، حتى يتخلص من فوضى شكواها المستمرة، وحتى يبرر لنفسه الغياب، وحتى يتمكن من طرد احتمال خيانتها له في ظل غيابه الدائم.

هكذا نشأت منال في ظل أسرة لا يلعب فيها الأب سوى دور البنك، وتغيب الأم بالمقابل متنقلة بين مراكز التسوق وصالونات التجميل وجلسات النميمة والثرثرة النسائية، بينما لا تفعل الخادمة الفلبينية سوى الإبقاء على المنزل نظيفاً دائماً، وترتيب حاجاتها وأخيها في خزانتي ملابسهما، وطهو الأطباق اللبنانية الشهية، والتي تعلمتها من السيدة الوزي قبل انقطاع علاقتها بالمطبخ وبدئها رحلات الجمال الدائم!

عندما بلغ أخوها الخامسة عشرة من عمره، غاب بدوره كولي عهد ليتعلم كيف يدير إمبراطورية السياحة التي أصبحت مملوكة تماماً لوالده. وبقيت منال وحيدة في المنزل، دون أن ترث عرش أحد أو تحمل لواءه،

فالسيدة الوزي لم تر فيها سوى منافساً خطيراً، ما أشعل فتيل المشاحنات الدائمة، التي لم تجد الأم وسيلة لإنهائها سوى باستجلاب "عريس" لمنال من لبنان، والتخلص منها مرة واحدة وإلى النهاية!

قابلت منال قرار أمها المتسلط بتزويجها بعد أن أنهت دراستها الثانوية، بقرار آخر رأت فيه الحل الأمثل للتخلص من أمها وتلك العائلة دفعة واحدة، فقد استغلت منهج أبيها الخاص بتلبية طلبات الجميع حتى يتفرغ لإمبراطوريته السياحية، ورجته أن تسافر إلى أميركا لدراسة الإعلام لأنها ترغب في أن تصبح مذيعة. كان الحل الذي طرحته منال على والدها متوائماً أكثر مع مقتضيات العصر، فمعه سيحقق لزوجته ما تبتغيه، وفي نفس الوقت لن يرغم ابنته على الزّواج في تلك السن المبكرة دون أن تكمل دراستها.

سافرت منال إلى أميركا حيث عاشت وحدها خمس سنوات كاملة، بعيدة تماماً عن أهلها، الذين لم يكترثوا بدورهم كثيراً لرؤياها، أو لنكن أكثر وضوحاً، شوشت أمها على ذكرها طوال تلك السنوات الخمس، واكتفى الأب بالاطمئنان على فتاته كلما سافر إلى أميركا في رحلة عمل، في حين اكتفت الأم برؤية ابنتها مرة واحدة عندما أصر إبراهيم الوزي على أن تعود ابنته في زيارة عائلية لم تمتد أكثر من أسبوعين، أثناء إحدى عطلاتها الدراسية. في أميركا تعلمت منال الاعتماد على نفسها واعتادت الوحدة، فلم يكن لها من الصديقات شيء يذكر! ربما لأنها ورثت صفة التحسس من بنات جنسها. ركزت على دراستها فتفوقت فيها، بل عملت في واحد من التليفزيونات المحلية كل الأعمال المتاحة لمواطنة غير أميركية. ورغم تواضع تلك الأعمال، إلا أنها من خلال مراقبتها للمخرجين والمذيعين والمعدين

والمصورين تعلمت الكثير، لتعود إلى الإمارات في النهاية وهي محملة بخبرة عريضة في عالم العمل التليفزيوني، تؤهلها لأن تدخل أي محطة تليفزيونية من أوسع الأبواب، يدعم سيرتها الذاتية جمال واضح، ومعرفة تامة بأساليب التجميل النسائية التي لم تكتف معها بحسها الأنثوي، بل التحقت بدورات تعليمية في فن التجميل دفع ثمنها والدها دون أن يسألها عن السبب!

فور عودتها استطاعت منال أن تحصل على عمل في قسم الأخبار في واحدة من المحطات التليفزيونية في دبي، كصحفية ميدانية وغابت تماماً عن منزل عائلتها، فقد تعلمت الدرس جيداً، حيث أمها لا ترغب فيها منافساً شرعياً داخل مملكتها، ووالدها لا يعبر عن حبه سوى بدفع المال، وأخيها لم يعد يتذكر أن له أختاً من الأساس!

استغلت منال تلك الخصائص الفريدة، وانطلقت في عالمها يدعمها الوقت المباح بلا رقيب كباقي الفتيات، والمال الذي لا يتوافر لكثيرين من زملائها الذين أتى أغلبهم من بلدان عربية مختلفة في محاولة بائسة للثراء. متحررة من كل الأعباء التي تلتف حول رقبة العاملين في المحيط الإعلامي بالإمارات، استطاعت منال أن تحجز لها مقعداً راسخاً في الإعلام الإماراتي، خاصة بعد أن استطاعت أن تفوز بفرصة تقديم نشرات الأخبار ثم برامج التحليل السياسي، حتى وصلت إلى أكبر تليفزيون عربي بعرض مادي مغر لا تحلم به نظيراتها، فكان أول ما فكرت فيه أن تستقر وحدها في منزل منفصل بعيداً عن عائلتها، التي شكلت لها صداعاً قوياً رغم غيابهم الفعلي عن حياتها، فقد ظل ألم البقاء بينهم بعد عودتها من أميركا يؤرقها طوال سنوات، حاولت خلالها أن تغيب قدر المستطاع، لكن العودة إلى المنزل

الذي يضمهم حتى ولو كان من أجل النوم، كانت تلهب نفسها بسياط القسوة، التي لم تكن تشعر إلا بها كلما قابلت أحدهم ولو صدفة داخل أروقة ذلك القصر الذي شيده والدها في منطقة جميرا بين أثرياء الإمارات.

قوبل طلبها بالاستقلال وحدها بالرفض القاطع، حتى من قبل الأم التي كانت أول من رغب في استبعادها عن العائلة. وفتح ذلك الرفض قيحاً طالما كتمته منال داخل جرحها المفتوح منذ زمن، تواريه بالبعد والإمعان في العمل والصمت الذي كلل جميع لقاءاتها بعائلتها طوال أكثر من عشرة أعوام، منذ شعرت بأنها غير مرحب بها في منزلها الذي انغلق بابه عليها وأمها، بعد غياب أخيها مع الوالد للإشراف على مملكة المال التي أنشأها.

لم يكن أي من أفراد العائلة يتوقع ما فعلته منال لقاء رفضهم لقرارها، فلقد كانت بالفعل قد استأجرت منزلاً مكوناً من غرفة وصالة بأحد أبراج دبي قبل أن تخبرهم، وكان بإمكانها في ظل غيابهم الدائم عن حياتها أن تجمع أغراضها وتمضي تاركة رسالة تعلمهم بعنوان إقامتها الجديد، أو حتى دون أن تترك شيئاً، واضعة إياهم أمام الأمر الواقع، لكنها حتى الآن لا تدري لماذا جمعتهم في سابقة تعد الأولى في تاريخ العائلة داخل حجرة المعيشة لتعلمهم جميعاً بالأمر. كان رد الفعل الأول الذي تلقته على عكس توقعاتها، فقد نهضت الأم من مجلسها فزعة وصاحت في وجهها: شو؟!... شو عم بتقولي إنتي؟!... باينك اتجنيتي في عقلك... بلا كلام فاضي... اسكتي وروحي ياللا على غرفتك.

وكأن منال كانت تنتظر تلك اللحظة من زمن، فقد صاحت في وجه أمها: أي غرفة عم تحكي عليها؟!... إنتي بتعرفي وين هايدي الغرفة؟!

دخلتيها قبل مرة واحدة بحياتك؟! تعرفي عنها أو عن اللي ساكنة بيها أي شي؟! شو الفرق اللي هتحسيه لو بقيت هون أو عشت بره؟! إنتي عشو تتكلمي وتعترضي أنا نفسي أعرف؟!

لم يكن لكلام منال أي وقع عاطفي على نفس الأم، فقد أشاحت أمها بوجهها عنها واستدارت تاركة الغرفة، بعد أن وجهت تحذيراً لزوجها: إياك تنفذ طلبها، ما تجيب العار وكلام الناس لحد إجرينا بإيديك.

أدركت منال على الفور أن اعتراض الأم لم يكن من أجل مصلحتها، بل كان من أجل شكلها الاجتماعي بين طبقة المجتمع اللبناني المخملية في الإمارات، وعلى إثر ذلك نظرت لوالدها بدهشة يعصرها الألم، فلم تنطق، في الوقت الذي نهض فيه أخوها وقال قبل أن يغادر: شيلي ها التخاريف من راسك، وعيشي مثل ما إنتي عايشة هلا، يعني شو مشكلتك عشان تتركي البيت وتروحي لبيت إيجار؟! والله أنا ما فاهمك منال.

كانت ترغب في أن تقول له (وكيف يمكنك أن تفهمني وأنت لا تعرفني؟!)، لكنها ظلت ثابتة على وقفتها تنظر لأبيها، الوحيد الذي ظل جالساً ولم يغادر الغرفة، تنتظر ردة فعل إيجابية واحدة يصدرها منذ أن وعت على هذا الكون، لكنها لم تنل سوى عناق طويل منحها إياه، فقالت وهي بين ذراعيه: بابا أنا مني حاسة بحالي هون... أرجوك اتركني روح أعيش لحالي أحسن، على الأقل ما اتعذب كل يوم بغربتي عنكم وأنا عايشة بيناتكم.

لا نستطيع أن نقول إن كلمات منال الأخيرة لوالدها مرت مرور الكرام، فقد انطلق الأب في أنين مكتوم اهتز له جسده وهو يحتضن ابنته،

ولم يستطع أن يتفوه بأي كلمة، فقط قال بعد مرور وقت طويل وهو يحتضنها: بتدبر يا بنتي بتدبر، اتركيها علي.

كان لداء ترك المنزل المزمن آثار جانبية في إبراهيم الوزي، فلقد فقد سطوته عليه، وبرغم أنه لم يكن هناك منزل بالمعنى المتعارف عليه، إلا أنه مع ذلك فقد أي نوع من أنواع السيطرة والتحكم في مقادير الأمور داخله، وانتقلت الكلمة الأولى والأخيرة لمدام الوزي، التي رغم إهمالها البين لبيتها لم يستطع أحد أن ينتزع منها زعامته الفعلية، لذلك وبرغم الموقف العاطفي المؤثر الذي جمع بين إبراهيم ومنال، لم يتمكن من إصدار أي قرار يجلب الراحة إلى نفس ابنته، ووجدت منال نفسها واقعة في دوامة مقابلات مرتبة مع رجال قد يصلحون أن يكونوا أزواجاً لها، ما جعلها تفهم دون شرح من أحد، أن أمها ارتأت أنه إذا كانت ترغب في أن تترك المنزل فلتتركه إلى منزل الزوجية، وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد، تتخلص من منال إلى الأبد، وتحفظ شكلها الاجتماعي بين الناس!

في البداية، عاندت منال قرار أمها غير المعلن، فرفضت كل الرجال الذين تم عرضهم عليها في جميع المناسبات التي أُجبِرَت على الذهاب إليها بشكل أو بآخر، ما أشعل فتيل الحريق بينها وبين أمها، وبدأ البيت الذي ينعم بصمت القبور يلقى بعضاً من وهج وإن كان وهجاً دامياً، حيث منال وأمها في عراك دائم كل يوم يصل إلى حد السباب، فمنال لم تجد مانعاً مادياً أو عاطفياً من وصف أمها بالحقيرة والأنانية والدمية فارغة العقل، بصوت جهوري وفي قلب صالة المنزل، وعلى مسمع ومرأى من جميع الخدم. قابلت الأم ذلك بعاصفة مقابلة حملت الكثير من البذاءات الموجهة لابنتها، حيث وصفتها بالعاهرة التي تصعد على أكتاف الرجال، بل لم تتورع أن تتهم ابنتها

بأنها بالتأكيد فقدت عذريتها منذ زمن، ولذلك تخاف من الزواج حتى لا يفتضح أمرها بينهم. في العراك الأخير وقبل أن تقرر منال أن تقبل بالعريس القادم، مهما كان شكله ومكانته في الحياة، وصل الأمر بينهما أن تشابكتا بالأيدي وقذفت منال أمها بإحدى المزهريات!

لم يصل الأمر إلى حدود المستشفى، لكن تلك المعركة أيقظت إبراهيم على واقع تردي العلاقة بين زوجته وابنتهما، فوقف في وسط صالة المنزل صارخاً في امرأتيه لاعناً اليوم الذي تزوج فيه الأولى وأنجب فيه الثانية، ثم هدد زوجته بالطلاق إن لم تشعر بأمومتها لحظة واحدة قبل الموت، وقال لابنته وقد هده التعب من الصراخ: إذا بدك تتركي المنزل اتركيه... أنا ما عندي حل تاني أقدمهولك.

ومضى خارجاً من المنزل وهو مطأطئ الرأس محني الظهر، يجر قدميه بصعوبة لم تمكنه من بلوغ باب الحديقة الخارجي، حيث سقط مصاباً بذبحة صدرية.

قررت منال ووالدها راقداً بين الحياة والموت، أن تتزوج إذا ما شفى الله أباها وخرج من أزمته الصحية معافى، فبرغم غيابه الدائم عن حياتها وعدم مشاركته لها في أي لحظة من لحظات فرحها أو حزنها، إلا أنه كان دائماً يحاول الاتصال بها والاطمئنان عليها، ومنحها كل المال الذي احتاجت إليه دون أن يسأل عن السبب، دوماً يتذكرها في جميع أسفاره ويعود محملاً بالهدايا دون أن تطلب منه شيئاً، مثلما كانت تفعل أمها وأخوها اللذان كانا يُحملانه قائمة بالطلبات التي يرتجلانها في التو واللحظة، وبمجرد أن يعرفا أنه طائر في رحلة عمل إلى الخارج! لأجل ذلك شعرت في داخلها أنها تحبه وأنها أحبته طوال السنين الماضية دون أن تدري، وعليها أن تقدم له شيئاً في

المقابل، حتى ولو كان مجرد موافقة على زواج لا ترغب فيه، هي التي طالما كرهت الزواج والأبناء.

قبلت منال بأول عريس استطاعت أمها عن طريق المعارف أن تجلبه إليها، ممدوح جنيدي، مندوب إعلانات طموح يرغب في أن يترك لبنان بأي ثمن كي ينطلق في عالم الثراء الذي يحلم به، لا تنقصه الوسامة ولا سيرة العائلة الفاضلة، فقط لا يتمتع بثراء ملحوظ، وإنما يمتلك جميع المؤهلات التي تمكنه من الوقوف بجوار منال في الكوشة وهو يُزين بزته السوداء!

وتحقق لمنال ما طلبته وتركت منزل العائلة، كما تحقق للأم ما كانت ترغب فيه منذ سنين، بأن تختفي منال من حياتها وتنخرط في نفس المسار الذي انغرست هي فيه منذ الأزل، وهدأ الأب مع عودة الصمت إلى أسرته. لا نستطيع أن نقول "وتوتة توتة فرغت الحدوتة"! فقد بدأت من هنا "حدوتة" أخرى لم تحسب لها منال حساباً، فهناك زوج له متطلبات، حتى وإن كان زوجاً مطواعاً بناء على خطته الخاصة بالزواج منها، حيث حصل على وظيفة مرموقة في شركة أبيها، ومنزل فخم بأفضل أحياء دبي مارينا، وسيارة فارهة لزوم اكتمال المشهد الاجتماعي. لم تضع منال مسألة الجنس في اعتباراتها فهي لا تتذكر يوماً شعرت فيه بأي رغبة جنسية، كانت دوماً في حالة كر وفر مع الرجال، تسطع ذاتها مع إشراق كل رجل في سماء حياتها، لكنها بمجرد أن تتأكد من اشتعال رغبته فيها تهرب وتتركه وراءها دون حتى أن تتذكر ملامحه، لم تحلم يوماً مثل باقي الفتيات بأن تعثر على فتى الأحلام، لم تشارك صديقة في تأوهات عشق وثرثرة عن حبيب، لم تحتضن وسادتها حتى الصباح تتنهد وتتخيل نفسها بين يدي رجل مهيب يشبه نجوم السينما. كانت دوماً مشغولة بالفرار من عالم بيت أهلها، وبالتخطيط

لمستقبل تتربع على قمته يعمي لمعانها الأبصار. هذا هو العشق الوحيد الذي عرفته وكرست أيامها كلها من أجله، حتى وقعت في فخ الزواج وهي في الثلاثين من عمرها، دون حتى أن تشعر بالامتنان للقدر لأنه انتشلها من مصير العنوسة، قبل الوصول إلى محطة النهاية بخطوات بسيطة!

لقاءاتها الجنسية وزوجها شكلت كارثة حقيقية، قبلتها رغماً عنها حتى لا تنهار منظومة استقلالها وبعدها عن بيت أهلها، لم تكن تقبل أن يقبلها زوجها عميقاً في شفتيها فتشيح بوجهها عنه رافعة ثيابها عن ساقيها، وكأنها تقول له (خلصنا)! وبمجرد أن يفرغ الزوج مما لديه، تنزلق مسرعة من على الفراش وهي عارية، تجمع قطع ثيابها كالملسوعة متجهة نحو الحمام لتزيل عن جسدها آثار الحادثة، ثم تفرغ ما بجوفها داخل فوهة المرحاض وتبقى قليلاً، ثم تخرج لتجد أن الرجل الذي يلعب دور الزوج قد اختفى!

بالطبع لم يخف كل هذا عن ممدوح، ورغم أنه آلمه قليلاً في البداية، حيث كان يأمل في أن تكون الصفقة كلها رابحة، إلا أنه تجاوز الأمر بعد قليل، وقرر أن يعدل كفة الجنس المائلة في الخارج، بينما يحتفظ بابتسامة واسعة تضيء وجهه دائماً، وهدوء يمكن توزيعه على جميع العصابيين في الكون، لكنه لم يتنازل أبداً عن فكرة الإنجاب حيث إن هذا البند مشمول في الصفقة التي اتفق عليها ومنال في صمت، ودون الحاجة إلى الدخول في أي مشاحنات!

عندما أدركت منال أن ممدوح لن يتركها لحالها قبل أن تنجب، قررت أن تنفذ تلك المهمة الشاقة سريعاً، فقامت بزيارة طبيبة النساء لتقف على طبيعة أمر جهازها التناسلي، وعادت بورقة تؤكد سلامتها البدنية إلى ممدوح، الذي فهم بمجرد أن وضعتها أمامه أنه يجب عليه بدوره أن يطمئن

على أجهزته كي تنتهي تلك المهمة المزعجة. بعد مرور سبعة شهور من الصراع الجنسي بين منال وممدوح، تمكنت واحدة من بويضات منال من اقتناص حيوان منوي شارد عن سرب حيوانات ممدوح الذي يدفعها بدأب وتفان! وفي اليوم التالي لتأكد منال من الحمل، اشترت غرفة نوم جديدة لنفسها، وتركت غرفة الزوجية كي ينعم فيها ممدوح بليالي الصمت بعيداً عنها.

مرت الشهور التسعة على منال كجحيم حقيقي، لم تتقبل فكرة القيء الصباحي ولا ارتفاع بطنها مع مرور الأيام، حاولت بقدر الإمكان أن تداري ذلك التشوه بجسدها، حتى خرج الأمر عن السيطرة تماماً مع بداية الشهر السابع، لم تشعر بالسعادة عندما أنبأتها الطبيبة بأن جنينها أنثى ستحمل بالتأكيد قسمات وجهها الرائع، بل كرهت الفكرة وتمنت لو كان ذكراً كي يحمله ممدوح بعيداً عنها إلى النهاية، وعندما جاءتها آلام الطلق سبت كل من رأته بوجهها حتى الطبيبة، وأعلنت صراحة عن رفضها للجميع بمن فيهم تلك الطفلة القادمة! وبمجرد أن وضعتها هرعت مسرعة إلى صالات اللياقة البدنية وأطباء التجميل حتى تستعيد رونق جسدها السابق، لتعود إلى الشاشة وتستأنف مسارها الذي لا ترغب إلا فيه، بينما وفت المربية الإنجليزية التي استقدمتها من بلادها بغرض رعاية الطفلة، التي بدأت تعيد سرد قصة منال من جديد...مخلوق صغير يواجه العالم وحده دون أب أو أم، بينما ترعاه امرأة مدفوعة الأجر.

تلك كانت حياة منال الزوجية السعيدة، والتي حرصت وممدوح أن يظهراها كاملة لا ينقصها الحب والدفء الأسري، فهما غريبان تماماً عند انغلاق باب دارهما عليهما، ملتصقان يتبادلان العشق وتغريد البلابل إذا ما

استلزم الأمر ظهورهما معاً أمام الناس، كما أنهما دون اتفاق معلن حرصا على مشاركة بعضهما بعضاً في جميع المناسبات واللقاءات العامة، التي يتطلب عمل كل منهما أن يظهرا معاً خلالها، ولم ينزعج أي منهما من تلك الحياة البلاستيكية، بل استراحا كثيراً للأمر مادام يحقق كل منهما هدفه في العمل والارتقاء المستمر في سلم الحياة الاجتماعية الراقية.

(٧)

وضعت منال نقطة على آخر سطر ختمت به قصتها على مسامع أمل، تلك التي لم يكن ليرد على خاطرها أن منال الوزي المذيعة التي تنثر بريقها أينما حلت، قد تحمل بين جنباتها قصة كالتي انتهت لتوها. رغم حاجتها الماسة إلى دس ولو لقمة واحدة داخل جوفها، لم تمد أمل يدها نحو الطعام الذي يستريح بكامل بهائه وفتنته أمامها، حيث استطاعت المفاجأة التي بعثرتها ابنة الوزي حولها أن تدفع بالدماء إلى رأسها لتستعيد وعيها دفعة واحدة، كما لم تجد كلاماً يتماشى وهول قصة منال، التي بدت غير عابئة بما قصت لتوها. كانت وكأنها تسرد مروية لامرأة أخرى، وهي تشعل سيجارة وتداعب خصلات شعرها بأطراف أناملها!

بعد مرور لحظات طويلة قد تصل إلى ربع الساعة، تناولت أمل قطعة خبز من الطعام الماثل أمامها منذ أكثر من ساعتين على الطاولة، قضمتها بعشوائية كاملة، وبعد أن ابتلعت لقمتها البائسة أخذت تلف كفها في الهواء كتائهة حقيقية ثم قالت أخيراً: وليه أنا بالذات؟!

كمن كانت تنتظر أي كلمة تخرج من أمل، تلقفت منال السؤال وسارعت إلى الإجابة التي بدت محسوماً أمرها منذ زمن: أولاً لأنك... ما تزعلي مني... مانك مهتمة بحالك كتير... يعني يوم تجي مظبطة حالك على الآخر وعشرة لأ... وكمان لأنك ما بتغاري من النسوان اللي حواليكي، ومطلقة وتاركة ابنك وما هامك حكي الأمومة الفاضي، ولسانك طويل وما بتخافي تقولي يا اللي بدك... وفي الآخر لأني ما بعرف ليش حسيت إنك عاقلة كتير وما بتفشي سر لحدا!

ضحكت أمل ملء شدقيها فور انتهاء منال من تعداد حسناتها، التي رشحتها كي تكون حكيمة الغابة الخاصة بجلالتها! ثم قالت: يعني تقصدي تقولي إني مش منافسة ليكي في عالم الجمال، وإني ست سافلة وما عنديش قلب؟!

أزعج قول أمل منال كثيراً، وحاولت أن تصلح ما قد بدا وقد أفسدته بوصفها لشخصيتها، لكن أمل أنقذتها من اضطرابها، وأشارت بيدها مطالبة أن تصمت حتى تبتلع اللقمة الجديدة التي حشرتها في فمها، ثم قالت وهي تبتسم بأسى حقيقي: بغض النظر عن فهمك لشخصيتي، لكن أنا فاهمة كويس إنك بتمدحيني مش بتهينيني... إنتي من الآخر كنت بتدوري على واحدة شبهك وسط الستات الكتير اللي ماشيين على الكتاب اللي حاطه المجتمع لينا، مع إضافة بسيطة وهي إني مش هادخل معاكي في صراع جمال نسائي!

شعرت منال بالخجل مما قالته أمل، لكنها لم تستطع نفيه فأومأت برأسها أن نعم، حينها ابتسمت أمل وقالت: بغض النظر عن إنك فهماني

غلط خالص، وإنك أخدتي مني الصورة مش الحقيقة، لكن إنتي في النهاية دقيتي الباب الصح لأني فعلاً مش هأقول لحد على حاجة... عارفة ليه؟!

منال: إيه.. لأنك أمينة على الأسرار؟!

أمل: لأ!... لأني بفرح لما أقابل ست بتغرد خارج السرب.... بس السؤال بقى... إنتي إيه اللي خلاكي تنفجري دلوقت، ما إنتي عايشة طول عمرك كده ومبسوطة باللي إنتي فيه؟!

منال: عمري ما حسيت إني مبسوطة، أنا كنت بابني جدار عالي حواليا صعب إن حدا يخترقه ويإذيني، بس مؤخراً بدأت أحس إن الجدار عم بيخنقني، وإني بدي أعيش حياة مريحة فعلاً، نِفسي أعيش نَفسي مش اللي يريده الآخرين... بدي أعيش وحدي من دون زوج ولا بنت، بدي أعيش منال المذيعة الناجحة وبس.

أمل: بس صعب تلغي كل ده بضغطة على زرار... تحديداً بنتك.

منال: طب ما إنتي لغيتي ابنك بضغطة زر.

نشبت منال أظفارها بقسوة في جرح أمل المكتوم، فهي لم يخطر ببالها أبداً أنها ألغت ابنها بضغطة زر، حيث تعيش بألم فراقه كل لحظة، وتمنع نفسها عنه يومياً بجهاد حقيقي، فقط لأنها لا ترغب في فقدان ذاتها من أجل ذاته، فقط لأنها تحب نفسها كما تحبه ولا ترغب في أن تكرهه إذا ما كان سبباً في أن تكره نفسها، هي ترغب في أن تكون معه، ولكنها تعلم أن روحها ستفقده لو اقتربت بجسدها منه وأطاعت العالم.

لم تطل الجلسة كثيراً بعد ذلك، فبمجرد أن أنهت أمل طعامها استأذنت منال في تكملة الحديث في ما بعد، لأنها تحتاج إلى وقت كافٍ كي

تهضم قصتها الغريبة، وكي تأتي لها بحل سحري لمشكلتها! بالطبع لم يكن هذا هو السبب الذي أنهت من أجله أمل ذلك الاجتماع النسائي الصغير، فقد عصف ما قالته منال بروحها المكلومة، والتي تحاول دائبة أن تسد الجراح المبعثرة على صفحتها. أخذها الطريق الخاوي نحو منزلها إلى بقاع عديدة من العالم، أو بالتحديد إلى بقعة واحدة شهدت جميع تمزقاتها، بل وتضم الآن جرحين عزيزين عليها ترغب في أن تداويها قبل أن يستنزفا ما تبقى لها في ذلك العالم... مصر.

"هل أنا معقدة؟!".. سؤال طالما قفز أمامها طوال حياتها، أو تحديداً منذ قررت أن تحب نفسها كثيراً، وتوزع باقي ما لديها من مشاعر محبة على باقي الكون، لم يكن سهلاً أن تنخلع من بين سيل القطيع النسائي، ولم يكن سهلاً أيضاً أن تمضي مزدردة كرامتها المهدرة، منكسّة الرأس محنية الظهر، فقط كي تقوم بمهمتها الإلهية وتلعب الدور المتكرر والممل "الزوجة الصابرة كي لا ينهار بيتها، والأم الحنون رغم كل شيء"، هذا الدور الذي طالما كرهت مشاهدة أمها تؤديه كل يوم من أيام عمرها منذ وعت الكون حولها، وهو نفس الدور الذي لعبته جدتها أيضاً بناء على تصريح أمها لها، عندما سألتها ذات يوم وهي في السابعة عشرة "إنتي ليه ساكتة على اللي بيعمله بابا فيكي؟!... ليه مش بتصرخي وتعترضي؟!... ليه مش بتسيبيله البيت وتطلبي الطلاق؟!".

"أمي استحملت أكتر من كده كتير، ومع ذلك صبرت عشاني وعشان إخواتي... كان أبويا في شبابه في منتهى القسوة، كان بيخونها مع بنات ليل... وكانت عارفة وساكتة... لدرجة إنه في مرة من المرات رجع البيت سكران طينة وجارر في إيده واحدة من إياهم... جرها قصاد أمي

على أوضة النوم وعلى سرير أمي نام معاها... كانت أمي لسه ما خلفتش غير أخويا الكبير وكان نايم في سريره في نفس الأوضه... جريت عشان تشيله من هناك وتسيب له البيت هو والساقطة اللي معاه... بس هو ضربها وأجبرها تقف وهي شايلاه وتشوفه وهو بيمارس الجنس مع الساقطة! وقعد يقولها إنها مش ست وإنها لازم تتفرج على بنات الشوارع بيعملوا إيه عشان همه ستات عنها!... ومع ذلك صبرت واستحملت لغاية ما ربنا هداه".

كانت تلك هي قصة الأم الأثيرة لتبرهن على أن ما تفعله أمر طبيعي، وأنه الواجب والمهمة المقدسة للنساء، كي يستمر الكون وتعمر الدنيا وتستمر الأسرة الشرقية خالدة لا تعصف بها أي ريح. لم تكن تلك القصة هي المفضلة لدى أمل، فقد كان مجرد سماعها يثير داخلها الرغبة في القيء، هي التي سمعتها مراراً وتكراراً منها بعد كل محنة تعيشها تلك مع والدها، الذي لم يقدر له الله أن يهتدي مثل جدها الفحل! فقد ظل حتى توفي وهي بعد طالبة في الجامعة، يكيل الإهانات والسباب لوالدتها على كل شيء وأي شيء، ربما امتنع عن ضربها في آخر أيامه لأنه أدرك وببساطة مدى استياء أمل وإخوتها مما يفعله، لكنه لم يهتد.. فقد ظل حتى طحنته سيارة النقل أسفلها على طريق الإسكندرية الصحراوي... مجرد سافل كبير!

لم تبك أمل يوماً على والدها، ولم تشعر أيضاً بالتعاطف مع والدتها، بل ربما كرهتها أكثر، فهي لم تر سبباً واحداً، حتى سر الأمومة المقدس، يجعل امرأة متخرجة في كلية العلوم وتعمل في المركز القومي للبحوث تقبل تلك الحياة المهينة!

هل هي لعنة تم صبها على رأس النسل الأموي لعائلتها؟! أحياناً تفكر بتلك الطريقة، فجدتها وأمها عانتا من زوجين حقيرين، ثم أتت بدورها لتجلب من حيث لا تدري ولا تعلم حقيراً جديداً تضمه لسلسال عائلتها المحترمة، لتعيد سرد قصة جدتها ولكن بنسخة معدلة تصلح لنهايات القرن العشرين! رجل اعتقدت أنها تحبه وأنه مختلف تماماً عن أبيها وجدها لأمها، لكنه مارس لعبة الرجل الأثيرة... الخيانة... لكن تلك المرة بتبرير جديد (امرأة واحدة لا تكفي عبقرية الفن ونزواته)! أربع سنوات كاملة عاشتها تحت سقف واحد مع ذلك الفنان، الذي لا يرى في الفن سوى النزوات!... نزوة تلو أخرى دون أن يصل إلى الهداية المنتظرة... يعود إلى البيت وهو واثق من قدرته على الإخفاء، ليلعب دور الزوج العاشق إلى ما لا نهاية... ربما كان يعشقها بالفعل، ولكنها لم تستطع أن تتحمل عضوه الملوث داخلها أكثر، فوضعت نقطة لتنهي تدفق القصة المملة.

لم تتخيل أمل في ذروة انفعالها وهي تطالب بالطلاق أنها ستدفع ابنها ثمناً، وربما لم تدرك ذلك إلا عندما جاءتها فرصة العمل في دبي، فقد جاء العرض في وقته تماماً وهي في وسط عصف روحها المهتزة على أرجوحة أحلامها المتساقطة أمامها، حلم بعد آخر يختنق وهي لا تستطيع فعل أي شيء سوى المشاهدة... منزلها الذي بنته كي يكون مأواها بعيداً عن البيت المليء بالسباب واللكمات ضاع، زوجها الذي غنمته بديلاً لأبيها السفيه، نزع قناعه فور توقيعه صك الزواج، طفلها الذي حملته في أحشائها اتضح لها فجاة أنه ذكر يئن مطالباً كل يوم بحضن والده، الذي أبعدته عنه بعد أن فكت رقبتها، عملها الذي كانت تفني جهدها وخلايا عقلها من أجل الارتقاء به، لم تعد قادرة على المواصلة فيه وزوجها يلاحقها بمراقبته لها،

ليؤكد لنفسه أنها لابد وأن تكون خائنة كي تصر على الانفصال بهذه الطريقة، ولم يستطع عقله أن يستوعب أبداً أن السبب هو خياناته الدائمة لها، عيونه تناثرت في كل مكان حولها، حتى شكت في جميع زملائها في العمل أن يكونوا مستأجرين لمراقبتها وكتابة التقارير عنها لصالحه!

جاءت فرصة العمل في تليفزيون ITC في دبي كطوق للنجاة كي تبتعد عن هذا العالم الموبوء من حولها، زوجها السابق الذي جُن من إصرارها على الطلاق حتى نالته، غير آبهة بالمنزل الذي تنازلت عنه و"شبكتها" الفاخرة ومؤخر صداقها الكبير، وأمها التي تعيش كمكلومة على إثر فقدان زوجها السافل إثر حادثة كان يستحقها عن جدارة! والتي لا ترى سبباً لطلاقها وتقرعها في الذهاب والإياب على ذلك، بل وتتصل بزوجها السابق لتطالبه بالصبر قليلاً حتى تتمكن من إعادتها لمنزله!

كان السفر هو الحل السحري لكل مآسيها التي تعيشها في كل لحظة، ولذلك لم تكن مسألة فقدانها ابنها لتقف أمام نفاذها من بوابة الخلاص الوحيدة المفتوحة أمامها كي تبدأ حياة جديدة... حياة تقررها هي ولا يقررها من حولها... حياة تفرد فيها جناحيها لتحلق بعيداً نحو السماء... تعيش كما ترغب دون نظرات حاكمة ولا عادات وتقاليد، ترسم لها صورة واحدة محشورة في إطار واحد... إطار ضيق قاتل.

أخيراً وصلت إلى منزلها، وبعد أن ركنت سيارتها ثم انزلقت منها، قابلت نسمة رقيقة داعبت عنقها، فمدت كفها كي تتحسسه ربما لتتأكد من أن الرباط قد فُكَ بالفعل! ثم قالت "مش معنى إني ست إني أعيش العمر كله تحت الجزم... جزمة الزوج وجزمة الإبن وجزمة المجتمع... فلتسقط جميع الجزم"!... انحدرت دمعة من عينها، ورغم ذلك ابتسمت وقالت

وهي تنظر لابنها السابح في الفضاء: "أنا آسفة بس ما أقدرش أحبك وأكره نفسي"!

(٨)

كان لابد لأمل من أن ترتاح قليلاً على شاطئ سميرة، فرغم مآسيها ودورانها الدائب في ساقية البحث عن زوج، الذي تقلص ليكون حبيباً! (مجرد حبيب يرفع سماعة التليفون إن شا الله كل شهر ويقول لي إزيك عاملة إيه؟!)، إلا أنها تبقى دائماً ومنذ تعمقت علاقتها شاطئ الراحة الذي تتنفس على أطرافه الهواء النظيف. في المساء وبعد أن أغلق أسبوع العمل آخر لحظاته، اتجهت أمل إلى سميرة دون أن تخابرها تليفونياً، فهي داخلها تعلم أنها دائماً هناك، مستقرة على أريكة منزلها تعبث بأزرار التليفزيون باحثة عن فيلم رومانسي يفرغ بعضاً من شحناتها المكبوتة، سواء للجنس أو للمشاعر المفتقدة التي فجرها رمزي لكنه أوصدها أيضاً برحيله، تاركاً سميرة رهينة المحبسين، الأفلام الرومانسية والمسجد الذي افتتنت بصوت أحد مشايخه وهو يقرأ قرآن صلاة العشاء، لذلك كان الحصول عليها دائماً متاحاً بعد الساعة التاسعة مساء، بعدما يغلق المسجد بوابته ويرحل الشيخ ليشرب قدحاً من الينسون أو الزنجبيل ليجلو صوته ويشذبه، عقب تلاوة مزلزلة لقلوب العذارى مساء!

هذا ما تخيلته أمل، فالأمر ليس صوتاً عذباً في قراءة القرآن، إنه ولابد صوت ذكوري شجي يحرك لا وعي سميرة الجنسي، ما يجعلها منجذبة بهذا الشكل المرضي لهذا الشيخ الذي لا تحصل منه سوى على الصوت، حيث

تصلي النساء في حجرة مغلقة معزولة عن صحن الجامع البراح الذي يحتكره الرجال لأنفسهم، مسيطرين حتى على بيت ربنا!... وإلا فلماذا حصرت أيامها بين الأفلام الرومانسية الأجنبية بالتحديد وصلاة العشاء في الجامع، التي يؤم المصلين فيها ذلك الشيخ صاحب الحنجرة الذهبية؟!

عندما وصلت أمل عند باب منزل سميرة لم يستجب أحد لقرعها الجرس، فتأكدت بعد تكرار إطلاق عويله أكثر من مرة أنه لابد وأنها مازالت في مسجد النور المشيد على الطراز العثماني القديم، والمطل بمهابة على بحيرة خالد بالشارقة، حيث يمكن رؤيته من أي مكان في شارع البحيرة وكأنه المبنى الوحيد به. لطالما أحبت أمل جمال معمار ذلك المسجد، أو ربما الشرح الوافي لجمالياته المعمارية والذي تلقته من سميرة عقب تشييده هو الذي جعلها تقع في حبه، لكنه ظل حباً من بعيد لبعيد! فقد امتنعت أمل بإرادة حرة مستقلة عن الصلاة والصيام والاقتراب من دور العبادة تماماً، عقب اللحظة التي قررت فيها هدم صنم الذكر في الحياة... لا تدري لماذا ارتبط داخلها الله بالأب، فإذا ما اقتربت من أبيها اقتربت من الله، وإذا ما نفرت نفرت منه أيضاً! وعندما أبدلت بأبيها زوجها في المقعد المقابل لله، كانت الخاتمة الكبيرة والمدوية لسقوطه مع انهيار صنم الرجل تماماً، وتحوله إلى مخلوق عادي وربما أقل من العادي!

فكرت أنه ربما تكون اللحظة مناسبة الآن للذهاب إلى مسجد النور ورؤيته من الداخل، على الأقل كي تحضر فتاتها من هناك، ولكنها وهي في المصعد متجهة للأسفل تذكرت أنها ترتدي جينزاً ضيقاً وقميصاً يظهر ذراعيها، فتساءلت: "لماذا يضع الله شروطاً سخيفة كي نزوره في بيته؟! ألا يكفي أننا ذاهبون إليه؟! لماذا لا يضع مثل تلك الشروط على الرجال؟!...

أف!... آه ربما لأنهم أبناؤه بينما نحن بنات الجيران"!... أطلقت ضحكة رعناء وهي تخرج من باب المصعد، وبمجرد أن نفذت من بوابة البناية أبصرت سميرة تعبر الشارع متعثرة في ردائها الطويل المهدل وغطاء الرأس الذي يكاد أن يعميها، وسجادة الصلاة التي تشبه اللحاف، والمصحف الذي يماثل في حجمه موسوعة أوكسفورد، والسبحة المتدلية من بين كل ذلك والذي تحمله فقط بيسراها!... توقفت على البوابة مفكرة أن سميرة لابد وأنها أنقذتها من المسجد، وإن كانت تحتاج إلى إنقاذ سريع وعاجل منه أيضاً، إذ ما الذي يجعل أي إنسان يفعل في نفسه ما يوصله إلى ذلك المنظر الذي هي عليه الآن؟!... فكرت أنه قد حان الوقت كي تنهي تلك التراجيديا التي أخذت وقتاً أكثر من حقها.

أضاء وجه سميرة بمجرد رؤيتها لأمل تقف على بوابة البناية التي تقطن بها، واضعة يدها في وسطها وناظرة بسخرية تعتلي شفتيها المرفوعتين نحو الجانب الأيمن من وجهها، حاولت وسط زحام معدات الصلاة المتراكمة على يسراها أن تحتضن أمل، التي سارعت بتوفير تلك المشقة عليها واحتضنتها بقوة، حاملة منها بعضاً من تلك المعدات الثقيلة، لكنها لم تنس أن تعلق بسخريتها المعهودة: أخبار عم الشيخ إيه؟!

ابتسمت سميرة بهدوء ونظرت إليها قائلة: كويس ولسه صوته رائع... عايزة أقولك إني ما بقتش قادرة أسمع القرآن من حد تاني.

أمل: مش قلتلك... الموضوع مش موضوع قرآن... ده موضوع عم الشيخ نفسه... حاولتي تشوفيه؟

سميرة باستنكار: إنتي بتقولي إيه؟!

أمل: يا ستي ما أقصدش حاجة وحشة... أنا أقصد بس عشان تربطي الصوت بصورة في أحلامك.

ثم غرقت في الضحك وهي تدخل وراء سميرة إلى منزلها بعد أن فتحت الباب. ألقت السجادة والمصحف الضخم والسبحة بلامبالاة على الأريكة ثم جاورتها، لتتلقى نظرة مستنكرة تماماً من سميرة قائلة: إنتي بترمي الحاجة باستهتار ليه كده على الكنبة يا أمل؟!

أمل بصرامة: لأنها مجرد حاجة يا سميرة، مش كائنات حية بتشعر وبتتألم زينا.

سميرة: بس ده فيها المصحف يعني كلام ربنا!

أمل: كلام ربنا مش محتاج ورق... كلامه موجود بالكتاب أو من غيره... وبيفضل الكتاب مجرد ورق وحبر وجماد مش بيحس ولا بيتألم.

تتابع أمل كلامها: بأقولك إيه بقى... أظن كفاية اللي إنتي فيه ده... يعني لو اللي كان بينك وبين رمزي ذنب فأعتقد إنك كفرتي عنه بما يكفي، ولازم ترجعي للحياة بقى!

سميرة بأسى: الحياة؟!... أي حياة؟! اللي إنتي قدمتيهالي وما أخدتش منها غير الذنوب والأسى؟

أمل: أنا ما قدمتلكيش اختراع خاص بيا، أنا قدمتلك الحياة الطبيعية اللي إنتي مصرة تتغافلي عنها وتموتيها... ما ينفعش تعيشي وحيدة كده.

سميرة: أنا مش وحيدة... ربنا معايا.

أمل: يا ستي ربنا معانا كلنا مش معاكي لوحدك، لكن ربنا للأسف ما يقدرش يحل محل البشر... ما تقدريش تعيشي حياة كاملة مع ربنا... لأن ربنا مجرد إحساس جوانا مش شيء مادي بنلمسه ونشمه ونشوفه بعيننا.

سميرة: وأنا عملت إيه باللي لمسته وشميته وشوفته بعينيا؟!

أمل: عديتي عتبة في الدنيا كبيرة كان لازم تعديها... عتبة الجنس... والجنس مش رذيلة ولا هو خطيئة كبرى زي ما هما عايزين يفهمونا!... الجنس ده غريزة أساسية عند البشر لازم يشبعوها في سن معينة، وإنت عديتي على السن دي من زمان أوي... كان لازم تعرفي يعني إيه حضن الجنس الآخر، يعني إيه بوسة! يعني إيه جسمك يتحد بجسم راجل زي ما ولدتكم أمكم... مش كفاية إن المجتمع فارض عليكي العذرية؟ مش كفاية إننا كلنا محتاجين صك رسمي لفقدانها عشان ما يتمش تحويلنا من خانة الشريفات لخانة العاهرات؟!... كمان عايزة تسجني باقي جسمك وتختمي عليه؟

سميرة: كفاية يا أمل... كلامك وداني في داهية قبل كده... عايزة تودّيني فين تاني؟!

أمل: أنا ما ودتكيش في داهية... أنا فتحت قصادك باب الحياة... صحيح الحياة مؤلمة... لكن لازم نعيشها... صحيح الرجل مؤلم لكن لازم نعيشه... صحيح ربنا بيظلمنا كتير... لكن مفيش مفر من عبادته!

سميرة: ربنا مش ظالم يا أمل.

أمل: لأ ظالم!... بصي لنفسك في المراية وإنتي تعرفي إنه ظلمك.

تجذبها نحو المرآة وتثبتها أمامها ثم تقول: ظلمك لما فرض عليكي الشلل، رغم إن أهلك عطوكي التطعيم ضده... إشمعنى إنتي من بين آلاف الأطفال اللي يطلع تطعيمك فاسد؟!... ماكنش ربنا قادر يوقف المصيبة دي؟!... ظلمك لما خلى الناس كلهم يبصوا لأي إنسان مختلف على إنه ناقص وأقل منهم، ومش من حقه يعيش الحياة زيهم... ظلمك لما أخد منك أمك وإنتي في عز احتياجك ليها... ظلمك لما سجنك أبوكي في إعاقتك واتعامل معاها على إنها عيب في سوق الستات... ظلمك لما عطاكي تامر وفتح قلبك على الحب وبعدين أخده منك بمنتهى القسوة... ظلمك لما عطاكي رمزي وبعدين أخده منك برضو بمنتهى القسوة... ظلمنا كلنا لما خلانا أقل من الرجالة درجة، وساب الرجالة يطحنونا بالدرجة دي... ظالم يا سميرة... ربنا ظالم!

لم يكن لكلام أمل وقع الزلزلة على سميرة وحدها، بل عليها هي أيضاً وكأنها تبرر لنفسها كل ما تفعله في الحياة، فأخذ جسداهما يهتز في التحام عنيد أصرت عليه أمل وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، ولا ترى وجه سميرة الذي انكمش مرتعشاً في نشيج يتسلل من داخلها، حتى تحول إلى عويل ملتاع وهي تخلص جسدها من بين قبضتي أمل لتواجهها وهي تقول: لأ مش ربنا هو اللي ظلمني، البني آدمين هما اللي ظلموني... هما اللي أخدوا مني حياتي واتسببوا في تعاستي... لأ مش ربنا... مش ربنا يا أمل لأ... حرام عليكي تاخديه مني.. ده أنا ماليش غيره ألجأ له... حرام حرام ربنا بيحبني... ربنا رحيم!

أمل تنهار متربعة على الأرض بعد أن أهلكها ذلك الموقف المزري الذي رسمته بيديها، ثم تقول لسميرة وقد أجهدها الحديث: أمال ليه

ساجنة نفسك في طلب المغفرة بقالك أكتر من ست شهور طالما ربنا مش ظالم؟!... لو كان ربنا بيحبك ورحيم يبقى أكيد هيفهم اللي حصل، وأكيد هيغفر ويصفح، وأكيد أخدك بين دراعاته من زمان بس إنتي اللي غبية ومش حاسة بيهم!

سميرة تتربع أمام أمل وتسأل بطفولة: تفتكري؟!

أمل: أنا متأكدة عشان لا يمكن ربنا يخلقنا وجوانا مشاعر الحب والرغبة، وبعدين لما نستجيب ليهم مرة واحدة بعد طول حرمان يجلدنا... ولا إيه؟!

(٩)

تعاملت سميرة مع زواج حسين على أنه خيانة لها، وأنه تماماً مثل تامر ابتعد عنها بسبب نصفها المعطوب، لم تستمع إلى ما قالته أمل عن أن العلاقة لم تبدأ كي تكون هناك خيانة، أو يكون هناك سبب نبحث عنه وراء تلك الخيانة المفترضة، خاصة أنها لم تقم حتى بموارية بابها كي ينفذ قليلاً إليها، بل قابلت كل إقباله عليها بنكوص مبالغ من قبلها، وإصرار على مواقف لم تعد حتى المراهقات يقمن بها، فبنات الجيل الحالي يتزوجن عرفياً في سن الخامسة عشرة دون علم أهلهن، ولا يقنعن بلمسة يد أو قبلة خاطفة على الخد مثلما كان يفعل جيلهن المسكين! حيث كن يرتعشن من مجرد نظرة خاطفة تقع عليهن من ابن الجيران أو زميل الجامعة، ولم تنس أمل أن تختم

كلامها بأنه لا يوجد ما يجعلها تبكي على ذلك البدين صاحب العينين الآسيويتين اللتين تغوصان في لحم وجهه إذا ما فكر وابتسم!

الحجج التي دفعت بها أمل أمام سميرة كي تهدأ من حالة الغضب التي تملكتها طوال أسبوع كامل عقب حادثة زواج حسين، انقلبت عليها، فقد انفجرت سميرة في وجهها بأن حسين كان اقتراحها من الأساس، فهي التي ألحت عليها كي تبحث عن ذلك المذكر المجهول، الذي لابد وأن يكون حولها في مكان العمل ويكن لها مشاعر مختلفة، ما جعلها تنظر إليه.

أمل: أنا قلت إن أكيد في واحد مهتم بيكي في الشغل، وما قلتش إنه حسين... أنا ماكنتش أعرف إن فيه مخلوق في شغلك اسمه حسين أصلاً!

سميرة بعصبية: ما هو ده سي مهتم... مفيش غيره!

أمل: لأ... ممكن يكون فيه غيره.

سميرة مشيحة بوجهها: كفاية بقى يا أمل كفاية... مين هيهتم بواحدة زيي... ده أنا حتى ماعجبتش حسين العبيط!

أمل بعفوية: ليه يعني؟! ناقصة إيد ولا رجل؟

سميرة وقد اتسعت حدقتا عينيها صارخة: أيوه يا أمل ناقصة إيد ورجل!... أنا ناقصة إيد ورجل! وعشان كده ماحدش هيبصلي ولا هيرضى يتجوزني.

لم تكن أمل تدرك ما قالته، فقد كانت تجيب بجملة عفوية اعتاد الناس جميعاً أن يقولوها في مثل تلك المواقف، لكن في هذا الموقف ومع سميرة جاءت الجملة في مقتل، فرغم إعاقة سميرة الطفيفة والتي لم يعترف بها حتى الرسميون كإعاقة، إلا أن الكلمات سقطت كملح كاو لجرح مفتوح عن

آخره. لم تستطع أمل فعل شيء حيال سقوط سميرة على الأريكة وهي تنشج، ظلت واقفة كصنم ذاهل لبضع ثوانٍ يدور عقلها على خزائن الحلول السريعة دون جدوى، فاستسلمت لعجزها وركعت أمام سميرة ساحبة وجهها المدفون في يسراها داخل صدرها، وهي تقول: أنا آسفة... ماكنتش أقصد... كفاية يا سميرة، إنتي مافكيش حاجة وحشة يا حبيبتي... حتى لو كنتي فعلاً مشلولة، المشلول بني آدم ومن حقه يعيش الحياة زيه زي أي حد تاني.

سميرة من بين بكائها المتصل: إنتي بتقولي كلام مش أكتر... كلام تعاطف أو شفقة لكنه في الآخر كلام.

لم يكن هناك شيء يمكن لأمل أن تفعله في ذلك الموقف، فكيف تؤكد لها بالفعل أو بالقول أن الإنسان من حقه أن يعيش مهما كانت حالته الجسمانية؟ كيف يمكن لها أن تفعل ذلك وهي لا تدري إن كان بإمكانها أن تقبل رجلاً مشلولاً أو ضريراً كحبيب؟! وفي ذروة تلك اللحظة الانفعالية أضاء في عقلها مصباح صغير، ووجدت نفسها ترفع رأس سميرة الغائص في صدرها لتنظر في عينيها مباشرة وتقول: خلاص... طالما إنتي شايفة إن مفيش راجل عادي هيبصلك ويفكر يتجوزك... يبقى تتعرفي على مجتمع المعاقين في الإمارات!

سميرة بصوت هزيل متسائل: تقصدي إيه؟!

أمل: أقصد إنك تتعرفي على رجالة من ذوي الاحتياجات الخاصة... بلاش معاقين لحسن بتوع حقوق الإنسان يزعلوا مني!

ابتسمت سميرة ابتسامتها الرائقة وقالت: ودول أجيبهم منين بقى؟

أمل مخلية مسئوليتها: وأنا إيش عرفني يا أختي... مش إنتي شايفة إنك مشلولة؟... خلاص تبقي تعرفي إزاي توصلي للمشلولين اللي زيك!

سميرة: أنا مشلولة؟!... بطلي سخافة.

أمل: الله!... مش إنتي اللي شايفة نفسك كده؟... عموماً مش عيب الإنسان يكون مشلول في إيد ولا رجل... المصيبة إنه يكون تفكيره هو اللي مشلول... لكن إنتي مش عايزة تصدقيني... يبقى تروحي تدوري على قبيلتك!

لم تعتقد أمل أن سميرة ستنفذ اقتراحها بالفعل، فقد كانت مجرد محاولة لإخراجها من المأساة التي رسمتها بيديها لنفسها، كنتيجة لموقف عبثي ليس له أساس، لكن المبهر فعلاً هو قدرتها على العثور على مجموعة من ذوي الاحتياجات الخاصة عن طريق موقع على الإنترنت يسمى **HI 5** ، فبعد أسبوع واحد من واقعة مجزرة حسين تلقت أمل اتصالاً تليفونياً وهي في طريقها للعمل.

سميرة: حزري فزري أنا رايحة فين النهارده بعد ما أخلص الشغل؟

أمل: إممممم... مش عارفة... فين؟!

سميرة: رايحة أقابل مجموعة من الشباب من ذوي الاحتياجات الخاصة عشان حقوق الإنسان ما يزعلوش مني (تنطلق ضاحكة بطفولة).

أمل صارخة: إيه... بتقولي مين؟!

سميرة بوضوح أكثر: اتعرفت على تلات شباب.. واحد مشلول وبيتحرك على كرسي متحرك، وواحد عنده شلل أطفال وبيمشي بجهاز في رجله، وواحد ضرير!

كانت أمل تستمع إليها بفم فاغر وعينين متسعتين بحجم المفاجأة، ولم تتمكن من احتجاز الكلمات في حلقها: إنتي مصرة إنك عندك إعاقة؟!

سميرة متعجبة من السؤال: تقصدي إيه؟!

أمل: يعني... أنا هاموت وأعرف عرفتي تلاقي الناس دول فين في الإمارات؟ هي الإمارات فيها معاقين؟... أنا عمري ما شفت معاق في البلد دي من ساعة ما نزلت من الطيارة، لدرجة إني متغاظة من الأماكن اللي محجوزة باسمهم في كل ساحات ركن العربيات واللي دايماً فاضية!

سميرة: مفيش بلد في الدنيا مفيهاش معاقين... أيوه الإمارات فيها معاقين، وعلى فكرة بقى اللي اتعرفت عليهم دول مش من المواطنين.

أمل: كمان؟!... لاقيتيهم فين دول؟!

سميرة: عن طريق الهاي فايف.

أمل: نعم يا اختي؟!... إيه الهاي فايف دي إن شاء الله؟!

سميرة: ده موقع على الإنترنت الناس ممكن تتعرف على بعضها عن طريقه.

لم يكن هناك ما يمكن لسميرة أن تفعله في حياتها عقب عودتها من العمل سوى الدخول على الإنترنت والسباحة عبره، بالانتقال من موقع إلى آخر، في البداية كانت تطلع على النسخ الإليكترونية من الصحف، وتحادث والدها عن طريق "إم إس إن مسينجر"، لكن الأمر تطور بعد ذلك إلى دخول المنتديات العربية والاشتراك فيها، فقط كي تقرأ بعض النكات أو القصص الواقعية المثيرة التي يرويها الأعضاء، والتي كانت تحمل الكثير من المبالغات، مثل الرجل الذي أبصر بعد أن اعتكف لعبادة الله خمس سنوات

لم يحادث فيها بشراً، أو الفتاة التي قاومت جميع المغريات الدنيوية وهي تعاني الفاقة، فأرسل الله لها زوجاً صالحاً ميسوراً أغدق عليها بماله وأخذها لحج البيت الحرام عشرات المرات. أو قصص السحاق بين فتيات السعودية والمذكورة بالتفاصيل المملة، والتي كانت سميرة تصدقها ولا تتحدث عنها لأمل حتى لا تسخر منها ومما تفعله، لكن عادة الغوص في أعماق الإنترنت سمحت لسميرة بالعثور على هذا الموقع الغريب، الذي استطاعت عن طريقه أن تعثر على مجتمعها المنشود، مجتمع المعاقين الذين يجب أن يتكتلوا في مواجهة أصحاء البدن الذين يرفضونهم ويرغبون في عزلهم بعيداً عن العالم!

ربما ألقت أمل هذا الاقتراح كنوع من الدعابة، كي تخرج سميرة من مأساتها المختلقة، لكنها لم تدر أن هذا الاقتراح سيتحول إلى خطوة حقيقية على أرض الواقع، بل إنها ستكون خطوة مهمة تخطو بها خطوات قوية واثقة في الحياة، فعندما ذهبت إلى ملاقاة أصدقائها المعاقين، لم يأتوا وحدهم بل كان كل واحد منهم يصطحب فتاته معه، والمفاجأة الحقيقية هي أن الفتيات اللائي أتين مع الشباب المعاقين، كن جميعهن صحيحات البدن، بل وفاتنات أيضاً.

شاهدت سميرة بعينيها، ولم تقرأ عبر الإنترنت، قصص حب رائعة جمعت بين شباب وفتيات، لم ينظر أي منهم للآخر على أنه معيب أو منقوص، بل على أنه حبيب وكفى، وكانت دهشتها الحقيقية عندما تعجبوا فور رؤيتها، فلم ير أي منهم أنها تعاني إعاقة بدنية ما، حتى اضطرت إلى أن تشرح لهم على يدها وقدمها اليمنى شكل الإعاقة التي تعانيها، فلم تلق منهم سوى ابتسامة إشفاق، لا على إعاقتها بل على رؤيتها لنفسها! وانتهى

اللقاء بقول الشاب المقعد على كرسي متحرك لها: سميرة إنتي مشكلتك مش في إيدك ولا في رجلك... إنتي مشكلتك في نظرتك لنفسك... لازم تغيري النظرة دي وفوراً... لازم تتعلمي تشوفي نفسك صح!

سميرة: بس الناس...

يقاطعها: الناس بيشوفونا زي ما إحنا بنشوف نفسنا... لو إنتي شايفة في نفسك نقص... كل الناس هيشوفوا النقص ده والعكس صحيح... أنا مثلاً بامشي على كرسي متحرك، لكن أنا شريك في كل مباريات كرة القدم اللي أصحابي بينظموها يوم الجمعة.

سميرة مندهشة: بتلعب كرة قدم؟!

يبتسم: أيوه وحارس مرمى كمان!

عادت سميرة من هذا اللقاء وهي تحلق في السماء، ورغم أنها تبادلت أرقام الهواتف مع تلك المجموعة، إلا أنها قررت أنها لن تلتقيهم بعد اليوم، فقد تعاملت معهم على أنهم مبعوثون من الله كي ينيروا لها الطريق الصحيح، وما عليها الآن سوى أن تسير فيه بهدوء وبخطى ثابتة. ربما لم تستطع فهم الرسالة الإلهية جيداً، ففور عودتها إلى منزلها نفذت عبر شبكتها العنكبوتية وأخذت تتمشى عبر صفحات الويب المبهرة، حتى وقعت مصادفة على ما اعتبرته كنزاً، فلقد قفزت أمامها صفحة لموقع يعمل على تجميع الرؤوس في الحلال **zawaj.com** هذا هو اسمه! أما هدفه فلا يختلف بأي من الأشكال عن اسمه الصريح. قامت سميرة فوراً بالدخول إليه، ودون أن تفكر وجدت نفسها تعبئ استمارة اشتراك به، وتدون بياناتها من الاسم إلى الجنسية إلى المواصفات البدنية، التي لم تنس أن تذكر فيها ما كانت لا تزال على اعتقاد أنه قد يقف في طريق أحلامها للعثور على زوج

المستقبل المنتظر، أو لأنها مازالت متأثرة بمبدأ والدها في عرض السلعة بالأسواق حيث الأمانة في الكشف عن العيوب!

في الوقت الذي كانت تعود فيه سميرة من العمل لتنكفئ على حاسوبها الخاص بالمنزل، باحثة عن أولاد الحلال الذين راسلوها عبر "موقع زواج"، كانت أمل تعود من العمل متعثرة في انتظارها لعادل الذي لم تره منذ شهرين. فبعد أن أمضى شهراً كإجازة سنوية في القاهرة، عاد ليتسلم منصباً جديداً كرئيس لقسم المحليات بالجريدة، ما جعله يمضي أوقاتاً إضافية في العمل لا تسمح له سوى بالنوم بعدها، ليعود إلى نفس الخريطة الزمنية في اليوم التالي.

لم يكن سهلاً على أمل التي لم يكن لديها سوى تاريخ متصل من الخيانات الذكورية، بدءاً من جدها العزيز وحتى زوجها السابق، أن تصدق اعتذارات الغياب التي كان عادل يقدمها إليها مبررة بالعمل، خاصة وأنها جاءت بعد عودته مباشرة من القاهرة، حيث لم يفكر أن يلتقيها مرة واحدة حتى ولو في مكان عام ليقول أي شيء، وإن كان "مش هاقدر أكمل في العلاقة دي"!

ظلت طوال شهر كامل بعد عودته تتلقى اتصالات يومية منه، لا تحمل سوى كلمات مقتضبة عن كيف الحال وكيف هو مزاجك اليوم! في البداية تلقت الاتصالات بحماس فكانت تثرثر طويلاً عن مشاغلها في العمل، وعن تطورات علاقتها بسميرة التي تبحث عن الحب والزواج، وكان عادل يتجاوب معها بحميمية صادقة في البداية، لكنه بعد ذلك كان يقطع المكالمة فجأة معتذراً بدخول أحد إلى غرفته، أو بظهور عمل مفاجئ عليه أن ينجزه فوراً.

بعد أن أتم الشهر الثاني آخر أيامه لم تجد أمل أمامها سبباً كي لا تتصل لتنهي العلاقة بنفسها، قبل أن يفاجئها عادل بالأمر، وبعد أن تكون ضيعت شهوراً طويلة في انتظار من لن يأتي أبداً، سحبت بيمناها هاتفها المحمول من حقيبتها المجاورة وهي تقود سيارتها في طريقها إلى المنزل، وأجرت اتصالاً بعادل لم تتلق عليه إجابة، ضغطت بكفها على الموبايل غيظاً وجزّت على أسنانها، حتى علا الصرير على صوت المذياع الدائر في السيارة! بمجرد وصولها إلى البناية التي تقطن بها وقبل أن تركن سيارتها، تغنى الهاتف بالنغمة الخاصة بعادل. رغم غيظها وقرارها الذي أصدرته عقب اتصالها الفاشل، ألا تجيب عليه إذا ما عاد واتصل بها بعد ذلك، إلا أنها أجابته وداخلها يعلن الرغبة في الإسراع بإنهاء العلاقة قبل أن يتلفظ هو بها، لكنها بمجرد أن ضغطت على زر الإجابة حتى سارع عادل بقوله: إيه رأيك في أكلة لحمة مشوية على طريقة الشيف عادل؟

أمل مستنكرة: نعم يا أخويا؟!

عادل: إيه أخويا والكلام البلدي ده؟!

أمل: إن كان عاجبك!

عادل ساخراً منها، ومحاولاً إفشال مخططها لإثارة عراك بينهما: مش عاجبني يا بنت رفعت... ياللا ياللا لفي الملاية وتعالي جري!

أمل: مش جاية... أنا لسه واصلة البيت وتعبانة وعايزة أنام.

عادل بصوت حان ينطوي على غواية: طب وماله؟!... تعالي نامي هنا.

أمل: لأ... الواحد أكرم له ينام في بيته.

عادل: الواحد مش الواحدة... عشان كده أنا هانام في بيتي وإنتي هتنامي جنبي بعد ما تاكلي اللحمة المشوية... ياللا بسرعة عشان الشيف عايز مساعدة لهلوبة تقشر التوم والبصل.

أمل معترضة: نعم يا أخويا؟!... توم وبصل؟!

عادل منهياً المحادثة بدعابة كعادته: ياللا يا بت بلاش دوشة... بعد ربع ساعة تكوني قصادي... فاهمة ولا والله إنتي عارفة اللي هيحصلك!

أغلق الهاتف وهو يطلق ضحكته، التي تخرج من صدره حليبية رائقة بندى الصباح، في أي وقت من أوقات الليل أو النهار، دائماً ضحكته تهزمها في أي موقف بينهما، ليس عليه سوى أن يطلقها من بين شفتيه وحاجباه يرتفعان قليلاً معها بسحر يسرقها من داخلها وينسيها نفسها أمامه، لتعترف سراً أنها تعشق كل خلية تنبض من خلاياه، ولا تدري ما الذي ستفعله عندما يقرر الرحيل.

لم تُدر أمل السيارة عائدة إلى عادل مباشرة، بل صعدت إلى منزلها أولاً لتحضر قميصاً زهرياً يحمل علامة ناعومي التجارية، وسحبت من على تسريحتها قارورة عطر "بيور بويزون" التي تعشقها، ولم تتلق أبداً أي إشارة من عادل تدل على أنه يحب نفاذها إلى أنفه وهي بين ذراعيه! ثم أكملت مجموعتها ببعض من الملابس وقطع المكياج التي حتماً ستحتاج إليها في الصباح وهي متجهة من منزله إلى عملها.

بعد أن جمعت أمل معداتها اتجهت نحو منزل عادل، وصعدت إليه بشيء من الحذر كما اعتادت، رغم أنها تدري جيداً أنه لا يوجد من يهتم لأمر أحد في هذا البلد! وعندما فتح الباب وجدته ماثلاً أمامها يحمل سكيناً ليحتضنها بيده الأخرى، رافعاً إياها قليلاً عن الأرض لتعالج الأمر بالشب

على قدميها كما اعتادت دوماً، لم يكن عادل من ذلك النوع الذي يظهر مشاعره بأي حال من الأحوال، فبعد مرور شهرين لم يلتق فيها أمل، اكتفى بحضن وقبلة سريعة آمراً إياها بالاستعداد كي تساعده في المطبخ.

عندما ألقت أمل نظرة خاطفة على المطبخ، لم يدهشها حجم الأواني المكدسة داخل حوض الغسل، ولا الملاعق والشوك والسكاكين الملقاة في كل مكان، فعادل يعشق الطبخ ويجيده، ولكنه لا يعرف شيئاً عن التعامل مع الآنية وأدوات الطبخ، سوى إخراج ما يريده وفور الانتهاء منه يلقيه في أي مكان قد يتصادف ويكون حوض الغسل!

بعد أن أبدلت أمل ثيابها، مرتدية قميصاً من قمصان عادل الملقاة في كل مكان داخل غرفة نومه، بين بقايا علب الوجبات السريعة وزجاجات البيبسي الفارغة التي يدمنها، خطت داخل المطبخ حذرة من الانزلاق لكثرة الدهون التي تغطي أرضيته، ولم تتمكن من كبح سخريتها أكثر من ذلك...

أمل: إيه يا بني... هو إنت بتطبخ فيل؟!

عادل بنظرة جانبية وابتسامة حاول معها الاحتفاظ بسيجارته المعلقة بفيه: بلاش غلبة... روحي قشري التوم!

أمل: بجد... هو إنت بتطبخ إيه؟!... إنت مش قلت لحمة مشوية؟

عادل بنفس الابتسامة: مش هاقولك... بس عموماً جهزي نفسك لوليمة.

أمل: وليمة إيه يا عادل؟!... إنت ليه ما قلتليش أجيب معايا الجردل والمقشة عشان شكلنا هنقضي بقية الليلة في تنضيف المطبخ والبيت كله!

مرة أخرى يطلق عادل ضحكته، التي تنزع قلب أمل من موضعه وتلقي به إلى السماوات العلى، بينما ينهمك في تقطيع اللحم المكوم أمامه كتلاً ضخمة: إنتي مش هتبطلي غلبة؟! لأ إحنا هنقضي الليلة بنعمل حاجات تانية... هو أنا مش قلتلك في التليفون هاعمل فيكي إيه؟!

أثارت كمية طلبات الزواج التي انهالت على سميرة عبر "موقع زواج" دهشتها، فها هي رغم ما ينقصها يرغب فيها الرجال. في البداية لاحظت أن هناك العديد من الطلبات القادمة من رجال من مصر، ويرغبون في الزواج منها فوراً، لذا فقد كانت تجيب على رسائلهم بأنها لا تدري كيف ستلتقي بهم، خاصة أن إجازتها السنوية مازالت بعيدة بعض الشيء، ولا تدري أيضاً كيف ستتزوج أياً منهم وهي مقيمة بعيداً عن القاهرة ولا تنوي العودة الآن. جاءتها الإجابات واحدة منهم جميعاً، فكلهم على استعداد للزواج منها غيابياً عن طريق ولي أمرها في مصر، على أن تتمم هي باقي الإجراءات في الإمارات وتحضرهم على كفالتها!

لم تدرك سميرة حقيقة هذا الزواج الانتحاري المعروض عليها من قبل شباب بعضهم يصغرها سناً، لكن الأمر لم يظل خافياً عليها كثيراً، فعندما تلقت نفس الرد تقريباً ممن لا يقل عن عشرة رجال، أرسلت لهم سؤالاً واحداً لم تشق على نفسها بكتابته عشر مرات، بل قامت بنسخه ولصقه بعددهم بعد الكتابة الأولى... (وما الذي ستفعله بحضورك هنا وأنت بدون عمل في الإمارات؟ ومن سيدفع تكاليف إحضارك وإقامتك؟!).

ببساطة شديدة تلقت نفس الرد، مغلفاً بكثير من الخداع العاطفي الذي يبرع رجال المحروسة كلهم في نسجه وحبكه على جميع النساء من أي

بلد، سواء كانت مصر أو حتى بريطانيا العظمى!: (ألست زوجتي وحبيبتي؟! ستتولين أنت دفع كل ذلك في البداية! ولكني أقسم يا حبيبتي أن أرده إليك وزيادة بمجرد عثوري على عمل في الإمارات، لنعيش معاً حياة سعيدة مديدة إلى الأبد)!

ذلك الأبد الخيالي الذي يعد به الرجال دوماً، ولا تتلقاه النساء إلا في صورة سجن مع الأشغال الشاقة مدى الحياة لم تبلعه سميرة أبداً، ولكنها لم تمتلك الشجاعة الكافية لإرسال رفض قاطع لهؤلاء العرسان الافتراضيين، فهناك داخلها تكمن "ماذا لو؟" كبيرة جداً، تلك "الماذا لو" التي تقف دائماً بين النساء وبين الحياة الحقيقية، معها يضيعن الأيام والسنين على مشاريع تصرخ بأنها فاشلة، ومعها يحتجزن سنيهن لتمضي دون أن يدرين وهن قابعات في الخلف!

لم تتمكن سميرة من اتخاذ القرار بشأن طابور العرسان القادم من القاهرة زحفاً، وبعد تردد طويل قررت استشارة خبيرتها الاستراتيجية، والتي كانت تخفي عليها الأمر لتأكدها أنها ستتلقى تلك الإجابة:

أمل: إيه؟!... بتقولي موقع جواز؟! إنتي اتجننتي في عقلك؟!

سميرة بهدوء العارفة بأمر أمل: أيوه... موقع جواز!... مفيهاش حاجة يعني.

أمل: لأ فيها... الراجل اللي يلجأ لموقع جواز عشان يلاقي بنت الحلال راجل عاجز... عاجز بشكل أو بآخر.

سميرة: عاجز في إيه يعني وإزاي؟!

أمل: ببساطة لما تشوفي بنت زي حالاتك ما اتجوزتش بتقولي معلش لسه ماجلهاش نصيبها... لكن الراجل في بلادنا هو اللي بيعمل نصيبه... لما الراجل يحب واحدة المجتمع كله بيديله الحق إنه يروح ويقولها باحبك وعايزك... لكن الست لو حبت راجل وراحت قالتله بحبك وعايزاك، هو والمجتمع كله هيقولوا عليها يا إما مجنونة يا إما شرموطة.... صح ولا أنا غلطانة؟!

سميرة باستياء باد على وجهها من أثر استخدام أمل للفظ "شرموطة": أيوه صح بس يعني بلاش الكلمة الأخيرة دي!

أمل: بغض النظر عن الكلمة، وإن كانت هي الكلمة المستخدمة فعلاً في المجتمع لوصف الست اللي بتعمل كده... مجتمعنا بيبيح لنا إننا نستخدم طرق ملتوية بس عشان نوصل للي بنحبه، وده اللي بيخلي المهمة صعبة، لكن بيفتح للراجل كل الطرق المستوية عشان يوصل للي هو عاوزها تحديداً في موضوع الجواز.

سميرة: عندك حق... بس افرضي يعني إني ممكن فعلاً ألاقي الزوج المناسب ليا عن طريق الموقع ده.

أمل: يا ماما الطريقة نفسها فيها حاجة غلط، لأن لو الراجل ما لقاش بنت الحلال لنفسه بيخلي أمه تجيبهاله أو أخته أو حتى زميلته في الشغل... والمتطوعات في الموضوع ده كتار أوي... خاصة إن الراجل لما ينوي يتجوز مفيش حاجة ممكن تقف في طريقه، وأغلبهم لما بيقرر يتجوز بيكون الهدف إنه خلاص بقى عايز يعمل بيت عشان يستقر ويخلف عيال، ومش بتبقى الست لاعب رئيسي في الموضوع، لأنك هتلاقي طلباتهم محددة، تكون حلوة وبنت ناس وصغيرة في السن عشان فرصها في الحمل تكون أكبر،

وعشان يربيها على إيده وما توجعش دماغه... فبالتالي لما الراجل يلجأ لموقع على الإنترنت عشان يتجوز بيكون في حاجة غلط وراه.

سميرة: طيب أنا عندي عروض كتير دلوقت جايالي عن طريق الموقع، منها عشرة من مصر وكلهم مستعدين يتجوزوني فوراً ومش مهم حتى أنزل عشان نتمم الجواز... أقصد نكتب الكتاب عن طريق بابا وبعدين ييجوا هنا.

أمل: من غير ما يشوفوكي!... إنتي بعتي صورتك مثلاً؟!

سميرة: لأ... أنا ما حطتش صورتي.

أمل: طب اتكلمتوا مثلاً في التليفون؟!

سميرة: مش معقول هاكلم عشرة دولي ولا هما هيكلموني!

أمل: ولا عن طريق المسينجر؟!

سميرة: خفت أكلمهم على المسينجر... بس عن طريق الإيميلات!

أمل وقد نفد صبرها: ممكن تفاصيل؟!

بعد أن قصت سميرة على مسامع أمل التفاصيل المقتضبة لقصتها مع العرسان العشرة القادمين من المحروسة، نزل على رأسها وابل من الشتائم والصراخ والنعوت التي كان أقلها "يا غبية"، فهؤلاء الرجال لا يبحثون عن عروس، ولكنهم يبحثون عن فرصة عمل في الإمارات، ولا مانع لديهم أن تكون على جثة امرأة تبحث عن الزواج على موقع إنترنت، وليس من المستبعد أبداً أن يكونوا متزوجين بالفعل في مصر، أو مرتبطين بفتاة ستنتظرهم حتى يكدسوا الثروات الموعودة بقدومهم إلى بلاد النفط!... فالهدف ليس الزواج ولكن العمل في الخليج، وسميرة ليست موضوع

مناقشة فهي مجرد عتبة سيخطون عليها ويتخطونها بمجرد أن تستتب لهم الأمور ويستقروا في وظيفة جيدة، لن يتكلفوا من أجلها مسكناً أو مستلزمات حياة أولية تستهلك الدخل في العام الأول على الأقل، ولم تنس أمل أن تختتم أداءها الصاخب بقولها: وأحلق شعري زيرو لو ما كانش فيه غيرك بنات كتير، ممكن يكون منهم خليجيات، معروض عليهم نفس العرض من نفس الأشخاص، عشان أول واحدة تبلع الطعم يرسى عليها العطا!

سميرة: بس دول بيقولوا إنهم معجبين بمواصفاتي وشجاعتي، لأني برغم ظروفي قدرت أكون مهندسة وأنجح في شغلي... وكمان أعيش في بلد غريب لوحدي!

أمل بغيظ حقيقي: ما هو لازم طبعاً التمثيلية تكون محبوكة ومفيش مانع من كلام حلو يغلف عمليتهم القذرة... يا حبيبتي مفيش راجل بيهمه إن مراته تكون ناجحة، بالعكس هما مش عايزين ستات ناجحة تكون على زمتهم... إنتي تعرفي هما قالوا ليه وراء كل رجل عظيم امرأة؟

ولما تلقت أمل صمتاً متسائلاً من قبل سميرة قالت: عشان لو كانت قدامه مش هيبقى عظيم!... الراجل بيحقق نجاحه على جثث الستات، بيعمل منهم سلالم يطلع عليها واللي تستنفذ صلاحيتها بيرميها ويجيب غيرها، أو بيخزنها في بيته ويعيش حياته مع غيرها بره... طب إنتي عارفة تكملة المقولة دي إيه؟

سميرة: إيه؟

أمل: ووراء كل امرأة فاشلة رجل! ولما تتعدل الكفة لصالح الست تبقى ووراء كل امرأة عظيمة راجل وسخ طلع دينها! وكان عندها الإرادة

الكافية إنها تتحدى المجتمع وترميه وراها وتكمل حياتها من غير رجالة خالص!

سميرة: بس إنتي عندك عادل وبتحبيه، وهو مش دايس عليكي ولا على مستقبلك.

تهبط ثورة أمل فوراً بمجرد طرح اسم عادل، لتتنهد وتقول بألم حقيقي: عشان لسه ما اتجوزناش... لسه ما ممسكش في إيده صك عبوديتي... وبعدين هو فين عادل ده؟... ده أنا ما شوفتوش خلال الشهرين اللي فاتوا غير مرة واحدة.

عندما عادت سميرة إلى المنزل تحمل داخلها إحباطاً بحجم دوران الأرض، فتحت جهاز الكمبيوتر خاصتها وكتبت رسالة تحمل إجابة مقتضبة "آسفة لن أستطيع أن أمضي في مشروع الزواج معك"، وبنفس طريقة النسخ واللصق أرسلت رسائل عشراً إلى فرسان المحروسة، ولم تنس قبل أن تغلق جهازها بيأس ملأ صدرها، أن سدت الطريق عليهم كي لا يعاودوا الاتصال بها وإرسال رسائل تحاول إقناعها بالأمر، بحركة إنترنتية بسيطة **Block** على جميع عناوينهم الإليكترونية!

في اليوم التالي وبعد أن بدأت نهارها بتراخ من إثر اللطمة التي سددتها لها أمل، أو بمعنى أصح أيقظتها بها، استطاعت بقليل من تفاؤل اكتسبته من صديقها المقعد على كرسي متحرك أن تمضي قدماً في طريقها الذي اعتزمت ألا تخرج منه، إلا وهي تتأبط ذراع رجل مرسوم بختم الزواج، وبما أنها لم تكن ترى طريقاً آخر عادت إلى موقعها الأثير **zawaj.com**، بل إنها لم تكتف به وقامت بالبحث عن مواقع أخرى تؤدي نفس الخدمة، لتوسع من

مساحة بحثها عن فارسها المنشود، ففوجئت بأن تلك المواقع تملأ فضاء الإنترنت العربي!

على مدار أسبوع آخر استطاعت سميرة أن تعثر لنفسها هذه المرة على رجل مصري يعيش في الإمارات، ويعمل مهندساً بواحدة من الشركات العقارية الكبرى في دبي، بل وفي منصب إداري مرموق ويبلغ من العمر ٣٧ عاماً، لم تستطع أمل أن تستوعب فكرة بحث رجل بهذه المواصفات عن عروس مستعيناً بموقع على الإنترنت، وأقسمت لسميرة على أنه لابد وأن يكون هناك أمر خفي يكمن وراء هذا الرجل!

لم تكن قضية سميرة هي البحث عن السبب الخفي الذي دفع بالمهندس محمد أبوطالب، وسيم الوجه متناسق الطول والعرض، إلى أن يبحث عن زوجة عبر الإنترنت، بل كانت كيفية مقابلته وحدها دون علم أبيها! ما دفعها أن تطلب من أمل أن تصحبها في هذا المشوار الذي يجب أن تقوم به، حيث تعلمت من تجربة حسين أن عليها الخروج لمقابلة الرجال كي تتمكن من الفوز بواحد منهم، لكنها أضافت تعديلاً لا يجعلها تخون ثقة والدها بها، وهو أن تصطحب معها "محرماً"! لكن أمل صدمتها قائلة: درس نمرة اتنين، إوعي تاخدي معاكي واحدة صاحبتك عشان تقابلي راجل، لأن الرجالة عنيهم زايغة وممكن جداً يبصبصوا لصاحبتك.

سميرة: يعني أعمل إيه طيب؟

أمل: روحي قابليه لوحدك... إنتي مش هتروحيله بيته ده مكان عام فيه بدل المحرم عشرة!

رضخت سميرة للأمر الواقع الذي يجب أن تواجهه، ولأول مرة تتخذ إجراءات نسائية قبل أن تقابل رجلاً، فقد ذهبت إلى فرع سيتي سنتر

الذي تم افتتاحه مؤخراً في شارع الوحدة، الموازي لشارع جمال عبد الناصر الذي تسكن فيه بالشارقة، ابتاعت رداء وغطاء شعر وحذاء وحقيبة جديدة، لكنها لم تغير بها شيئاً من واقعها، حيث غطاء الشعر يأكل منتصف وجهها، وحاجباها مازالا كثين على بكارتهما الطفولية، ووجهها لا يزينه أي أصباغ نسائية، بينما الرداء واسع تتوه فيه تفاصيل جسدها، والحذاء مسطح، والحقيبة لا يمكن وصفها إلا بالكئيبة!

قبل أن تذهب اتصلت بأمل لتحصل منها على بعض النصائح التي يجب أن تتبعها، فلم تنل سوى هذا: "كوني نفسك ولا تتصنعي ما ليس فيك". وقبل أن تنهي أمل كلامها قالت: ما تنسيش تسأليه إن كان متجوز ولا لأ؟!

سميرة: يعني هيكون متجوز ويدور على عروسة ليه؟!

أمل بنبرة واثق: بس اسأليه هتخسري إيه يعني؟!

محمد أبو طالب، مهندس ناجح وينتمي لعائلة كبيرة وثرية في مصر، تزوج مثل أي شاب ينتمي لعائلة مستريحة مادياً في سن مبكرة، عقب تخرجه مباشرة، من حبيبة الجامعة التي أنجب منها طفلاً، وكأي زواج مبكر بين اثنين لا يمتلكان من التجارب ما يكفي، اصطدما بحقيقة كل منهما بعد الزواج، فنشأت الخلافات بينهما، والتي لجأ محمد إلى حلها بالسفر للعمل في الخارج ليبتعد عن المشاكل، وفي نفس الوقت يبقى الزواج مستمراً من أجل مصلحة الطفل. لكنه لم يصرح بتلك الحقيقة! فقد قال إنه حضر إلى دبي لأن فرص النجاح العملي فيها أفضل، ولأنه لم يعد قادراً على الاستمرار في هذه الزيجة التي ستنتهي قريباً بعد تسوية أمر الطفل، ولذلك يبحث عن زوجة أخرى. كان محمد من الذوق والأدب أن تعامل مع سميرة برقي جعلها

تعود وهي منبهرة تماماً بشخصيته، ولا تصدق أن مثل هذا الرجل سيكون من نصيبها، لكن الواقع هو أن محمداً أنهى اللقاء مع سميرة بكياسة لا مثيل لها وصرح بالقليل عن نفسه، في الوقت الذي أكد فيه أن مشكلتها الجسمانية لا تمثل له أي مشكلة، وربما كان صادقاً في هذه الجزئية الخاصة بسميرة، لكنه لم يكن صادقاً في ما يخص شخصها، حيث إنها لم تستطع تقديم نفسها بشكل جيد، فالخجل والصمت هما حليفاها الدائمان، كما أن مظهرها لا يقدم إلى محمد الباحث عن امرأة يعوض بها مشاكله الزوجية أي تعويض يحلم به!

لم يقطع محمد اتصاله بسميرة فور لقائهما الأول، فقد فكر أنه من الذكاء أن يمنح تلك المرأة حقها من الوقت كي تعبر عن نفسها بشكل كافٍ، لكن سميرة كانت تنتظر طلبه بالزواج منها وكيفية الاتصال بأهلها كي يتم تنفيذ الإجراءات، ما جعلها تقرر بعد لقاءين آخرين وعدد من المكالمات التليفونية، لم تحصل منها على ما تعتقد أنه النتيجة الطبيعية للتلاقي عبر موقع للزواج، أنه يتلاعب بها، فأرسلت له رسالة إليكترونية تشرح كيف أنها امرأة شريفة وعفيفة لا تخرج مع رجل إلا بقصد الزواج، وأنها لم تقابله إلا على هذا الأساس، وبالتالي إن لم يتزوجها فهي لا تجد سبباً لمواصلة اللقاء به أو التحدث إليه!

قبل أن ترسل تلك الرسالة استشارت أمل في الموضوع، وكان ردها واضحاً تماماً: إوعي تبعتي الرسالة دي، الرجالة عادة بتتخض من الستات اللي بتطلب الجواز، ده غير إنكم لسه ما عرفتوش بعض فترة كافية، وكمان ما تنسيش إنه لسه متجوز، يعني لا يمكن ياخد قرار الجواز من واحدة تانية إلا بعد ما يخلص من جوازته الأولانية.

سميرة: أمال دخل على موقع جواز يدور على عروسة ليه؟!

أمل: مواقع الجواز بتاعتك دي، من الواضح إن الرجالة بتستخدمها عشان يعرفوا ستات عن طريقها، ويحققوا بيهم أهداف معينة ما لهاش علاقة بالجواز اللي إنتي بتحلمي بيه، وأعتقد هو ده اللي عمله محمد، وأعتقد كمان إنه بيشوف بنات تانيين عن طريق المواقع برضه... مستحيل تكوني إنتي الوحيدة!

سميرة: بس كده يبقى بيلعب!

أمل: أكيد... وإنتي كمان لازم تتعلمي تلعبي... العلاقة بين الراجل والست ما هي إلا لعبة، الشاطر هو اللي يفوز فيها!

بدلاً من أن يثني كلام أمل سميرة عن عزمها على إرسال الرسالة التي جهزتها، أكد لها أنها الخطوة التي يجب أن تقدم عليها كي توضح تماماً أنها ليست امرأة لعوباً، بل محترمة تسلك الطرق الصحيحة، لكنها لم تتلق سوى رد فعل واضح، ألا وهو عدم رد محمد على رسالتها وسد الطريق عليها كي لا يتلقى منها رسائل مستقبلية، وعدم إجابة أي اتصال تليفوني منها!

(١٠)

بأظفارها بدأت في إطلاق صرخاتها نحو العالم، وهي لا تدري سبب رفضه لها، غرزتها بيسراها في ذراعها الساكنة على يمينها، حتى تأوهت من قسوة الألم الذي أحدثته بنفسها لنفسها، كانت تائهة بين قلاع العالم المشرعة في وجهها، لا تعرف أين الطريق الصحيح الذي يجب أن تسلكه كي يقبلها

الكون كامرأة طبيعية بين جميع النساء، هؤلاء النساء اللائي يسرن كل يوم إلى جوارها في المراكز التجارية، وصعوداً وهبوطاً في مصاعد بناية عملها، كل واحدة تسير بجسدها الكامل متحققة في زوج وأطفال يملؤون عليها ربيع عمرها، وسوف يظللون هجير شيخوختها، أما هي فتسير كواحدة أبدية بلا مؤنس لربيعها، ولا ظلال تلوح في الأفق، منتظرة دورها لتؤديه عند حلول الخريف.

جلست سميرة على أريكتها متدثرة بوحدتها، غير عابئة بقطرات الدماء التي سالت على ذراعها من أثر نشب أظفارها فيه، بينما قطرات ملحية المذاق تتسلل من عينيها نحو فمها تلحسها في صمت وتبتلعها في يأس.

اعتقدت سميرة عن إيمان حقيقي أنها فعلاً أحبت محمد أبوطالب، وأنه تخلى عنها بسبب إعاقتها، لم تحاول أبداً أن تفكر لحظة في أمر آخر يكمن وراء تجاهله، وعادت لتتخبط في عماء إعاقتها التي لا ترى غيرها عندما تشعر بأزمة ما، فكل إحباطاتها مرجعها إلى تلك الإعاقة، وكل آلامها سببها نفس الإعاقة. لم تحاول تلك المرة أن تحادث أمل تليفونياً لتخبرها بتطورات الأمر، وكأنها تخاف من سماع "مش قلتلك ما تبعتيش الرسالة دي؟! أهو راح من إيديكي"، كانت داخلها تنكر أي سبب غير إعاقتها وترفض أن تسمع شيئاً آخر، لكن أمل اقتحمت صمتها دون إعداد مسبق، باتصال روتيني تجريه كل أسبوع على الأكثر لتطمئن عليها عندما يختفي أثرها من الأيام. ظهور اسم أمل على شاشة الهاتف جعلها تتردد في أن تجيب، لكن إصرار رنات أمل على غير العادة دفعها إلى أن تجيب في النهاية، وبصوت جاهدت في أن يخرج طبيعياً: ألو... إزيك يا أمل.

أمل: تمام يا قمر.. إنتي إيه أخباراتك؟

سميرة: الحمد لله.

أمل: وأخبار الشيء اللي اسمه محمد أبوطالب إيه؟!

سميرة باستنكار: شيء؟!

أمل: طبعاً شيء! مش خارج من الكمبيوتر؟! يبقى شيء على طول.

سميرة: طيب... أهو حتى الشيء طفش مني!

أمل: أكيد بعتي الرسالة؟!

سميرة: أيوه يا أمل، ومش عايزة أسمع جملة "مش قلتلك ما تبعتيهاش؟!".

أمل ضاحكة: طيب مش هاقولها! بس عموماً مفيش خسارة كبيرة.

كانت الخسارة كبيرة بالنسبة إلى سميرة، فهي لم تنظر باستخفاف إلى شخصية محمد أبوطالب، كما أنها تماماً مثلما أقنعت نفسها، وقعت في غرامه! وكانت تتمنى يائسة أن يتزوجها، حتى وإن كان مازال محتفظاً بزوجته الأولى. ومع قطرات الدم التي أراقتها قرباناً من أجل حبه المستحيل، لم تستطع كبح صراخها في الهاتف: لأ في خسارة كبيرة يا أمل... أنا مش قادرة أتنفس بسبب خسارتي لمحمد... مش قادرة!

المفاجأة كانت جد مدهشة لأمل، فكيف تنظر تلك المجنونة لمجرد رجل عبر بواسطة الإنترنت إلى حياتها لبضعة أسابيع، رأته خلالها مرتين أو ثلاثاً، على أنه خسارة كبيرة؟! رجل متزوج ولديه أطفال ألقاهم وراءه في القاهرة، ويبحث عن امرأة تسليه في غربته، لا يمكن أن يكون خسارة كبيرة لأي امرأة في الكون، حتى لو كانت تلك الزوجة المربوطة ببضعة أطفال

على ذمته. هكذا فكرت أمل بعد أن سبت سميرة التي أغلقت الهاتف بمجرد أن أنهت جملتها الصارخة!

لم تفكر أمل في أن تعرج على منزل سميرة في طريق عودتها من العمل، بعد هذه المكالمة المأساوية، وتمنت لو أن عادل لديه الوقت الذي يسمح لكليهما أن يتقابلا فاتصلت به لكنه لم يجب على اتصالها كعادته، وكعادته أيضاً ليس من المؤكد أنه سيعاود الاتصال بها، بعد أن يرى اسمها بين قائمة المكالمات المهملة. كانت أمل قد وصلت إلى مرحلة الشعور بالعجز مع عادل، فلا هي قادرة على تركه، ولا هي قادرة على أن تجعله شخصاً حيادياً في حياتها بلا ملامح حقيقية وواقع متغلغل في كل شبر منها، فروحها تنشد لقاءه بشدة وجسدها تشقق في انتظار مائه!

ذاكرة أمل التي لا تحتوي على خرائط ذات طرق مستقيمة للرجال، لم تمنحها الفرصة لتفكر للحظة أنه بالفعل مشغول في منصبه الجديد بالجريدة، وأنه مثل أي رجل في العالم يجد نفسه الحقيقية في صراعات العمل وتنافسيته، وتتجسد ذاته وهو يحفر بأظفاره في الصخور ليصل إلى انتصاره في معركة الفوز بالمناصب والنجاح عند اعتلائها، ورغم تنكرها للأنثويات الفارغة كما تردد دوماً، لم تتمكن من أن تفكر بعقلانية لتكسر السرد التاريخي للأنثى وتعترف بأن رجلها لا يهملها، هو فقط يشبع حاجاته بالغاً ذروة نشوته وهو بين ساقي نجاحه.

ملفوفة بدثار الحنق وصلت إلى منزلها، وكارهة لكل تفاصيل ذلك المنزل القابع في غربتها، جلست على أريكتها الوحيدة وأدارت التليفزيون ليلغو بأي شيء دون أن تأبه لنوعيته. لم تشعر بنفسها وهي تلتقط سماعة

الهاتف وتتصل بمنزل والدتها حيث يستقر ابنها... ذلك الذكر المستحيل الذي تعشقه بيأس وتهرب منه بإصرار.

: ألو... إزيك يا ماما؟!

الأم: ياه!... تو ما افتكرتي إن ليكي أم وابن؟!

استيقظت أمل من لاوعيها على جملة أمها التأنيبية، والتي لا تتلقى سواها في كل مرة تخرج فيها عن شعورها وتتصل لا إرادياً بها، أو بابنها لنكون أكثر دقة، لكنها لم تستطع أن تنهي المكالمة واستمرت في ما لابد أن تكمله للنهاية.

أمل: معلش...كنت مشغولة شوية.

الأم: مشغولة عن ابنك وأمك؟!

أمل وهي تجز على أسنانها: مش الفلوس بتوصلكم كل أول شهر؟!

الأم: والله كتر خيرك... لهو إنتي كمان مش عايزة تبعتي لابنك فلوس؟!

أمل وأسنانها تتفتت داخل فمها: طيب ممكن تديهوني أكلمه؟!

الأم: حاضر ولو إني مش عارفة إن كان هيرضى يكلمك ولا لأ؟!

تمر ثواني الانتظار وهي تسمع نداء أمها على ابنها، ورغبة حقيقية تعتريها في أن تقطع الاتصال، لكنها تصبر كارهة إلى أن يصلها صوت خجول على الطرف الآخر: أهلاً أهلاً يا حبيبي... إزيك؟!

الطفل: الحمد لله.

أمل: إنت عارف إنت بتكلم مين؟!

الطفل: أيوه.

أمل بشغف: طيب أنا مين؟!

الطفل: إنتي أمل!

قرصة موجعة عصرت رحمها وهي تسمع اسمها مجرداً من "ماما"، يأتيها من بين شفتي الطفل الذي هو ابنها، ما جعلها تنهي المكالمة سريعاً دون العودة إلى أمها لتطمئن عليها أو تحاول استرضاءها بأي شكل من الأشكال، كانت الإدانة التي توجهها لتلك الأم العاجزة عن فعل أي شيء، في ما عدا حنانها الخانق الذي أغدقته عليها، كسلاح وحيد تواجه به إهاناتها المتكررة على يد أبيها؛ كافية لأن ترفضها ولا تتعامل معها، إلا لأن وديعتها - التي تنكر أيضاً أنها غالية - قابعة بأمر قضائي لديها، بعد أن فشل زوجها السابق في الاستحواذ عليه تماماً، عندما أصرت على مغادرة مصر رغم الأمر القضائي الذي استصدره بمنع الطفل من السفر معها، كي يحكم عليها أيضاً بالسجن تحت رحمته.

نامت أو ظلت متوحدة بين النوم واليقظة، تعتريها رؤىً عصبية تنتهك زواياها التي تُسَكِنها بفعل اعتياد الألم، فكل ما هو مذكر في حياتها مستحيل التحقق، يأتيها دوماً شائهاً بلا ملامح حانية تلطف من هجير الأيام التي تمر بثقل على ظلالها، تلك الظلال التي لم يتبق سواها منها، تعيش بها تاركة أصولها متكومة على أرض ما، لا تدري عنوانها الحقيقي. تتساءل برغبة يائسة عن سبب حظها العسر مع الرجال، ما الذي فعلته كي يكون مصيرها عكراً معهم، بداية من والدها ووصولاً إلى عادل؟! حتى ابنها لا يعترف بها أماً، وهل لطفل صغير أن يلعب لعبة الذكورة الأبدية حتى مع أمه؟!

لم تكن أمل مرتاحة في نومها، تعتريها رغبة حقيقية في أن تنهيه وتنهض لتفعل أي شيء مهما كان تافهاً وبلا معنى، لكنها كانت مقيدة في حبال النوم ولا تستطيع أن تضع له نهاية، تحاول باستماتة أن تدفع جسدها للأمام، لكنه لا يستجيب، فتتسارع أنفاسها وكأنها في عراك مع كوابيسها، التي تأتيها في صورة والدها ضاحكاً بانتصار وكأنه يقول لها: "هذه نتيجة من تحاول أن تكسر القيد، وتتمرد على الناموس المقدس"! كانت ترغب في أن تسأله عن أي ناموس يتحدث؟! لكنها لم تتمكن حتى من تحريك لسانها داخل فمها، كانت عاجزة حقاً عن فعل أي شيء، كل ما فيها مكبل بخيوط غير واضحة، وكأنها ألياف ضوئية تحيط بجميع أطرافها وتعقد حتى لسانها، حتى فوجئت ببرودة ما تتسلل من شعرها نحو وجها وعنقها، وأخيراً استطاعت أن تفتح عينيها، لكنها لم تر سوى والدها أمامها يمسح شعرها بماء، ويكمل نظراته الشامتة، فأخذت تبعد يده عن شعرها وتقول بلسان ثقيل: "إبعد... إبعد... إبعد عني... المعركة بينا لسه ما انتهتش... إبعد"! انساب نحو أذنها صوت عذب تعرفه جيداً، وتدريجياً بدأت الصورة تتضح لها، فعادل هو من كان يبلل شعرها بالماء البارد محاولاً إفاقتها من ذلك النوم المعذب، الذي كانت مسجونة داخله غير قادرة على الفرار.

(١١)

في تمام الساعة الثانية عشرة مساء، تغنى الهاتف المتحرك بالرنة الخاصة بسميرة في منزل أمل، وهي واقفة أمام مرآة الحمام تحاول أن تصلح علامات الزمن، بواحد من أقنعة الوجه التي تعج بها مراكز التجميل في المولات

المنتشرة في أنحاء الإمارات. كان من الممكن أن تتجاهل رنات الهاتف لو لم تكن المكالمة صادرة عن سميرة، خاصة وأن الاتصال يأتي في ساعة متأخرة من الليل، ما قد يعني أن سميرة تنتابها نوبة من نوبات اليأس التي تتملكها منذ انتهاء قصة رمزي التراجيدية، وفشل الصلاة الهستيرية والتردد المجنون على المسجد لصلاة العشاء، وسماع القرآن بصوت الشيخ صاحب الحنجرة الذهبية؛ في أن يشعرها بأي رضا عن نفسها.

أمل: ألو يا سميرة!

أجابت سميرة بهلع: أمل... الحقيني يا أمل... تعاليلي فوراً على مستشفى الزهراء!

أمل وقد انتابها الرعب: في إيه؟!... إيه اللي حصلك؟!

سميرة موضحة الأمر: لأ لأ... أنا كويسة... هالة هي اللي عندها أزمة قلبية، وفي العناية المركزة دلوقت بيحاولوا يعالجوها.

أمل وقد هدأت قليلاً: أزمة قلبية؟!... وفي الساعة المتأخرة دي؟!... أنا قلت مية مرة إن البت دي مش نازلة لي من زور!

سميرة وقد بدأت تبكي: حرام عليكي يا أمل... دي مسكينة وماالهاش غيرنا.

أمل: طيب طيب... أنا جاية فوراً.

كان منزل أمل في شارع الرولة بالشارقة مجاوراً لمستشفى الزهراء، ما جعلها تصل في أقل من عشر دقائق إلى سميرة، التي كانت جالسة بوجه متورم من كثرة البكاء على أحد مقاعد الاستقبال. اتخذت أمل مقعداً مجاوراً لسميرة، وبدون أن تلفظ أي كلمة مدت ذراعيها في هدوء واحتوت

جسدها الضئيل بينهما، لتمسح بإحدى كفيها على رأسها الملفوفة في خمار كابي اللون وتسأل عما حدث.

سميرة من بين دموعها: مش عارفة إيه اللي حصل، لكن من حوالي ساعة اتصلت بيا وقالت لي وهي بتتكلم بصعوبة إلحقيني يا سميرة أنا تحت بيتك بأموت.... طبعاً ما فهمتش هي تقصد إيه بالظبط، لكنها فضلت تقول أنا باموت تحت بيتك إلحقيني... وفجأة سمعت كأنها بتقع على الأرض والتليفون كمان بيقع، وأصوات ناس بتصرخ وبتطلب النجدة! لبست حاجة علي بسرعة ونزلت للشارع، لقيت هالة واقعة جنب باب عربيتها والناس بيحاولوا يفوقوها... طلبت منهم يساعدوني أجيبها للمستشفى، شالوها وحطوها في العربية وسقت لغاية هنا... وبعدين الطوارئ أخدوها وقالولي إنها عندها أزمة قلبية، وإنه كويس إني جبتها بسرعة.

أمل: غريبة!... طيب ولو هي حاسة إنها تعبانة ليه ما اتصلتش بيكي من بيتها عشان تروحي تاخديها للمستشفى؟!

سميرة: من الواضح إنها كانت راجعة من سهرة، لأنها كانت لابسة فستان سواريه... دي لسه متصلة بيا إمبارح عشان أقدم لها أجازة من الشغل النهارده، وقالتلي إن ربنا حقق لها كل اللي بتتمناه!

أمل بضجر: يسيبه... الموضوع ده فيه راجل!... سبحان الله... البت دي هتعيش كئيبة وتموت كئيبة!

سميرة معاتبة: إنتي ليه رأيك فيها وحش كده على طول؟!... على فكرة هالة حد جميل جداً وحنينة أوي.

أمل غير عابئة باللهجة المعاتبة لسميرة: تقصدي حد سهتان جداً!

سميرة يائسة من طيش أمل: طيب إدعي لها ربنا يقومها بالسلامة.

أمل بعدم اكتراث: ربنا يقومها لك بالسلامة!

ظهرت هالة الحناوي في حياة سميرة، عقب انتهاء قصة محمد أبوطالب المبتسرة، كانت مجرد مهندسة أخرى تنضم لطابور المهندسين في شركة "محمود خطاب للمنشآت الحديثة"، تتهادى بجمالها السوري، حاملة حقيبتها اليدوية الكبيرة المعبأة بأشياء كثيرة لا تربطها أي علاقة، وكأنها تستعد كل يوم للرحيل وهي خارجة من منزلها متوجهة إلى المكتب. لم يفت بالطبع جمال هالة الصامت، ونظرة عينيها العميقة نحو الفراغ، على أعين السادة المهندسين الذين تعج بهم الشركة، لكنها وبهدوء شديد لم تعبأ لأي من تلك النظرات، أو حتى الكلمات التي تجرأ بعضهم على التفوه بها في وجهها، معبراً عن انبهاره الشديد بوجهها الذي تحيط به غلالة من الذهب المنساب على جانبيه في بساطة غير متعمدة.

انضمت سميرة إلى جوقة المعجبين بهالة، ولكن من زاوية أخرى! فقد لفت نظرها أن تلك الغادة الحسناء التي تتهادى بكامل طغيانها الأنثوي غير المفتعل، لا تعبأ فعلاً بأي بلبلة تحدثها من حولها دون قصد، فهي دائماً هادئة صامتة، تنظر بعمق نحو شيء مفتقد. ولأول مرة على غير عادتها، بادرت سميرة بالتعرف على هالة بشيء أكثر تفصيلاً عما حدث عند بداية انضمامها إلى العمل، ربما لتتخلص من استئثار أمل بحياتها في الإمارات! فاتجهت نحو مكتبها، وبصوت خفيض يشبه كليهما سألتها إن كانت لديها خطط مسبقة لساعة الغداء، فأجابتها بأن لا، حينها دعتها سميرة إلى تناوله معها في مطعم "أبوشقرة" المجاور للشركة في شارع المكتوم، وأعقبت دعوتها بجملة ترددية: "يعني... محاولة للترحيب بيكي على الطريقة المصرية في

الإمارات"! فأجابتها هالة مبتسمة: "هايدا كرم أخلاق منك... بلكي بإقدر أرحب بيكي عالطريقة السورية شي يوم"! حينها شعرت سميرة بأنها تنجح للمرة الأولى في مبادرة للتعرف على إنسان، حتى ولو كان امرأة، فقالت ضاحكة: "ولا يهمك بكره إعزميني على مطعم عروس دمشق اللي في شارع المرقبات"!

ومنذ تلك اللحظة بدأت علاقة صداقة بين الفتاتين، اللتين تشبهان بعضهما البعض في شيء واحد، لكنه مهم جداً في نفس الوقت، فكلتاهما مكبلة بقيد وهمي يسجنها بعيداً عن الواقع، عن مجادلته، عن مواجهته، عن التمرد عليه وإعلان الحرب لو لزم الأمر! فبرغم أن هالة صحيحة البدن تماماً، ولا تبدو أمام سميرة ينقصها أي شيء في الوجود، إلا أنه بداخلها يكمن العجز، فهي دائماً مكبلة برهبة النازح من الريف الفقير إلى المدينة الضاجة بأضوائها البراقة المخيفة، والتي لم يعرفها يوماً قبل أن يذهب به القدر إليها.

لم تكن هالة التي تتمتع بجمال فتيات محافظة السويداء ورقتهن، تعلم أنها بذكائها الحاد وتفوقها الدراسي، يمكنها أن تحصل على ما تشاء وقتما وأينما شاءت، ورغم التحاقها بكلية الهندسة بجامعة دمشق، إلا أنها دخلت إليها وخرجت منها وهي لا تربطها علاقة بأي طالب أو حتى طالبة، كانت تذهب إلى الكلية لتحضر جميع المحاضرات ثم تعود إلى المدينة الجامعية للطالبات كي تستذكر دروسها وفقط! اللهم إلا أنها كانت تستمتع بالجلوس على سلالم مبنى الكلية الخارجي، وحيدة وصامتة تماماً، لتتفرج على هذا العالم الكبير الذي كانت ترهبه، لكنها في نفس الوقت تود لو أن أحداً استطاع أن ينتشلها من مقعدها ليغرزها داخل هذا العالم بقوة.

على الدرج عاصرت جميع أحداث كليتها، وعليه تمنت أن تحل محل كثير من الفتيات المشهورات فيها، هؤلاء اللائي يحضرن بكامل جبروتهن الأنثوي ويفرضنه على من حولهن، يرتدين ملابس على أحدث صيحة، ويمشطن شعرهن بأبهة الملكات، ولا يعبأن كثيراً بحضور المحاضرات؛ لأنهن متيقنات أن ما فاتهن سوف يأتي خاراً على ركبتيه أسفل أقدامهن، بواسطة طابور الذين يتمنون ولو نظرة واحدة ترسلها إحداهن بغنج تاريخي متوارث!

تمتلك هالة كل ما يمكنها من أن تفرض سيطرتها الأنثوية على جميع الطلاب، وحتى على الأساتذة، لكنها كانت أسيرة فقرها، ذلك الفقر الذي تجرعته قطرة قطرة على أيدي أمها وجدتها المعجونتين بدورهما فيه، منذ أن أدار الزمن وجهه الباسم، وأظهر أنيابه مستعداً لافتراسها في أي لحظة، فظلتا ساكنتين في بقعة منسية تسمى "نمرة" بمدينة "شهبا" الصغيرة، والتي لا تبعد عن دمشق أكثر من ٩٠ كيلومتراً، لكنها تبعد عن أضواء الحياة بصخبها وضجيجها النابض مائة عام! لم يكن بيد هالة أن تنزع حجاب فقرها ويتمها بقرار بسيط منها، فهي التي توفي أبوها في العام الثاني من مولدها، لم تع أن الدنيا لا تستقيم دون هذا الأب، المعيل الوحيد لأم فقدت بصرها وهي تحيك الصبر أمتاراً على نول عمرها المكدود، وزوجة كانت بعدها تحبو في سني مراهقتها، لكنها وكعادة تلك البلاد النائية عن السمع والبصر تزوجت وأنجبت فتاة، على أمل أن يكون مولودها القادم ذكراً ترضي به زوجها وقريتها وعائلتها، وربما كل الدروز في محافظة السويداء! لكن القدر لم يمنحها الوقت الكافي كي ترفع رأسها بإنجاز ذكري، يمنحها اعترافاً رسمياً بأهميتها في الكون، ومات عنها زوجها في واحدة من

الحوادث الاعتباطية في الحياة. كانت بعدها مراهقة لم تنه عامها السابع عشر، لكنها وجدت نفسها وحيدة مع طفلة تعلمت السير على قدميها لتوها، وامرأة عجوز تتخبط في ظلماتها بين جدران بيتهن الذي لا يستوعب خطواتهن إذا ما اتسعت قليلاً!

كان هذا البيت هو مأوى هالة، التي لم تجد عندما بدأت تتعرف على ملامح العالم حولها سوى أمها الضائعة في مواجهة المفاجآت، واكتشفتها في وجه جدتها المعجون في الأخاديد المحفورة بطوله وعرضه، والمدرسة التي دأبت أمها أن تملي عليها بأن هذا المبنى الصغير الذي يتسع بالكاد لأطفال القرية، هو الأمل الوحيد لها في أن تحيا بعيداً عن كل هذه الأرواح العليلة.

عاشت هالة رهينة للمدرسة طوال حياتها، حتى إجازاتها السنوية لم تكن تخرج فيها لتلعب مع أطفال حارتها، تنهي سنة دراسية لتبدأ الأخرى فوراً بعد أن تستعير الكتب الدراسية من فتيات يكبرنها، ولا يعبأن كثيراً بالدرس والمدرسة. تفرح وهي تلمح عيني أمها تشرقان بمشهدها وهي منحنية على الكتاب، وترفع رأسها قليلاً محاولة الوصول إلى طرف واحد من أشعة الشمس، وهي تسمع همس الجيران يشيدون بها ويؤنبون أبناءهم ذكوراً وإناثاً متسائلين لماذا لا يكونون مثل هالة؟!

وهالة التي تسعد بسماع تلك الهمسات، لا تلبث أن تعبس بوجهها ملتقطة بطرف منديلها دمعة تغافلها، وتحاول أن تسحب نفساً عميقاً تغفو معه للحظة، حالمة بنفسها في مكان آخر ومع أناس آخرين، بعيداً عن الكتب والمدرسة وعبء تحملته مرغمة. وعندما مرت الأيام والسنون أضيف إلى حلمها ذكر، بوجه قمحي وملامح كأنها قدت من صوان، وعينين صقريتين تنفذان بنظراتهما مخترقتين كل الحجب.

لم تكن هالة تدري أن هذا الفتى الحلم يمكن له أن يتجسد واقعاً أمامها، إلا عندما كانت تجلس كعادتها على سلالم الكلية، منسية تماماً من جميع المحيطين، وتتفرج على مشهد من الحياة التي تصبو إليها وتعجز عن اقتحامها. كان هو بشعره المجعد الحليق والذي ينبت في آخر جبهة مرفوعة لأعلى. كان هو بأنفه الشامخ، وشفتيه المرسومتين بدقة تلتحم في سيمترية بوجنتيه الصاعدتين في رفعة نحو محجري عينيه الصقريتين، اللتين ينبعث منهما بريق اخترق الطبقات التي دأبت هالة على لف قلبها داخلها، منذ أن أينعت زهرتها بين ساقيها.

كان أحمد غريب مصري من أم سورية، ولد وتربى في دمشق، ولا يعرف عن مصر سوى زيارات معدودة طوال سني عمره، وأبيه الذي منحه جواز سفرها. هذا الطالب الذي يسبقها بعامين في قسم التصميم المعماري، ويعشق الشعر ويحفظ منه الكثير، ليقف في الساحة المقابلة للكلية بطوله الفارع وصدره العريض وأناقته التي تنم عن حال ميسور، يردد قصائد نزار قباني بين آهات الفتيات وحنق الفتيان، ولا يجيب على كل هذا سوى بضحكة تخرج من صدرة كآهة عشق، تصل إلى مسامع هالة التي يلتقط قلبها النداء فتلتفت نحوه، لتبصر بعينيها أن بإمكان الحلم أن يتجسد واقعاً في بعض الأحيان، فهذا الفتى قمحي اللون هو نفسه الذي كان يدثرها بذراعيه في أحلامها، فلم تشعر بنفسها إلا وهي تنهض وتتقدم نحوه في خطى ثابتة واثقة لأول مرة في تاريخها! كانت تعرف تماماً ما الذي ستقوله عندما تديره بكفها في مواجهة عينيها: "أنا هي"، هذا فقط ما كانت تعلم أنها يجب أن تبلغه به، لكنها وهي في منتصف الطريق نحوه تقدمت فتاة بشعر يمرح خلفها في خفة، وتأخذه من ذراعه، ليستدير وينخفض بجذعه

الشامخ نحوها، مانحاً إياها نظرة طاردت هالة في كل سني عمرها اللاحقة، ليس بدافع الغيرة، ولكن فقط خرت متضرعة لله كي يمنحها أحمد نظرة مماثلة يوماً ما! وتعهدت أمام نفسها أنها مهما طال الزمن بها، ستنتظر تلك النظرة وستصلي لأجلها! وعبرت أعوام الدراسة بالكلية، وأحمد لا يعلم شيئاً عنها، فلا هي تنتمي إلى دفعته الدراسية، ولا إلى أي نشاط يشارك فيه، ولا امتلكت يوماً الشجاعة لتقول له: "أنا هنا".

اعتادت هالة أن تحيا الحياة حاملة أحمد داخلها في صمت، تمضي به عبر أيامها، تحادثه وتنصت له، تلتهب بسياط نظرته، وتأوي إلى ذراعيه كل مساء. العجيب أنها لم تتبرم يوماً، أو حتى تبكي لاعنة حظها الخرب الذي منحها حبيباً لا يعلم بوجودها على أرض الله، بل كانت دائماً هائمة على وجهها في تيه حبه، سارحة في معالم وتضاريس جسده الذي عرته بخيالها آلاف المرات، سابحة فوق صدره العريض، مندسة داخل ساقيه تستشعر شعرهما الخشن على جلدها ومحمية بأسوارهما الحصينة.

لم يكن يزعجها بوجوده الدائم معها، فمعه استطاعت أن تذاكر بنفس الدأب القديم ولكن بحب أكثر، ومعه بدأت تدريبها في مكتب أستاذها مأمون طلال الذي لم يخف عليه تميزها الواضح بين قريناتها بل وأقرانها، ومعه أنفقت أول مكافأة تسلمتها من أستاذها على أحد المشاريع المعمارية التي شاركت فيها، واشترت ملابس تنقلها قليلاً من خانة الريف إلى خانة المدينة، اشترتها من أجله، وتمنت أن يراها ولو صدفة وهي تتبختر مرتدية إياها في أروقة الكلية، ولم تنس أن تشتري له هدية، تلك الهدية التي كانت فاتحة معرضها الصغير الذي حملته معها أينما رحلت، ويحمل كل شيء ارتبط

باسمه حتى أعقاب السجائر التي كان يلقيها، وتجمعها بعد أن يغادر المكان، غير مكترثة بالنظرات التي تنغرز في لحمها!

هكذا تشكلت حياة هالة العاطفية، حتى بعد أن اختفى أحمد من أيامها تماماً بتخرجه أولاً، فهجرت مقعدها الأثير على سلالم الكلية، وتوقفت عن الفرجة لتشتبك قليلاً مع الحياة، فقد أتاح اختفاء أحمد الفرصة لها كي تطور من مظهرها تدريجياً، وتتحول بخطوات بطيئة - ولكن واثقة - من مظهر القروية الفقيرة إلى مظهر ابنة المدينة المبهرة، ساعدها على ذلك ثقة أستاذها المتزايدة فيها، وإسناده أعمالاً أكثر تعقيداً في مكتبه لها، وهي بعدها في عامها الدراسي الأخير، فتمكنت من كسب نقود بالنسبة لها كانت كثيرة!

المرة الأولى التي أدرك فيها أحمد أن هناك فتاة على الأرض اسمها هالة الحناوي، عندما انضم إلى مكتب الأستاذ الدكتور مأمون طلال، الراعي الرسمي لها منذ كانت طالبة، وذلك بعد تخرجها بعامين، استطاعت خلالهما أن تستأجر منزلاً صغيراً، استقرت فيه مع أمها وجدتها التي اخترقت حجب الثمانين من عمرها. ورغم أنها كانت تبدو حينها أكثر تطوراً عما قبل، عندما كانت تتعثر في جلبابها الذي شهبت ألوانه داخل ردهات كلية الهندسة، إلا أنها لم تكن تشعر بعد أنها تليق بجلالته.

في ذلك اليوم استدعاها الدكتور مأمون إلى مكتبه، كي يقدم لها المهندس المصري أحمد غريب، الذي يشارك من خلال مكتب والده الهندسي مكتبهم في مشروع سياحي استثماري مشترك بين مصر وسوريا في مدينة الغردقة، ولأول مرة تستمع هالة إلى أحمد وهو يتحدث المصرية،

فيضفي على سحره سحراً يجعله إمبراطوراً على مملكتي سوريا ومصر الخالدتين!

هالة: إنت بتحكي مصري؟!

حينها نظر إليها الدكتور مأمون مستغرباً، وقال: ما قلتلك قبل إنه مصري يا هالة؟!

هالة متداركة: نعم دكتور نعم... بس أنا باعرف إن المهندس أحمد بيحكي سوري منيح... نحنا كنا زملا بالكلية.

ينظر إليها أحمد وقد حول لهجته إلى السورية: إنتي بتعرفيني من الكلية؟!... غريب! وليش ما اتقابلنا قبل هيك؟!

هالة تداري قرعات نبض قلبها، التي تكاد تخرق قفصها الصدري: إنت ما بتعرفني... بس أنا باعرفك منيح... يمكن لأننا مش دفعة واحدة... إنت بتكبرني بسنتين.

أحمد: ولو!... ما كنا بالجامعة أصحاب من كل الكليات والسنوات الدراسية؟!

هالة تخفي بلبلتها بنظرة منخفضة نحو أرضية الحجرة: معلش يمكن لأني كنت خجولة.

أحمد وقد لاحظ نظرتها المنخفضة: كنتي خجولة؟!... وهلا شو صرت؟!

ربما لأن الدكتور مأمون شعر أن الاجتماع تحول إلى مغازلة متبادلة بين هالة وأحمد، تدخل قائلاً: عظيم عظيم... هلا بعد ما طلعتوا بتعرفوا بعض منيح...

يقاطعه أحمد مصححاً: ما باعرفها منيح يا دكتور!... هايدي أول مرة بالتقي فيها.

الدكتور: ما علينا!... بإقصد إن اتعارفتوا بشكل جيد... وطلعت كمان بتعرف نصفك السوري... يعني الشغل بيناتكم راح يمشي على أكمل وجه انشا الله.

وهنا تنبهت هالة إلى أن هناك عملاً سيجمع بينها وبين أحمد، فقالت متفاجئة: شغل؟!

فنظر إليها دكتور مأمون، وكأنه يقول لها إنه كشف مشاعرها تجاه أحمد: وعـشو أنا جايبك على ها الاجتماع؟!

لم تكتمل فرحة هالة بكشف ستارها، والإعلان عن وجودها أمام أحمد، فما إن بدآ العمل معاً، حتى أبلغها أنه على وشك خطبة ندى المصري زميلته بالجامعة، فتذكرتها بشعرها الفرح وملامحها الفرنسية، وتخيلت أنها بالتأكيد تليق به أكثر منها، فهي ابنة لأب وأم يعملان كأستاذين بالجامعة، وتربت طوال عمرها في أرقى أحياء دمشق، بينما تمضي عطلاتها الصيفية كل عام مع عائلتها على شواطئ أوروبا. وهكذا استمر العمل يجمع بينهما عاماً كاملاً، إلى أن انتهى المشروع وعاد أحمد إلى القاهرة مع والده ووالدته، اللذين نقلا إقامتهما إلى القاهرة بعد أن حول والده أعماله إلى هناك.

ورغم أنهما تبادلا أرقام الهواتف، إلا أنها لم تجرؤ على محادثته ولو مرة واحدة لأكثر من ست سنوات، حتى انتقلت إلى العمل في دبي بفرصة أتت لها عن طريق محمود خطاب نفسه، الذي لاحظ تميزها في زيارة له إلى دمشق لبحث إمكانية عمل مشروعات مشتركة بينه وبين شركة مأمون طلال. لم تفكر هالة في العرض المقدم لها مرتين، ورغم أن أمها بكت عندما تخيلت

الحياة دونها، إلا أنها رأت أن هذه الفرصة ستكون الضربة القاضية لفقرهن، والذي لم تشعر أبداً أنه انتهى حتى بعد أن عملت هالة وبدأت تحقق مكاسب مادية جيدة في دمشق. ورحلت مكللة بأدعية والدتها، لكنها لم تنس قبل أن تصعد إلى الطائرة أن تشتري باقة ورد حمراء اللون، وتضعها على الطاولة التي جمعتها وأحمد في أحد مطاعم حي المزة قبل أن يغادر إلى القاهرة، وبرومانسية صعب العثور عليها سوى في الأفلام الهندية، همست إلى الطاولة قائلة: "ما تنسي تعطيه الورد لما يرجع"!

(١٢)

واظبت سميرة على زيارة هالة يومياً في المستشفى، حتى صرح لها الطبيب بالمغادرة بعد أن استقرت حالتها، لكنه شدد على عدم تعرضها إلى أي مواقف عاطفية مؤثرة، أو بذل أي مجهود كبير قد يتسبب بتكرار الأزمة ما قد يودي بحياتها تلك المرة، فالفقيرة هالة تعاني من خلل في الشريان التاجي دون أن تعي، وقد يكون ذلك الخلل صديقاً حميماً منذ صغرها، لكن الفقر ومكوثها في منزلها دون حراك طوال سني حياتها، لم يسمحا له بأن يقدم نفسه إليها بطريقة مناسبة، أو ربما يحمل هذا الصديق مواصفات تشبهها، ويفضل الصمت على أن يفصح عن وجوده على الأرض!

كان هناك ما يخبر داخل سميرة بأن الأمر يتعدى مجرد مشاكل في القلب، كما ورد على لسان الطبيب، فما الذي دفع بذلك الشريان كي يعلن عن خلله الآن وهالة تخطو نحو الرابعة والثلاثين من عمرها؟! وما الذي

أبقاه صامتاً حيال ضعفه كل تلك السنين الماضية؟! لابد وأن يكون هناك محرك له. هكذا كانت سميرة تؤمن داخلها، ولم تكن تدري إن كان من المناسب لحالتها أن تتحدث عن هذا الدافع الآن.

في غرفتها داخل المستشفى كانت هالة تستعد للرحيل، عندما وجدت سميرة ماثلة أمامها بوجه مبتسم، ولكن مع علامة استفهام كبيرة مرسومة عليه بوضوح. قابلت الابتسامة بمثلها، وقالت بعد أن تنهدت: راح أخبرك بكل شي، بس خلينا نروح من ها المكان قبل.

سميرة: تخبريني بإيه؟! أنا لسه ما فتحتش بقي!

هالة: من دون ما تفتحيه، وجهك بيحكي يا سميرة عن كل شي بداخلك.

سميرة مبتسمة: للدرجة دي أنا مفضوحة؟!

هالة: لا... لهاي الدرجة إنتي نقية وواضحة!

مضت الفتاتان من المستشفى متوجهتين نحو منزل سميرة، بعد أن أصرت على أن تمكث هالة لديها لمدة أسبوع على الأقل حتى تطمئن إلى أنها أصبحت في حالة صحية آمنة، وبعد أن أعدت سميرة الطعام لكلتيهما، جلستا ناظرتين لبعضهما البعض في صمت، قطعته هالة قائلة: بتتذكري لما قلتلك إني سعيدة جداً، وإن الإيام بدأت تضحك إلي وتعطيني يا اللي بدي إياه؟!

سميرة: أيوه!

هالة: يبدو إن الإيام كانت بتتضحك علي... بتخدعني... بتمد إلي يد بالورود واليد التانية ورا ظهرها حاملة خنجر!

سميرة مقطبة جبينها في مرارة: ليه بتقولي كده يا هالة؟!

هالة: راح أحكيلك.

بعد مرور عام على وجود هالة في الإمارات، وهي في إحدى رحلاتها التسوقية داخل ميجا مول في الشارقة، توقفت أنفاسها عندما وقعت عيناها على وجه أحمد من وراء أحد الأرفف العارضة داخل محل "زارا". وقعت القطعة التي كانت تعاينها على الأرض، وظلت واقفة كالتمثال، عيناها مثبتتان على وجه أحمد الذي كان مشغولاً بانتقاء إحدى القطع. بعد ما يقارب الدقيقة، وبينما أحمد يستعد للانتقال إلى رف آخر، اندفعت هاتفة باسمه وبصوت قلما تصدره أحبالها الصوتية، التفت أحمد نحو الصوت متسائلاً عن مصدره، فبرزت أمامه العينان العاشقتان، اللتان من الصعب إخطاؤهما، فهناك فرق شاسع بين من اكتحلت عيناه بالعشق، ومن كان لديه عينان عاشقتان فعلاً! أصاب مشهد هالة أحمد بالتوتر وليس بالمفاجأة، فقد كانت مختلفة تماماً عن آخر مرة رآها فيها بدمشق، وربما تكون تلك المرة الأولى التي يراها فيها جميلة... لا... بل ساحرة.

خطا أحمد بثقته المعهودة نحو هالة، تلك البائسة التي تسمرت مكانها لا تفعل سوى النظر إليه غير مصدقة، يداعب عقلها ألف خاطر، فها هو يأتيها بعد نأي، ترسله إليها السماوات، وتؤكد لها أن السر سيبقى قائماً في القلب مادام حفظته، وأن البعد لا يولد جفاء ما دام قلبها يانعاً بتفتحه الدائم له.

صاحبت خطوات أحمد إليها ابتسامة رائقة، اخترقت سائل عينيها واستكانت في الذاكرة، وعندما وصل إليها التقط يدها المعلقة في الهواء بعد أن سقطت منها قطعة الملابس، ورفعها نحو فمه مقبلاً إياها، ثم تساءل

بتعجب عن سبب وجودها في الإمارات!... احتاجت هالة إلى وقت ليس بالقليل كي تجيبه على سؤاله، فأن تجمع شتات نفسها الهائمة في تيه عشقه، وتعود إلى قناعها الزائف الذي يردد كببغاء غبي "نحن زملاء فقط... أنا لا أحبك... يمكن أن نكون أصدقاء... فقط فقط فقط"! لم يكن بالأمر السهل، حتى إن أحمد نظر إليها متعجباً وسألها: مالك يا هالة؟ ولا إنتي مش هالة... ولا إيه بالظبط؟! وعندما طال الصمت خرجت روحه السورية على لسانه، وسألها ضاحكاً: هالة... شو بكي؟!

حينها ابتسمت وقالت كأنها تتنهد: أحمد... شو جابك لهون؟!

أحمد: الله أكبر... أخيراً نطقتي.

هالة: ما ترجع تحكي مصري... أنا باعرفك سوري.

أحمد: خلاص يا ستي... ما راح إحكي مصري!... المهم... ما جاوبتي... شو جابك عالإمارات؟!

هالة: أنا باشتغل هون من سنة في شركة محمود خطاب... وإنت قِلي!

أحمد: أبداً... والدي فتح فرع لشركتنا بدبي مع شريك إماراتي، وأنا اللي بادير المكتب.

هالة: رجعت تحكي مصري!

أحمد ضاحكاً: إذا كانت ندى نفسها بقت بتحكي مصري... أنا ما راح إحكي؟!

هالة مصرة: بس أنا باعرفك سوري!

أحمد وقد علت ضحكته: خلصت الشوبنج تبعك؟!

هالة ناظرة نحو قطعة الملابس المستريحة على الأرض: إيه... خلصت!

أحمد: إيش رأيك نشرب قهوة سوا؟! مثل ما تعودنا بالشام... فاكرة؟!

هالة: طبعاً... ما بإقدر إنسى أبداً...كانت أيام حلوة كتير.

أحمد: فعلاً... (ناظراً نحوها بذكورية تامة)... بس خبريني... إنتي شو صار معك؟!

هالة: عشو؟!

أحمد: أبداً... بس إحلويتي كتير!

هالة وقد ضخ قلبها دماء جسدها كله نحو وجهها: خجلتني!

أحمد ضاحكاً: خلاص خلاص أنا آسف!

لم يكن ذلك اللقاء الصدفة هو الأول بين لقاءات قليلة فاترة بينهما، بل كان اللقاء الأول بين لقاءات متعددة استمرت لمدة ثلاثة أعوام، توطدت خلالها علاقتهما، ولكن كأصدقاء، فأحمد الذي يشعر بالوحدة في الإمارات رغم وجود زوجته معه، لم يشعر بالأنس سوى مع هالة، تلك التي رضيت بما قسمه الله لها، واستكانت لكونها على الأقل حظيت بقربه ولو كصديق، كانت تنصت لهمومه العديدة من مشاكل العمل إلى مشاكل المنزل، فكما صرح أحمد لها لم يكن سعيداً تماماً مع ندى، التي أظهرت منذ بداية زواجهما اهتماماً خالصاً بنفسها، حتى إنها قررت ألا تعمل واكتفت بدور الزوجة المدللة والمتمتعة بثروة زوجها، هذا عدا عجزها عن إنجاب طفل، ظل والد أحمد يحلم به كي يكتمل حلمه بوارث لوارثه، ورغم تأكيد أحمد أنه لا يأبه كثيراً لموضوع الأطفال، إلا أنه كان يشدد على أنه لا يوجد في غيره الأمل كي ينقذ زواجهما، ولم ينقطع طوال الأعوام الثلاثة عن ترديد رغبته في

تطليق ندى، بينما هالة تثنيه كقديسة بتول عن الأمر، وتطالبه بألا يفعل ذلك بها حتى لا تهان في كينونتها كامرأة، حيث لن تفسر سبب انفصاله عنها سوى لكونها عاجزة عن الإنجاب.

لم تتأخر هالة عن أحمد لحظة واحدة، حتى عندما كان يتصل بها في منتصف الليل طالباً رؤيتها، تهرع إليه ويظلان سائرين في إحدى الحدائق أو على كورنيش بحيرة خالد، ليوصلها إلى منزلها في الخامسة صباحاً، فلا تنعم بأي قسط من النوم متوجهة نحو عملها بعد ساعتين.

هكذا سارت علاقتهما، وهكذا لم تتأفف هالة يوماً أو تعترض، أو حتى تطالب بينها وبين نفسها بالمزيد، كانت تنكر حتى ما تسمعه منه ويؤكد بأنه يبادلها العشق، فقد كانت تجاوره على أحد المقاعد المقابلة لبحيرة خالد ذات يوم، بينما ران الصمت على المكان وأحمد يطرق برأسه نحو الأرض ويهمس: مش عارف ليه حاسس إني هاموت وأنا معاكي.

لم تصدق هالة ما تناهى إلى مسامعها حينها فسألته: شو قلت؟!

أحمد: أبداً... ما قلت شي!

في يوم آخر أصر بعد أن أوصلها إلى منزلها على أن يسير معها حتى بوابة البناية؛ لأن الوقت كان متأخراً كثيراً، سارا شبه ملتصقين في صمت، وعندما وصلا إلى البوابة وضوء مصابيح الشارع يضيء الممر الفاصل بين بنايتها والمجاورة لها في خفوت، ظلا واقفين أمام بعضهما البعض لبرهة، بينما يداهما اليمنى متشابكتان في سلام يفضح حباً مصموتاً عنه، قررت هالة أن تقطع تلك اللحظة المهيبة، فنظرت إليه وقبل أن تقفز دموعها خارج مقلتيها قالت: "سلام"، ثم استدارت مرتبكة وبخطى متوترة نحو بوابة

بنايتها، وقبل أن تغيب داخل مدخل البناية التفتت خلفها، ففوجئت به مازال واقفاً في مكانه، كفاه داخل جيبي بنطاله وعيناه تغمرانها بالحب.

كثير من المواقف المشابهة مرت عليهما، لكنها دائماً ما كانت تكذب عينيها وأذنيها وجميع حواسها، وتؤكد لنفسها أنه لا يراها ولا يعرف منها سوى الصديقة التي يلتفت دائماً ليجدها في جميع الأوقات، تستقبله بدفء، وتمتص غضبه، وتمسح حزنه بمحارمها المبللة بدموع عشقها الأخرس، بينما هو غارق في عالمه الذي لا يحتويها سوى في الهامش، ذلك الهامش الذي حصلت عليه بعد لأي.

اختفى أحمد لما يقارب نصف العام بعد لقاء بدا فيه مضطرباً وحزيناً، ولأول مرة لم يفصح عن السبب. بعدها لم يتصل بها، ولم يجب على أي من اتصالاتها، ولأن هالة معتادة اختفاءه بالسنين، لم يوجعها الغياب، فهي لا تحتاج إليه كي تمضي في حبها، وربما تكون هي أكثر من عبر عن بيت محيي الدين بن عربي الذي قال فيه:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وإيماني!

ذات يوم، وبالتحديد في السابع عشر من أغسطس العام ٢٠٠٥، استيقظت هالة على صوت منبه هاتفها المحمول، وباعتيادية شديدة تناولته بعينين مازالتا نائمتين من على الكمود المجاور لفراشها لتصمته، ثم فتحته كي تبدأ يومها. أطلت رسالة على شاشة الهاتف، ففكرت أنها لابد أن تكون إحدى الرسائل التجارية التي ترسلها الشركات لترويج أحد المنتجات، لكن ولفضول اعتراها للحظة قررت أن تلقي نظرة عليها... فكانت المفاجأة التي شلتها على مدار ساعتين لم تنهض خلالهما من فوق فراشها؛ الرسالة من أحمد ويقول فيها:

معلش يا روح روحي

أنا مقصر كتير معاكي

يمكن لو الدنيا دي زي الجنة كان الطبيعي إنك في حضني على طول

بحبك يا هالة

بامنع نفسي عنك وبامنعك عني

إنتي الوحيدة اللي مش عايز أجرحك

بحبك

أخذت هالة تغلق الرسالة، لتعود وتفتحها من جديد، تتأكد من المرسل ثم تغلقها وتفتحها وتتأكد من المرسل، وتغلقها وتفتحها وتتأكد من المرسل! حتى شعرت أنها ستجن... ألقت بالهاتف على الفراش، ونهضت مطأطئة الرأس، لا تدري ما الذي يجب عليها أن تفعله، هل تتصل به؟! أم تجيب على الرسالة؟! وبماذا ستجيب؟! ماذا ستقول؟! لقد مرت ستة عشر عاماً عليها، منذ أن وقعت عيناها عليه لأول مرة في الكلية، وهي بعدها في عامها الدراسي الأول، ستة عشر عاماً وقد أودعت نفسها في سجن عشقه السماوي، ستة عشر عاماً تفيض روح جسدها أنهاراً في مجاريه، ستة عشر عاماً كانت الثانية التي تجمعها به تعادل حياتها وزيادة، ستة عشر عاماً يراودها الأمل في أن يبادلها الحب ثم يراوغها ويخبو. كيف يمكن لها أن تختصر ستة عشر عاماً في رسالة قصيرة ترسلها عبر الهاتف؟! كيف يمكن أن ينوب عنها هذا الجهاز الصغير، ويحمل إليه نداء قلبها القلق بين ضلوعها سنين طوالاً؟! كيف يمكنه أن يخبره بأنها لطالما أيقنت أنه خليلها الأبدي، حتى قبل أن يولد زمانها بزمان، وأنهما ولابد كانا عاشقين في زمن

غابر ولى واندثر، وأنهما لفرط عشقهما عادا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يعيدا سرد اتحاد روحيهما الذي لم يقدر الموت أن يفصم عراه؟!

قررت في النهاية أن ترسل سؤالاً واحداً: أحمد... ماذا قلت؟!

كتبت الرسالة على باب منزلها، ثم أغلقت الباب خلفها، وعلقت قلبها بهاتفها، مودعة إياهما بحرص داخل حقيبة يدها! ثم نزلت إلى سيارتها متوجهة نحو عملها، وأذنها مربوطة بالهاتف، تتخيل بين لحظة وأخرى صوت رنينه، حتى استجاب الهاتف لندائها أخيراً وزغرد بالرنين المخصص لرقم أحمد، التقطت الهاتف وقلبها يصم أذنيها بضجيجه، ثم قالت: أحمد؟!

أحمد بصوت متوتر وخجول: هالة... أنا آسف... مش عارف أقولك إيه؟!... بس أنا كنت سكران طينة إمبارح وبعتلك الرسالة اللي وصلتك.

هالة وهي متشبثة بآخر خيط لأمل، يكمن في آخر نقطة داخل روحها: بس أنا سمعت إن الإنسان بيحكي الحقيقة وهو سكران... إنت شو حكيت؟

أحمد: أنا حكيتلك الحقيقة... بس ما بعرف إن كنت راح تتقبليها.

هالة وقد فاضت روحها أخيراً بمكمونها: راح اتقبلها؟!... أنا منتظرة هاي اللحظة من سنين... أنا هاي حقيقتي من ستة عشر سِني يا أحمد!

اختفى أحمد لمدة شهر بعد تلك المكالمة، لم تجرؤ على أن تحاول الاتصال به خلاله، خائفة ربما من أن ينكر ما حدث، وربما أيقنت داخلها أنه لم يحدث أصلاً، لولا تلك الرسالة التي احتفظت بها على جهازها المحمول، تمحو كل

ما تتلقاه من رسائل لتظل هي الوحيدة لديها، تقرأها مراراً وتكراراً، ولا تمل أبداً من ترديد كلماتها:

معلش يا روح روحي

أنا مقصر كتير معاكي

يمكن لو الدنيا دي زي الجنة كان الطبيعي إنك في حضني على طول

بحبك يا هالة

بامنع نفسي عنك وبامنعك عني

إنتي الوحيدة اللي مش عايز أجرحك

بحبك.

حفظت الكلمات، ترددها حتى وهاتفها مطفأ، تنام وهي تبتسم تحتضن الكلمات بين شفتيها، دون أن تحاول مرة واحدة أن تفك رموزها، فتلك الرسالة التي كتبها أحمد وهو أسير سكره، أفصح خلالها بما كان يجب عليها أن تلتفت إليه، فأحمد يمر بأزمة كانت الوحيدة وربما الأخيرة، قبل أن يختفي لشهور، التي لم يبلغها بها ولم يطلب منها أن تعينه عليها. أحمد الذي لم ينعم طوال سني زواجه التي تخطت العشرة بطفل، كان في قرارة نفسه يرجوه يائساً، حتى تعود إليه حبيبته الأزلية منذ الجامعة ويكون اللحمة بينهما، بعد أن ضاعت زوجته بين تفاهات الأمور، تبحث عما يشغلها في غياب مستقبل عملي ظنت أنه سيشغلها عن زوجها وأطفالها الذين لم يتحققوا واقعاً أبداً.

أخيراً يستجيب القدر لصلاته الصامتة، وتحمل ندى في ذلك الطفل المشتهى، لكنها وبعد شهر واحد من بدء حملها تدخل في نفق موجع، تتردد

في صداه جملة واحدة "ستفقدين الطفل، وتفقدين الرحم الذي قد يحمل بديله يوماً"؛ فندى التي تركت سوريا وأهلها مصطحبة أحمد وعائلته في رحلة عودتهم إلى مصر، اكتشف الأطباء أنها مصابة بورم على الرحم، وكي يكتشفوا كنهه عليها أن تسقط حملها أولاً، فإن كان خبيثاً سيكون الحل الطبي الوحيد أن تستأصل الرحم. لم يكن القرار سهلاً عليها ولا على أحمد، أو أي من أفراد عائلتيهما، وبعد فحص وتدقيق طبي طويل قرر الأطباء أن تمضي ندى قدماً في حملها، حتى أوائل الشهر السابع من الحمل، ليتم توليدها قيصرياً، ثم يبدأوا في اتخاذ الإجراءات والتدابير الأخرى لعلاجها من ذلك الورم.

وهكذا ابتعد أحمد ستة أشهر كاملة عن هالة، ولم يعده سوى اكتشاف الأطباء لكينونة الورم الذي أعلن عن خبثه، فاضطر إلى أن يرسل زوجته وابنه المبتسر إلى القاهرة حتى تتلقى علاجها هناك، بينما علق وحده في الإمارات، حيث لم يكن من السهل أن يترك شركته أو حتى يصفيها في ذلك الوقت الضيق. في منتصف تيهه العظيم، رفرفت هالة بجناحيها فوق رأسه، فتذكرها وهو جالس في بار الماي تاي بفندق الكراون بلازا، الواقع في شارع الشيخ زايد بدبي، وعلى مرأى المغنية اللاتينية التي كانت تتلوى على واحدة من نغمات الكاريبي، أرسل تلك الرسالة التي لم يكن يعي جيداً مشاعره المختلطة وهو يكتبها ويرسلها إلى الجميلة النائمة!

كل ذلك كان غائباً عن هالة، والمشكوك فيه أنها ربما لو علمته لن تتخذ موقفاً مضاداً من أحمد، أو حتى تلومه بينها وبين نفسها! فقد كانت ضائعة تماماً في ذلك الوهم الذي سجنت نفسها فيه طويلاً، ورفضت من أجله رجالاً كثيرين يتبعون طائفتها الدرزية، والتي يقول واقع الأمر إنها

عليها أن تتزوج واحداً منها في نهاية المطاف، لكنها عاشت تنكر كل واقع حولها وتنتظر المستحيل، بداخلها يقين أن أحمد مهما أبعدته المسافات وأخذته المدن، سيعود وسيكون لها في النهاية تماماً مثل الأفلام المصرية القديمة، التي تعلمت من أمها إدمان مشاهدتها ألف مرة ومرة دون ملل!

كعادتها جلست تتلقى العلامات وتتبعها، فهي مؤمنة بأن الله يرسل للمرء علامات إذا سار على هديها يصل إلى ما يريد، أو يصل إلى قدره المحتوم، والذي كانت تقرر أنه أحمد دون مناقشة أو إعادة نظر، حتى وصلتها علامة آمنت بقوتها، وبأنها دليل على أن أحمد سيعاود الاتصال بها، وسيعود إلى حضنها الذي يحرم نفسه منه، ففي طريقها إلى العمل تسربت إلى أذنها عبر المذياع أغنية أعلن المذيع أنها الأغنية الرائعة الجديدة للمطربة المصرية شيرين عبد الوهاب. لم يكن الأمر مبهراً بالنسبة إليها، فتلك المطربة لم تكن المفضلة لديها يوماً، بل كانت تشعر بمعاناة في تقبل أغانيها التي تهدد فيها وتتوعد الحبيب! لكن هذه المرة انسالت داخل أذنيها كلمات، لم تكن تتخيل أن يكتبها أحد ليعبر عن حالها وحدها دون باقي بنات الأرض... أو هكذا كانت تعتقد!

حبيته بيني وبين نفسي
وما قلتلوش عـ اللي في نفسي
ما أعرفش إيه بيحصلي لما باشوف عينيه
ما بقتش عارفة أقوله إيه
ما أعرفش ليه خبيت عليه
باضعف قوي وأنا جنبه وباسلم عليه

كل حب الدنيا ديه في قلبي ليك
ده إنت أغلى الناس عليا روحي فيك
ده أنت لو قدام عينيه أشتاق إليك
على بالي ولا إنت داري باللي جرالي
والليالي سنين طويلة سبتهالي
يا انشغالي بكل كلمة قلتهالي
الكلام لو كان يعبر عـ الحنان
كنت قلت إني بحبك من زمان
كل يوم الشوق بيكبر عليا بان

أطاحت الأغنية بعقل هالة، وبعد أن صدحت المطربة الشهيرة بجملتها الأخيرة، دخلت موسيقى الأخبار مباغتة لوعيها، خبطت بكلتا كفيها على عجلة القيادة صارخة: "لا... لا... عيديها... عيديها"، وعندما لم تستجب شيرين لطلب هالة الملح! امتدت كفها بعصبية نحو زر الإغلاق، لتحتسي خمرها مع أحمد وحدهما، ولتتمادى في وهم تمزيق جميع الحجب الفاصلة بينهما، لتكشف نور العشق الذي يجمعهما، وتبصر وجودهما في جلاء بعد أن تهتك كل الأستار التي تباعدهما.

بعد أن وصلت إلى مقر عملها، وتمكنت من ركن سيارتها، انزلقت بنعومة فراشة من مقعد سيارتها لتغلقها وهي منفصلة تماماً عن كل ما حولها، بينما قررت داخلها أن تُعلم أحمد كيف يبصر نور عشقها، ويجتاز محنته في إبعاد نفسه عنها. ورغم أنها لم تفكر في كيفية عمل ذلك، إلا أنها

تمادت في عصر أعنابها خمراً سكبته في روحه، وأيقنت أنه حان الوقت الذي تنبثق فيه بجلال عشقها، لتثبت بأقدام صلبة على أرض معشوقها الأزلي.

أحياناً تتوافق الأحداث مع قناعاتنا الداخلية، فنمعن في الإيمان بأوهام نصر على أن نفرضها على الواقع، حتى لو تطلب الأمر لي عنقه، أو بمعنى أصح لي أعناقنا نحن! في هذا اليوم توافق أحمد مع ما تنبأت به المطربة شيرين لهالة، واتصل بها في تمام الساعة الثالثة عصراً...

أحمد: هالة...كيفك؟!

هالة وجناحاها مفرودان على آخر حدود السحاب: أنا منيحة... وإنت؟!

أحمد بصوت قلق: منيح... إممم...

هالة دافعة بالكلام كي يخرج من فمه: شو؟!... شو بدك تقول أحمد؟!

أحمد: ما شي... بس...

هالة: شو هايدا؟! إنت عم تخجل مني؟!

أحمد ضاحكاً بوهن: أنا آسف... انشغلت كتير ما رجعت حكيت معك بعد آخر مرة.

هالة: ولا يهمك... المهم إنك تكون بخير.

أحمد: إنتي شو عندك اليوم بعد الشغل؟

هالة: ما شي... ما شي بنوب!

أحمد: خلاص... ممكن نتقابل؟

هالة: طبعاً... يا عيب الشوم... لسه بعدك عم تسأل... إنت تؤمر أمر!

أحمد باستكانة: الله يخليكي يا هالة.

هالة: طيب؟!

أحمد: إذا ممكن ... مري علي خديني لأن سيارتي مش معي... شوي ما حابب أسوق ها اليومين.

هالة: ياللي بدك اياه.... عـ راسي.

أحمد ضاحكاً: شو هايدا؟!

هالة: عم حاول أدللك!

أحمد بأسى: أنا فعلاً محتاج لتدليل ها اليومين.

هالة: وأنا بِدللك... ما تحمل هم!

مرت هالة على أحمد بعد انتهاء يوم العمل كما اتفقا، وعندما استراح إلى جوارها بجسده المهيب، داخلها إحساس بأنه ينكمش على المقعد بطريقة لم تعهدها فيه من قبل، لكنها لم ترغب في أن تفسد لحظتها بالسؤال عما يعتريه من ألم، وإنما قررت أن تعينه بنورها كي يجتاز محنته التي لا تعلم تفاصيلها... قالت: ممكن نمر على ديرة سيتي سنتر قبل لا نروح.

أحمد: يا ريت... وبالمرة ناكل... أنا جوعان جداً.

في ديرة سيتي سنتر، وجهت هالة المسير نحو "فيرجن ميجا ستور"، ومنه إلى الرف الذي يحمل الألبومات العربية الحديثة. أشرق وجهها عندما وقع ناظراها على ألبوم شيرين الجديد، وسحبت منه نسختين، حملتهما بحرص وسلمتهما للبائعة الفلبينية المبتسمة دوماً على صندوق الحسابات،

ثم حملت الحقيبة البلاستيكية التي تحويها، وكأنها تحمل وديعتها الأغلى في الكون، وعادت من فورها إلى أحمد الذي كان يتأمل شاشات "إل سي دي" التي تعرض آخر أفلام هوليوود داخل المحل.

التفت أحمد نحو مقدمها متسائلاً: خلاص؟!

هالة: خلاص!

أحمد: تعالي ناكل بقى.

لا يمكن أن نقول إن لقاء أحمد بهالة حينها، قد حقق أي نقطة من نقاط التوقعات المتراصة أمام عينيها، منذ أن سمعت نبوءة شيرين عبد الوهاب، أو فلنسمها العلامة كما تعتقد هي! فوجه أحمد الفاتر لم يكن دليلاً حاذقاً لشواطئها، ما أفقدها القدرة على الإمساك بزمام الأمور، مثلما أعلنت لنفسها سابقاً، كما أنه لم يعد إلى فتح موضوع الرسالة وهذا ما كانت تنتظره بشدة، حتى تمسك آخر الخيط وتوصله بخيطها، لتستقر وإياه في النهاية داخل البقعة المضيئة بقلبها، وتجلسه على عرشه المحفوظ باسمه منذ الأزل. يائسة استمرت في دفعه نحو نقطة الرسالة، فتحدثت كثيراً عن نفسها وهي صغيرة تجلس على أريكتها الأثيرة، والتي تطل على كوة النور في آخر الجدار المقابل بمنزلها البسيط في "نمرة"، وكيف حلمت بشخص يحمل ملامح تشبهه، وكيف أنها قررت ألا تحب إلا من يحمل هذه الملامح، وكيف أنها لم تكن يوماً مثل باقي قريناتها تُحب وتُحَب، حيث أبقت على عهدها وذلك الحبيب الذي رأته في منامها، وكان رؤيا آمنت بتحققها يوماً.

لم يدفع كل هذا الكلام أحمد إلى موضوع الرسالة، على العكس فقد قال لها ببساطة: وليه السجن اللي إنتي سجنتي نفسك فيه ده؟! معقولة ما دخلتيش في علاقة حب حقيقية لغاية دلوقت يا هالة؟!

أنهى كلاهما الطعام، أو بمعنى أصح أنهى أحمد طعامه، بينما تعللت هالة بوجع في معدتها مفاجئ، ثم نهضا ليستأنفا طريقهما نحو الشارقة حيث تقع شقتاهما، وفي الطريق ظلت هالة ساهمة في صمت، لكنها وبيأس حقيقي أخرجت نسخته من ألبوم شيرين وسلمته إياها، طالبة منه أن يستمع إلى أغنية "على بالي"؛ لأنها تحكي قصتها هي شخصياً، فتناول أحمد النسخة محرجاً لا يدري ما الذي يمكن أن يقوله في هذا الموقف، وربما داخله صرخ مستنكراً أن تقوم فتاة تجاوزت الثلاثين من العمر بمثل هذه التصرفات المراهقة!

عند منزله توقفت هالة، وشكرته على تلك اللحظات التي أمضتها معه، لكن أحمد فاجأها بطلبه أن تصعد معه ليمضيا وقتاً أطول في منزله، فسألته: ندى بتعرف إنك معي؟!

أحمد: ندى مش هون؟

هالة: أمال وين؟!

أحمد: في مصر... هايدي حكاية طويلة بعدين أحكيها إلك!

هالة جزعة: طلقتها يا أحمد؟!

أحمد نافياً الأمر باستهجان: لأ... لأ طبعاً!

هالة: أمال شو؟!

أحمد: ندى في مصر بتتعالج.

ثم تابع كلامه فوراً متعمداً عدم الخوض في موضوع ندى: هالة... أنا مش عارف أقولك إيه بالظبط بخصوصنا... بس اللي أنا متأكد منه دلوقت

إني محتاجلك... محتاج تاخديني في حضنك... محتاج أنام في حضنك يا هالة!

منذ سنين طويلة، وهي تستعد للحظة تجمعها وأحمد تنقشع فيها الغيوم التي تحجبهما عن بعضهما البعض، تتدرب من أجل اللحظة التي تفرش رداءها على مائه، وتسبح في رائحة جسده حتى تمتلئ بها وترتوي شفتاها من رضابه، تحلم باللحظة التي تتجرد فيها من أستار الدنيا وتنكشف بجميعها أمامه... لكنها لم تكن أبداً شبيهة بتلك اللحظة التي تعيشها واقعاً الآن!

لم تدر ماذا تقول، لكن لسانها انطلق دون إرادتها قائلاً:

ليس لي عنك ما حببت براحٌ

أنت مني مُمكَنٌ في الفؤادِ

تنهد أحمد مخرجاً كتلة هواء كانت تعبئ صدره في انتظار جوابها، وقال: رابعة العدوية؟!

هالة: إيه!

أحمد: بس دي قالتها لربنا!

هالة: أدري... لكن أنا بأقولها إلك!

أحمد: ما تصعبيهاش يا هالة أرجوكي... أنا مش ناقص!

هالة: إنت بتعرف أنا كام مرة قبلتك في شفتيك؟! كم مرة لعبت بأظافري في شعر صدرك؟!...كم مرة دغدغت أذنك بطرف أسناني؟!... كم مرة اتغنجت عليك ولبستلك أحلى تيابي؟!... وكم مرة نمت معك وعملنا أحلى جنس بالدنيا؟!

لم يكن لدى أحمد جواب، لكنه وضع كفه على جبهته وفاض بما لديه: هالة... ندى في مصر معاها ابني اللي ما لحقتش أشوفه غير يومين اتنين... سافرت مصر عشان تتعالج من ورم خبيث على الرحم ظهر بعد أول شهر من حملها.

كان سقوطها ناعماً لكنه مؤلم، تتهادى على النسمات التي تأخذها بإشفاق كي تسقطها على الأرض، وبمجرد أن لامست بطرف ثوبها التراب رفعت جفنيها اللذين أغلقا على الحقيقة التي سمعتها لتوها، ثم قالت: من شان هيك غبت شهور طويلة؟!

أحمد: أيوه.

هالة بيأس حقيقي: أحمد... أنا مني بحاجة إلك حتى أحبك... كمان أنا معتادة على غيابك... خليني أفكر شوي قبل ما أقرر شو راح أسوي معك بالضبط!

من المحتمل أن يكون أحمد قد أصيب بخيبة أمل في تلك الليلة، لكن خيبة الأمل هنا لا تعني أنه فقد الأمل في استجابة امرأة يعشقها له، بل يعني أنه لم يحصل على ما يريد في تلك الليلة بالتحديد! وحتى لا نظلمه كثيراً فهو حرفياً كان في احتياج شديد إلى هالة، صديقته التي يكن لها كل الحب، والتي اختلطت عليه مشاعره نحوها وهو يترنح بين حوائط أزمته السميكة.

لم تستطع هالة أن تتوقف عن التفكير طوال يومين، بذلت خلالهما جهداً جهيداً كي تمتنع عن الاتصال به، وإخباره بأنها ستكون بين ذراعيه قبل أن تمر خمس عشرة دقيقة. كانت بالفعل ترغب في ذلك، لكنها لم تتمكن أن تتجاهل جبل الأحلام والمشاهد والصور التي خنقت أيامها بها، لم تستطع أن تتخلى عن مشهدها الأثير وهي واقفة بين أزهار اللوز المشعة

بضوئها الأبيض المائل إلى الزهري، والتي تكسو جبال السويداء مع أول بزوغ لفجر الربيع، بينما أحمد يأتي إليها مهيباً كعادته، يرتدي قميصه اللاكوست الأسود وبنطاله الجينز الرانجلر، تماماً مثلما اعتاد أيام الكلية، يبتسم بطرف شفتيه، وجفناه ينسدلان كمخمل ليسترا شعاع عينيه، الذي يفرط في إضاءة الكون من حوله، فيرعش جسدها ليهزج بأناشيد طالما رددها باطنها منتشياً، لكنه هذه المرة يحمل في يده الأقحوان وشقائق النعمان والورد الجوري الذي يكسو بلادها في الربيع، وعندما يقترب منها بخطوه الواثق العنيد، ينثر الأزهار أسفل قدميها، ثم ينظر إليها بكل ما في عينيه من نظر ويقول: "أحبك وأريدك"، ومع الكلمة الثانية تتطاير أطراف ردائها الشيفون، فتغطي كل أزهار اللوز من حولها!

لم يكن من السهل أن تتجاهل هالة هذا المشهد، ولا مشهد لقائهما الجنسي الأول أيضاً، حيث تتوسط صالة منزل خال من أي أثاث، تفرش رداءها التل المتلألئ بالألماس والزمرد والياقوت، وتحيط بها شموع تشكل قلباً كبيراً. تجلس في خفر فتيات الحكايات القديمة، وتختلس النظر نحوه مجتهدة في مداراة خجلها الذي يكاد يفجر قلبها بين ضلوعها، وأحمد داخل حلته السوداء يتقدم نحوها، تطل من عينيه رغبة أبدية حان وقت إرضائها، يقتحم الشموع ويحملها بين ذراعيه، بينما تنسدل أطراف الرداء المرصع، ليسحب في أذياله كل ثواني الانتظار الموجع ويبددها على الفراش.

لكنها ومع هذين المشهدين، وكثير من المشاهد الأخرى التي تجوب فيها جسده لتحتويه داخلها للأبد، كانت ترغب فعلاً في أن تشم رائحة جسده الحقيقية، تملأ أنفها منها، وتتجرد من أستار الدنيا أسفله وفوقه وبين ثناياه. لم تكن قادرة على النأي لأي سبب يائسة تماماً، في سبيل النظر إليه

بدون حجب لا يفصلها عنه سوى بضع ملليمترات، تنظره بعينيها بعد سنين طويلة من النظر عبر مرآة قلبها، وتسدد سهم عينيها إلى أوصاله.

هكذا كان حالها بين الخوف من التصرف بتهور؛ فتفقده إلى الأبد، وبين الرغبة في شفاء علتها المزمنة، والتي لم تعد تصبر على آلامها أكثر من ذلك. يومان مرا تحدثت إلى نفسها كثيراً وربما إليه، كانت تتساءل إن كان يدرك أن اكتمال ذكورته لن يتحقق إلا بالاتحاد مع أنوثتها؟! وإن كان يدرك أن كل ما يجري حوله دونها مجرد عبث؟! تردد أن مشاعرها نحوه بسيطة بقدر بساطة كلمة "أحبك"، ثم تصرخ بصوت مجروح: "لماذا يقف العالم كله إذن أمام اعترافه لي بها؟!". كالمجنونة تدور على عقبيها، وتسأل جنيات العشق: "هل لو قلت له أحبك سيخلف عالمه وراءه ويأتي إلي؟!"، لكنها بعد قليل تدرك أن الإجابة محددة ولا شك فيها... "لديه الكثير ليفعله دونها"!

نسيت أو ربما تناست أن أحمد بالتأكيد يعلم الآن أنها تعشقه منذ الأزل، وأنه لم يأت بأي رد فعل واحد سوى أنه يريد فقط أن ينام في حضنها الآن، ولم تتذكر أن تسأل السؤال المنطقي الوحيد: "وماذا بعد الآن؟". تقف مشعثة على فراشها الذي يتوسط حجرة نومها المظلمة، شفتاها تنشدان الاتحاد بشفتيه، ذراعاها معلقتان في الهواء في انتظار جسده كي يغمرها، وعيناها زائغتان بحثاً عنه لتستقر عند حدوده، تغمغم: "قال تعالي... فهل أذهب؟!... وهل لو ذهبت سيبقى؟! أحبه وأريده... لكني أخاف أن يسيل من بين أصابعي ولا يبقى لي حتى الحلم".

ربما أشرقت الشمس وهي بعدها واقفة على فراشها تهذي، وربما خارت قواها وفقدت وعيها نائمة حتى الصباح، لكن الأكيد أنها نهضت في

ميعادها المعتاد لتستعد كي تذهب إلى العمل، وكما عهدها جميع زملائها كانت أول من وصل إلى مقره!

"لا يوجد الحب الكامل بين اثنين، إلا حين يخاطب كل منهما الآخر بقوله: يا أنا"، هكذا قال السري السقطي المتصوف الإسلامي، الذي لابد وحتماً كان يقصد تماهي ذاته في ذات الإله، لكننا هنا، وكما اعتادت هالة استخدام أشعار المتصوفة لتناجي بها أحمد، نسأل السؤال: هل كان أحمد يرى في هالة أناه؟! من الصعب أن نحصل على نعم كإجابة، لأن أحمد وببساطة شديدة كان مجرد رجل عادي آخر، أحب في الجامعة وتزوج محبوبته لتصبح زوجته الحبيبة، التي لا يرجو سوى أن يعيش معها حياة عادية أخرى، لطالما عاشها ملايين الرجال وملايين النساء عبر العصور والأزمنة، لم يكن يحلم أو يتمنى مغامرة عشق، وربما لو تعسر عليه أمر الوصول إلى محبوبته لتركها لائماً الدهر وتألم قليلاً، ثم بدأ البحث عن محبوبة أخرى يسهل الزواج بها، وإن لم يعثر سيستعين بوالدته لتجلب له عروساً من ذويها، يتزوجها راضياً ليتماهى تدريجياً مع قوانينها المنزلية الجديدة، التي سيحتاج معها إلى بعض الوقت كي يعدل من نظامه الذي اعتاده بين ذراعي أمه.

قد تكون تلك هي حقيقة أحمد والتي لا يمكن إدانته بسببها، بل بإمكاننا التجرؤ وإدانة القدر؛ لأنه لم يحقق لهذا المسكين المسار الطبيعي لكل زوجين على الأرض، واختار له الحرمان من الأطفال ستين طويلة أمضاها مذعناً له! يمكننا أيضاً أن نتعاطف مع زوجته التي أغرقت نفسها في مشهيات صناعية، تبعدها عن التفكير في حلم أي امرأة متزوجة، أن يكون لديها أطفال تعيش معهم أمومتها التي تشتهيها كل امرأة في الكون. الحلم

بسيط جداً ولا يحتاج إلى تفلسف أو تأمل أو تفكير في ما وراء الحجب، فكل رجل وامرأة يتزوجان، سواء عن حب أو كما يقولون زواج صالونات، يكون إنجازهما التالي هو الطفل، فإن لم يأت بالطرق الطبيعية المعتادة، يكون شغلهما الشاغل هو اللهث وراء كل طريقة ممكنة لتحقيق ذلك الإنجاز المدهش... طفل.

لقد صمد أحمد وندى صموداً قوياً من أجل هذا الحلم حتى تحقق، لكن تصاريف القدر عبثت بحلمهما مرة أخرى، ووضعتهما أمام تحدٍ جديد، كان من الطبيعي أن يترنح أحمد أمامه ويتعثر في كل شيء يقابله، وكانت هالة هي من تعثر فيها، ولحظها العسر لم يكن أحمد مجرد رجل متزوج آخر، يرغب في الهروب من مشاكل الزوجية بالمرح قليلاً خارج الدار، مع فتاة ثلاثينية تقترب من حدود العنوسة، ووصلت للمرحلة التي ترجو فيها الله أن يرسل لها رجلاً، أي رجل! بعد أن أضاعت عشرياتها تنتظر فتى الأحلام الهلامي. نعم لم يكن أحمد مجرد رجل بالنسبة لهالة، بل كان هو الرجل الذي أضاعت في انتظاره كل الرجال!

عندما ذكرت أن هالة وصلت إلى عملها في الوقت المحدد دون تأخير، لم أكن أعني سوى أن جسدها تحرك تلقائياً وفقاً لساعتها البيولوجية إلى العمل، لكن روحها ظلت قابعة على فراشها تعبث بأزرار هاتفها المحمول، تكتب رسائل إلى أحمد وتمحوها في محاولة للبحث عن الكلمات المناسبة التي يجب أن ترسلها إليه، خوفاً من أن يطول انتظاره لها ويختفي للأبد.

أعلم جيداً النهاية

لن تختلف كثيراً عما هو متعارف عليه

لكني أحتاج إلى ذكرى تبقى منك

أحتاج إليك على أرضي ولو قليلاً

بعدها... تبقى أو تدخل بوابة التاريخ

لا يهم

لربما ارتحت معك إلى النهاية

أو ربما ارتحت منك إلى النهاية!

هل هذه هي الكلمات التي يجب أن ترسلها إليه فعلاً؟! كان السؤال وكانت الإجابة بأن محت ما كتبته، ثم عادت وكتبت:

هل تأتي إذا ناديتك؟!

يبدو أنك ستأتي فعلاً!

لكن

هل ستبقى؟!

هذا هو سؤال اليوم في تاريخ حبي لك.

وللمرة الثانية بعد أن كتبت هذه الكلمات على شاشة هاتفها، عادت ومحتها... ما الذي يجب عليها أن تكتبه؟!... كانت في منتصف اجتماع يوزع فيه رئيس القسم المهام على المهندسين، بخصوص مشروع جديد وقعت عليه الشركة لصالح حكومة دبي، لم يكن المشروع بالبسيط ولم يكن الاجتماع بالعادي، لكن هالة لم تكن تتابع بجدية ما يحدث خلاله، حتى لكزتها سميرة التي تجاورها على طاولة الاجتماعات كي تلفت نظرها إلى ما يجري حولها، وحتى لا تضيع فرصتها في أن تغنم جزءاً مهماً في المشروع، يظهر براعتها ويمنحها وجوداً أكبر في الشركة، لكنها لم تأت سوى برد فعل

واحد، ألا وهو الاستئذان والنهوض لإجراء مكالمة تليفونية مهمة، ثم سحبت نفسها إلى الخارج وسط دهشة الجميع وحنق سميرة، التي كانت تلاحظ هيام هالة على وجهها في الفترة الأخيرة.

خارج غرفة الاجتماعات، اتصلت هالة بأحمد الذي أجابها من فوره، معلناً سعادته باتصالها وإن كان صوته يشوبه الارتباك، لكنها لم تسمح له بقول أي شيء آخر، وبادرته برغبتها في رؤيته بعد انتهاء العمل، فلم يجد سوى سؤالها بنبرة منخفضة متهدجة عن المكان، ففاجأته بأنها ستمر عليه لاصطحابه إلى منزلها.

من أين أتت هالة بتلك الشجاعة؟! من الصعب تحديد مصدرها، لكننا من الممكن أن نتكهن بأنها كانت كمن علم لتوه أن أيامه في الدنيا معدودة، فقرر أن يصلي صلاة أخيرة يستطيع بعدها أن يواجه ربه ببعض من جرأة تقويه على المطالبة بالجنة الأبدية!

في تمام الساعة السادسة مساءً، كانت هالة تركن سيارتها أسفل منزل أحمد، اتصلت به فأجابها سائلاً إياها أن تصعد؛ لأنه لم ينته بعد من ارتداء ملابسه، وعندما أخبرته أنها تفضل انتظاره في السيارة ضحك وقال: إنتي خايفة تطلعي ولا إيه؟!

صعدت وداخلها يرقص، وإن كان بأقدام مرتعشة، وعندما ضغطت زر جرس بابه، تمنت لو كانت تمتلك مفتاحاً لبابه الموصد في وجهها. انفتح الباب وطل منه أحمد، يفوح منه عطر فهرنهايت الذي يهمس بذكورة أدية من الصعب على امرأة مقاومتها، ثم مد يمناه ساحباً إياها إلى الداخل، وبمجرد أن أوصد الباب، أخذها كعصفور مبتل بين ذراعيه، وداخلها يرجوه أن يكون عادلاً في عشقه، وأن يمنحها محبة لا تنفد...

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل

فلست أرى قلبي بغيرك يصلح

همست بشعر متصوفيها، فابتسم وأبعدها قليلاً لينظر إلى وجهها الذي أغرب نحو اليسار، وعيناها تنطقان بطفولة مراهقة تهوى لأول مرة، فقال: برضو شعر متصوفة؟!

هالة: إنت بعدك بتحب الشعر... مو هيك؟!

أحمد مبتسماً: هيك!... بس عارفة... أنا ما كنت متخيل أديش إنتي طفلة؟!

قادها نحو غرفة الصالون، وأجلسها بيديه على إحدى الأرائك، فسألته إن كان انتهى من ارتداء ملابسه فأجابها: عـ شو إنتي مستعجلة؟!

هالة: أبداً... تا نلحق نروح على بيتي.

أحمد: من شان شو نلحق نروح على بيتك؟!... مو من شان نكون مع بعضنا؟!

هالة: إيه طبعاً!

أحمد: طب وشو نحنا عم بنسوي هلا؟!

هالة ناهضة وعلى وجهها جملة اعتراضية طويلة: أحمد... نحنا اتفقنا إن السهرة عندي مو عندك!

أحمد متماشياً مع هواها كطفل عنيد: أكيد أكيد... بس خلينا نقعد شوي مع بعضنا هون... الوقت قدامنا طويل... تحبي تاكلي شي؟!

هالة: لا... ما بدي.

أحمد: طب على الأقل تشربي شي... قومي ياللا نعمل شاي.

نهضت معه تتشابك أيديهما، على طريقة الأب الذي يجرجر خلفه ابنته المدللة، وما أن وطئت بقدمها أرض المطبخ، حتى تسللت إلى أنفها رائحة ندى التي تملأ المكان، كيف تصف الأكواب وتعلق المغارف وتضع لعبة خزفية على شكل دب يرتدي مريلة مطبخ مكتوباً عليها **I love you**، تكهنت بأنها ولابد تعبر بها عن حبها لمن تطبخ له، بينما القفازات التي تمسك بها الأواني الساخنة معلقة بجانب الموقد الغازي، تحمل آثار لسعات على أطرافها، وتحكي قصة الصواني والطواجن التي تفننت فيها، كي تشبع أحمد وتدخل إلى قلبه السعادة والدفء! وقفت ساهمة لا تحرك ساكناً، ما لفت نظر أحمد فالتفت إليها قائلاً: مالك؟!... إنتي مكسوفة ولا إيه؟! ثم مد يده إليها جاذباً إياها إلى جواره، حيث يقف أمام واحدة من خزانات المطبخ، يخرج منها الكثير من الصناديق التي تحوي أصنافاً مختلفة من الشاي المطعم بمذاقات مختلفة، إضافة إلى الأعشاب المنعشة الأخرى، وقال: ها يا ستي تشربي إيه بقى؟ إيرل جراي ولا **English breakfast tea**، ولا شاي ليمون ولا شاي ياسمين ولا تحبي تشربي بابونج أو يانسون أو...

قاطعته متسائلة: شو هايدا... إنت قلت إننا هنشرب شاي... وما كنت عارفة إنك صاحب مزاج عالي في شرب الشاي وغيره!

طلت ابتسامة باهتة على وجهه، وقال وكأنه يرى ندى أمامه: أنا؟! لا أبداً... هايدي ندى... هي اللي بتحب تشرب الشاي بمذاقات مختلفة... ثم نظر إليها متابعاً: فكرت إنك ممكن تكوني متلها.

ربما لم يقصد أحمد أن يجرحها، لكنه فعل وكأنه يصرخ في وجهها أن: ماذا تفعلين هنا أيتها الغريبة؟! هذا مطبخ حبيبتي الذي يحيا بأنفاسها حتى وهي غائبة. لم تدر هالة ما الذي يمكن أن تفعله، فقط ظلت واقفة لبعض

ثوان ساهمة لا تمتلك كلاماً مناسباً كي تتفوه به، تدور بعقلها ألف علامة استفهام، تحاول أن تجيب عليها في التو واللحظة، كي تبرر لنفسها سبب وجودها في هذا المكان، والأهم سبب وجودها مع هذا الشخص الواقف أمامها الآن، هل هو ذلك الحبيب الذي تنتظره منذ ستة عشر عاماً أم إنسان آخر تنكر في زيه وجاء ليخدعها؟! فحبيبها لها وحدها، حبيبها سيخلف العالم وراءه ليأتيها ويحملها إلى أبعد مكان ممكن، حيث تغيب كل الوجوه ولا يبقى إلا وجهاهما... هكذا غمغمت داخلها فطال صمتها، ما دفع أحمد لأن يقول: هووووه... إنتي رحتي فين؟!

تداركت الأمر فقالت مبتسمة: "راح إشرب شاي أحمر عادي... **English breakfast tea**"، ثم غادرت المطبخ لتعود إلى الصالون وتجلس على نفس المقعد، الذي وضعها عليه أحمد منذ قليل، لكن أحمد لم يتركها لتلتقط أنفاسها المبعثرة حولها، وقال بصوت مرتفع قليلاً: أووووه... إنتي هربت؟! شكلك ما إلك في المطبخ. كانت ترغب في أن تنهض لتصرخ في وجهه، إن الأمر لا يتعدى حدود صنع قدح من الشاي، لم يعد إعداده يحتاج إلى أكثر من وضع الماء في الغلاية الكهربائية، ثم الضغط على زر تشغيلها لسكب الماء المغلي بعد ذلك في أكواب تحتوي أكياس الشاي المعلقة بها، ما الذي يعنيه قدح الشاي أكثر من ذلك؟! وعندما لم تجب على فكاهته التي ألقاها وهو منهمك في صنع المشروب العملاق، أتاها حاملاً الصينية التي يستقر عليها قدحا الشاي موضع الاختبار، تعتلي وجهه ابتسامة هدت تلة انفعالها التي تصاعدت كبديل للشعور بالغيرة، وبمجرد أن أراح الصينية على الطاولة الصغيرة التي تتوسط الصالون، جلس على الأرض أمامها، ثم اعتذر من هالة مؤكداً تفضيله الجلوس على الأرض في

مقابل الأرائك. ابتسمت وعدلت من ثيابها ربما ظناً منها أنها تأثرت سلباً بانفعالها الذي لم يدم كثيراً، ثم مدت كفيها لالتقاط كوب الشاي خاصتها، ورفعته إلى فمها لترشف قليلاً منه قبل أن تقول مداعبة: واو... الهيئة إنت طباخ ماهر!

هنا غرق أحمد في الضحك قائلاً: هايدي شو؟!... مجاملة ولا تريأة؟!

بابتسامة شقية: احسبها متل ما بدك!

لم يكن الحديث الذي دار بينهما أثناء احتساء الشاي، ليحسب على الحب... همساته... تأوهاته أو تنهده، بل كان مجرد حديث قد يدور بين أي اثنين، لكنها استمتعت به حقاً، فانطلقت في ضحكاتها الشفيفة، تتقافز بين أزهار حكايتها التي قد تكون حكتها له من قبل، لكنها لم تشعر بغضاضة في أن تعيد ما قالت، ربما لأنها أحست أنها لأول مرة تجلس إليه، حيث لا أحد بينهما، ولا ضجيج يجلبه المارة أو الجالسون حولهما. مرت اللحظات عليهما سريعاً، أو هكذا هيئ لها، حتى نظرت في ساعتها فوجدتها تقترب من التاسعة والنصف مساء، وأدركت أن مشروعها على وشك الانهيار، فقاطعته قائلة: الساعة تسعة ونص... متى راح نذهب إلى بيتي؟!

فأجابها متعجباً: ليش مو نحنا جالسين مع بعضنا هون مثل ما راح نجلس مع بعضنا هونيك؟!

هالة بيأس: إيه ... بس... عندي يمكن يختلف شوي!

أحمد: في شو؟!

هالة: في إنه بيتي!

أحمد: وهايدا بيتي... شو الفرق؟!... إنتي ما عجبك البيت؟!

هالة: بلى... بس... مو عارفة كيف أشرحلك... بيتي هو بيتي اللي ما دخله إنسان قبل هيك... لكن بيتك... !!!...

لم يفهم ما تقصده، فنهض من مجلسه وجذبها نحو ذراعيه عاصراً إياها داخله، وقال: هالة أنا محتاجلك أوي.

هالة: وأنا بعد محتاجة إلك... بس محتاجة إلك لآخر العمر.

أحمد: آخر العمر!... ومين يعرف إمتى ينتهي العمر؟!

ختم جملته الكونية، وحملها من خصرها ثم بدأ يسير نحو باب الصالون، لم تكن قادرة على السيطرة فسألت بحيرة: "على وين آخدني؟!"، لم يجب واستمر في سيره الوئيد نحو الباب، فلم تجد سوى أن فردت ذراعيها وثبتت كفيها على الإفريز الخشبي محاولة منعه من المرور، لكنه لم يستغرق أكثر من ثانية كي يهزم محاولتها، فبدأت في التلوي بين ذراعيه وإن كان بدلال، معيدة سؤالها: "أحمد... على وين إنت آخدني؟!"، فأجابها أخيراً: "على مكان نكون فيه مرتاحين أكتر"! "لأ... ما هيك أنا بدي... أنا ما بدي هيك يا أحمد"! "بس أنا بدي إياكي... أنا محتاج إلك... أرجوكي ما تتمنعي"! "أن ما بتمنع... أنا ..."، ووجدت نفسها داخل غرفة نوم ندى، تحيط بها تأوهات عشقها وأحلامها الليلية وعطرها الذي يسكن جميع الجوانب والأركان، والفراش الذي أراحها أحمد عليه، ساكباً جسده كله فوقها.

لم تكن تمتلك إرادة تمكنها من الاعتراض، بينما أحمد يعتليها ووجهه لا يفصله عن وجهها بضع ملليمترات، تشمه كما لم تفعل من قبل، وتستقبل أنفاسه على صفحة وجهها تماماً مثلما ظلت تحلم بدأب طوال سنين طويلة... تشعر بحرارة جسده عليها رغم الملابس التي تحول دون

التصاقهما، ويوخزها سراجه المشتعل في فخذها وخزاً لذيذاً لم تعلمه طوال عمرها قط! فقدت كل ما لديها من عزم أمام شفتيه المتراقصتين على خديها وعنقها، ثم ماتت أي محاولة اعتراض عندما احتضن شفتيها داخلهما في قبلة مبللة تطفئ لهيباً، لطالما انفجر داخلها ولم تملك حيال إطفائه شيئاً! لأول مرة في تاريخ عشقها... ها هي ذي ترشف من كأسه، وتكنس عتمتها بنور عينيه اللتين تنفتحان بين الفينة والأخرى، بحثاً عن أرض لم يطأها بشفتيه، لم تدر بنفسها وهي تبادله العشق بشبق، لم تكن تعلمه في نفسها من قبل، فأطلقت لمحبتها العنان كي تقطر في كأسه عذوبتها التي صانتها من أجله، وما أن شعر أحمد باستجابتها حتى أخذ يحررها من ملابسها قطعة قطعة، بيدين تعرفان طريقهما جيداً، إلى أن توهجت لؤلؤة تبرق في فراشه، فما استطاع أن يكبح جماح سفينه أكثر من ذلك! نهض على ركبتيه، وأخذ يفك حزام بنطاله وهو يقول: "إنتي حلوة أوي كده من زمان"؟!

ربما لو لم ينهض أحمد عنها تلك اللحظة، التي لم تتخط الثانية، ما كانت هالة قد استردت وعيها أبداً، فما أن نهض عنها أحمد حتى أبصرت بعينين شبه غائمتين ملامح الغرفة، وأدركت أنها تحصل على عشقها الأزلي لأول مرة، ولكن على فراش امرأة أخرى. اعتدلت في الفراش كالملسوعة، مشيرة بكفها لأحمد أن يتوقف عن نزع بنطاله، وعندما لم يفهم تماماً ما الذي تعنيه قالت: لأ... لأ... ما تنزع عنك البنطلون.

أحمد وكأنها أسقطته من سبع سماوات على أرض صلبة: ليش؟!... شو فيه؟!

هالة ودمعتان تبحثان عن طريقهما خارج عينيها: هايدا مو فراشي... هادي منا غرفتي... مو هون لازم نكون مع بعض!

أفاق أحمد على الحقيقة، التي كان يحاول الهرب منها طوال الأيام الماضية، فظل ثابتاً على ركبتيه لا يتحرك، بينما تهدلت ذراعاه إلى جواره، وما لبث أن استدار بجسده كي يتمدد على الفراش إلى جوار هالة، التي وضعت كفيها على وجهها محاولة إخفاء معالم الغرفة. بعد صمت طويل دخن خلاله أحمد ما يقارب ثلاث سيجارات، بينما ارتدت هي ملابسها، نهض وطلب منها أن تصحبه إلى الخارج، ففعلت دون أن تنبس بأي كلمة، وعندما عادا إلى مجلسهما السابق قال أحمد: إنتي فوقتيني.

هالة ببراءة: عـ شو؟!

ابتسم أحمد لها في حزن وقال: ولا حاجة... بس إنتي ليه عنيدة زي الأطفال... أنا مش فاهم إنتي ليه عملتي كده؟!

هالة: لأني ما حلمت بإن ليلتنا الأولى تكون هيك!

أحمد: ليلتنا الأولى؟!

هالة: وشو عاد بتسمي اللي صار بينا قبل شوي؟!

مبتسماً بمرارة: تدريب... بس تدريب مؤلم شوية!

خيبة الأمل هي أبسط ما يمكن أن نصف به مشاعر هالة في تلك اللحظة، فقد تملكها الشعور بأنها على وشك فقد حلمها الوحيد، اختلط عليها الأمر، ولم تدر ما الذي يجب أن تفعله كي تنقذ الموقف...كي تنقذ حبها الأبدي من أن ينتهي قبل حتى أن يبدأ. أخذت تردد كلاماً هي نفسها لم تكن تنصت إليه جيداً، تنسج خيوطاً لمبررات لا تفهمها، وتغمغم بصلوات وأدعية علَّ الله ينصت ويستجيب في التو واللحظة، لكن الموقف ظل متأزماً، فهي منكمشة على المقعد، وأحمد يفترش الأرض مستنداً

بذراعيه على الطاولة، معقباً السيجارة بأخرى ومعبئاً الفراغ بالدخان، الذي لم تكن مشاعر هالة في حاجة إليه كي تتأزم أكثر مما هي عليه!

لم يكن أمامها سوى أن تنسحب في صمت، وبمجرد أن أفصحت عن رغبتها في المغادرة، قال أحمد: أنا آسف إن كنت ضايقتك!

لم تجب، فقط تناولت حقيبة يدها المستريحة إلى جوارها على الأريكة، ونهضت وكأنها تتسلل في العتمة هرباً من كارثة قد تقع إذا ما انتظرت أكثر. تبعها أحمد بخطو متراخ، وقبل أن تفتح الباب أخذها بين ذراعيه حاضناً إياها، ولكن تلك المرة لم يفصح حضنه عن رغبة، بل عن امتنان حقيقي لصديق وقف معه في شدته، ثم همس في أذنها: "أنا آسف... سامحيني"! لم تعرف ما هي الجملة المناسبة التي عليها النطق بها في هذا الموقف، فآثرت الصمت، وسحبت جسدها من بين ذراعيه، وبخيبة خرجت عن المسميات المتعارف عليها، مدت ذراعها لتدير قبضة الباب، الذي انفتح مصدراً ضجيجاً لم تلحظه عند مقدمها... تخيلت أن باب ندى يلقيها إلى الشارع كشيء زائد لا رغبة فيه داخل هذا البيت. سارت محنية الظهر تدور في رأسها الطواحين، حتى إنها نسيت تماماً ما هي قضيتها الحقيقية، وما الذي أتى بها إلى ذلك المكان، وتساءلت أين أحمد؟! ولماذا لم يأت إليها كما اتفقا صباحاً؟!... عندما وصلت إلى سيارتها مديرة إياها نحو الشارع، التقطت هاتفها المحمول من حقيبتها، وطلبت رقمه، وبمجرد أن جاءها صوته من الطرف الآخر انطلقت قائلة: نتقابل بكرة في بيتي الساعة تسعة؟!

كانت المكالمة جد غرائبية بالنسبة لأحمد، لكنه أجابها وكأنه يأخذ مجنوناً على مقدار عقله! وإن كان بتوجس حقيقي ملأ قلبه: أكيد!

هالة: إنت بتعرف بيتي وين... مو هيك؟!

أحمد: أكيد هالة... أكيد.

هالة: يعني راح تجي... مو متل اليوم؟!

أحمد: نعم... أكيد راح إجي.

اتصلت هالة بعد انتهاء مكالمتها مع أحمد بسميرة، طالبة منها أن تعتذر لها صباحاً لأنها لن تستطيع القدوم إلى العمل لظروف طارئة، وعندما سألتها عن السبب الحقيقي وراء غيابها قالت لها: أخيراً ربنا حقق إلي كل يالي باتمناه.

في اليوم التالي نهضت هالة مبكراً كعادتها، وارتدت ثيابها على عجل، خائفة أن يضيع اليوم قبل أن تشتري كل ما تخطط لشرائه، اتجهت نحو "فيستيفال سنتر" ثم دلفت إلى "أيكيا"، واشترت منه شموعاً كثيرة لا يعلم سوى الله عددها! ثم خرجت منه متوجهة نحو "دبنهامز" لتشتري منه فستان سهرة أسود، بفتحة صدر دائرية تظهر عنقها الطاووسي وصدرها المختال، لينزل ضيقاً على خصرها مبرزاً فتنته، لينسدل متسعاً على ردفيها في طبقات من الشيفون، وكأنه أوراق وردة جورية متفتحة وتنتظر القطاف. ولم تنس أن تشتري حذاء يتناسب والرداء من "ناين ويست"، وعطر "ألور سينشوال" الذي تعشقه من "باريس جاليري"، قبل أن تغادر نحو الصالون النسائي لتخضع لإجراءات نسائية كاملة، قد تقوم بها المرأة على مدار شهر كامل، فمن غرفة نزع الشعر إلى غرفة تنظيف الوجه وضبط الحواجب، إلى غرفة البخار لتحصل على حمام مغربي مفجر للحواس، لتنتهي بين يدي مصففة الشعر التي طلبت منها أن تصنع لها تسريحة شعر مختلفة تماماً عن تلك التي اعتادت أن تصنعها لها.

كانتِ الساعة تنبئ الحاضرين جميعاً بأنها الرابعة عصراً، عندما خرجت هالة من الصالون متجهة نحو منزلها، حيث قررت أنه لا يوجد من الوقت ما يكفي كي تأخذ قسطاً من الراحة بعد رحلتها الطويلة، فاتجهت من فورها لتصنع عشاء يليق بمحبوبها في أول ليلة له داخل مملكتها التي تنتظره منذ أمد بعيد، كانت قد اشترت أغراضاً كثيرة عبأت بها ثلاجتها من قبل استعداداً لمجيئه في اليوم السابق، لذا لم تحتج إلى المرور على "كارفور" لشراء لوازم الطبخ، فبدأت من فورها في صنع العشاء.

في تمام السادسة والنصف كان كل شيء قد انتهى، فأسرعت نحو الحمام لتغتسل من آثار يومها المزدحم. أسالت الماء فتلقاه جسدها برعشة كهزة الجماع، ابتسمت ثم تناولت منشفتها لتلفها حول جسدها الذي انفتح عن آخره. تعطرت، ثم اتجهت نحو غرفة نومها لترتدي الفستان الذي اشترته من أجل أحمد، والذي لم يكن الأول الذي تشتريه من أجل أن يبصرها داخله، لكنها أحست أن تلك المرة سيراها أحمد وسيمنحها كل ما تاقت إليه.

بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها، وتعديل تسريحة شعرها، تناولت الحقيبة التي تحتوي الشموع، واتجهت نحو الصالة لتدفع كل الأرائك والطاولات الصغيرة نحو الحائط، وتعري الأرض من السجادة النائمة عليها، ثم بدأت في رسم لوحتها التي تخطط لها منذ أغمضت جفنيها على فراشها أمس. أخذت ترص الشمع على الأرض بدأب، لتخط حرف الألف والحاء والميم والدال، ثم تخط حروف اسمها إلى جوار اسمه: هاء وألف ولام وتاء مربوطة، وبعد أن انتهت من رص الشموع نظرت في ساعتها، لتجد عقاربها قد استقرت عند الساعة التاسعة إلا الربع، فدبت

بقدمها اليمنى على الأرض، وأنبت نفسها على تلكؤها في إنجاز المهمة، ومن ثم جرت نحو المطبخ لتغرف الطعام في الأطباق وتحولها إلى طاولة السفرة، تلك الوحيدة التي أبقت عليها في مكانها!

شعرت بالراحة، وفي نفس الوقت شعرت بالإرهاق، فقررت أن تتمدد قليلاً على فراشها قبل أن يحضر أحمد، ذلك الذي كان في اعتقادها على وشك الوصول بين ثانية وأخرى، ولم تنس أن تأخذ هاتفها المحمول معها لتحتضنه بين كفيها، عله يتصل لأي سبب من الأسباب كي يسأل عن أي شيء من الأشياء اللامتناهية في هذا العالم!

اقتربت الساعة من التاسعة والربع ولم يدق أحمد جرس بابها، أو جرس هاتفها، فأخذت تصبر نفسها وتتعلل بأن شوارع الشارقة أصبحت مزدحمة بشكل خانق، وأنه ولابد محتجز داخل سيارته بين العديد من السيارات، التي يقودها أشخاص لا يمتلكون أي مهارة تخولهم للقيادة! عندما حط العقرب الكبير رحاله عند رقم ستة، أقنعت نفسها بأن من الذوق الاتصال به، للاطمئنان عليه ومعرفة سبب تأخره، لكن رقم أحمد أخذ يصدر رنينه دون توقف، ودون أن ينتهي عند طرف صوته، أخبرت نفسها بأنه ولابد لم يتمكن من سماع صوت هاتفه، بينما يدير الراديو كعادته أثناء القيادة، صعد العقرب الكبير نحو الرقم تسعة، فداخلها القلق ما جعلها تعاود الاتصال به، لكن النتيجة كانت تماماً مثل المرة السابقة؛ رنين قاتل يتحول إلى ألم في صدرها. قررت أن عليها الصبر قليلاً، وأنه من العيب أن تفزعه باتصالاتها المتكررة، لكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها عندما أنبأت الساعة بأنها العاشرة مساءً، فاتصلت به مرة أخرى، لكنها تلك المرة

استمعت إلى تلك المرأة المجهولة حسنة التربية، والتي تعلمنا دائماً بأن من نتصل به لا يرغب في أن يرى وجوهنا:

إن الهاتف المتحرك الذي طلبته مغلق.. يرجى الاتصال لاحقاً!

The mobile phone you have dialled has been switched off; please try gain later, thank you.

هكذا وبكل بساطة تأتي تلك المرأة، التي لا يعرف أحد كنهها، وتعصف بأحلامها الممتدة على سنين بلغت ست عشرة! يتسلل ألم صدرها صاعداً نحو كتفها وذراعها اليمنى، عاودت الاتصال لتتلقاها المرأة المجهولة مرة أخرى بصوتها المهذب. الألم يتحول تدريجياً إلى ضربات عنيفة تصطك معها أسنانها، لا تدري ما الذي يجب أن تفعله، نهضت من على فراشها واتجهت بإصرار لا تفسير له نحو المطبخ، والتقطت الكبريت ثم اتجهت نحو شموعها وأخذت تضيء اسمها واسمه، ومع كل شمعة تضيئها تردد: "هيك... لازم نكون هيك... بنضوي في العتم يا حبيبي... هيك... لازم نكون هيك... منورين في العتم يا حبيبي... هيك... لازم نكون هيك... منورين في العتم يا حبيبي"!

بعد أن أكملت إضاءة شموعها التي لا حصر لها، كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة، بينما يسيل العرق في وديان جسدها المرفوض... لم تزل تجهل ما الذي يجب أن تفعله، لكنها ودون إرادة حقيقية منها التقطت مفاتيحها من حقيبتها، وفتحت باب منزلها متوجهة إلى باب المصعد، أخذت تنظر له متسائلة عن السبب الذي جعلها تترك المنزل وتتوقف عن انتظار أحمد، لكنها وبمجرد أن أعلن المصعد عن وصوله بطناته الرتيبة، دلفت إلى داخله ضاغطة زر الطابق الأرضي. خرجت من المصعد مدفوعة بشيء لا تعلم هويته، لكنها بذلت جهداً خارقاً حتى تسرع الخطى نحو سيارتها، التي

قادتها من فورها باتجاه منزل سميرة، الذي لم يكن يبعد عنها أكثر من شارعين، ولكنها وبمجرد أن وصلت أسفل المنزل، لم تستطع أن تركن السيارة في مكان لائق، ولم تستطع أن تتنفس بسهولة أيضاً، تحت وطأة الضربات العنيفة التي كانت تتلقاها في كتفها اليمنى، فما كان منها إلا أن خرجت من السيارة متشبثة بهاتفها في كفها، والذي رفعته نحو أذنها بعد أن ضغطت على زر الاتصال برقم سميرة:

إلحقيني يا سميرة أنا بموت!

إلحقيني... أنا تحت بيتك بموت يا سميرة!

ثم تهاوت على الأرض بين عشرات من المارة، أو فلنقل من المشاهدين!... الشهود على هزيمتها... الشهود على الضربة التي تلقتها من حبيبها في قلب شدتها... شدتها التي كانت في عز احتياجها إلى اجتياحه

الفصل الثاني

(١)

ما الحياة؟! سؤال صغير كلف بشراً عديدين أعمارهم دون العثور على الإجابة، ومضوا وعلامة الاستفهام مرسومة بطول وجوههم ليستقبلها القبر. ربما يؤرق هذا السؤال الناس دون تمييز، لكنه يأتي للنساء بعبوة كاملة من الأسئلة الفرعية: ما الشرف؟! أين يمكن العثور على الأمان والاستقرار؟ ما هي ملامح الحب؟ ما الذي يجب أن يفعلنه في هذه الأيام التي تجري فوق أجسادهن فتبليها ولا تترك لهن سوى عقول فارغة؟ ما هي الأنوثة؟! ما هي الأمومة؟! ولماذا يركز الكون بصره نحوهن مترقباً ومنتظراً ما لا طاقة لكائن حي به؟!

أسئلة لا إجابة لها، أو قد تحظى بإجابات معلبة تلُفهن في دواماتٍ لا نهائية، حتى تقذف بهن إلى هوة الموت. بلايين من النساء أتين وكأنهن لم يعبرن من هنا أبداً، وملايين أتين ومتن كمداً لأنه لم يهتم أحد بسماع

صراخهن، وآلاف مُتن في سبيل أن يكن شيئاً... أي شيء، ومئات فقط صمدن وكن شيئاً رغبنه فعلاً، حتى لو لم ينصت أو يهتم التاريخ.

عاندت أمل كل المقدرات التي فُرِضَت عليها، عاندت قُبول مصير أمها وجدتها، وعبَّرت عن عنادها بمشاعر رفضٍ صرحت بها ضمنياً في وجه أمها. عاندت مصير الزوجة المكلومة من خيانات زوجها، وفرت من فراشه رغماً عنه. عاندت المواصفات المقدسة للأم وأدارت ظهرها لوليدها. عاندت حتى نفسها كي تعترف ببساطة أنها تحب عادل، وعليها فقط أن تترك نفسها لتيار هذا العشق وتستجيب لمقتضياته.

لم تكن تدري أنها مضطرة بعد كل سني الفرار من المصائر المحتمة التي واجهتها؛ أنها هنا في بقعة الأرض الجديدة التي استوطنتها بعيداً عن كل الباليات من الصور المرسومة في الأذهان؛ ستضطر إلى الفرار مرةً أخرى. بل لم تكن تدري أن فرارها تلك المرة لن يجلب لها سوى الوقوعِ في قيودٍ لم تكن مؤهلةً للاستسلامِ إليها.

عندما انتهت قصة محمد أبو طالب الهلامية، أكملت سميرة مسيرتها الإنترنتية دون أن تخبر أمل. قررت ألا تجلب لنفسها مزيداً من السخرية، التي تترافق مع كل مشروع لرجل ضوئي يأتي مع ألياف الإنترنت. كما أنها وعت دروسها المستفادة من تجاربها القصيرة السريعة السابقة، مع حسين ومحمد، وكثير من الرجال الذين يقطر فمهم عسلاً، من أجل القيام بجنس إنترنتي مليء بالكلمات المبهمة، التي لم تستطع أن تجاريها أو تفهمها، خاصة وأنها لا تعرف من الجنس سوى قبلات الأفلام التي يعقبها انقلاب جسد البطل على البطلة في مشهد لا يفهمه سوى الخبراء!

لكنها، ومع ما تمتلكه من إصرار على الحياة التي رُدَ إليها بعضٌ منها، استمرت في رحلة البحث حتى عثرت على رمزي. أرسل رمزي إليها رسالة عبر واحد من مواقع الزواج، يطلب فيها أن يتعرف عليها، خاصة وأنه يعيش في الإمارات وتحديداً في إمارة الشارقة، ما يجعل من أمر تحوله إلى واقع أمراً يسيراً. دون تفكير طويل في ثقة أبيها التي ائتمنها عليها، وبعد أن تعلمت درسها جيداً، وافقت على مقابلة رمزي في المقهى الشعبي القائم على شريط كورنيش بحيرة خالد.

لم تسعد كثيراً بمقابلته، خاصة وأنه لا يحمل وسامة ملحوظة أو حتى مختفية، فهو قصير ذو جذع مدور يقوم على ساقين شبه منحرفتين! أصلع ويرتدي "نظارة" وإن كانت من "دولتشي أند جابانا". لم يكن الحديث بينهما في ذلك اللقاء ينتمي إلى الأحاديث المشوقة أو المشجعة على لقاء آخر يتبعه، لكنها قررت ألا تصدر حكماً متعجلاً بشأنه، خاصة وأنه عبَّر لها عن إعجابه بها وبجمالها. ذلك الجمال الذي أخفته منذ هَجْرِ تامر لها، تحت غطاء رأس يكادُ يغلق على عينيها، وملابس كابية لا توشي بأي بهجة.

بعد عدد من اللقاءات التي فتحت بينهما بوابة الكلام، لفت نظرها ثقافته الإنجليزية المبهرة، فهو يتحدث الإنجليزية بطلاقة، على حسب كلامه؛ أكمل دراسته لعلم الإدارة والتسويق في إنجلترا. يقود سيارة فولكس واجن باسات، ويدخن مارلبورو أحمر! وُلد وتربى في الإمارات من أب وأم يعملان في مراكز مرموقة بالدولة، استطاعا أن يكدسا الأموال حتى تمكن والده من تأسيس مشروعه الخاص، لكن فجأة ودون أي مبررات قرر الوالد أن يعود إلى مصر على غير رغبته وأمه وأخته، فصفى أعماله وعاد وحيداً إلى القاهرة بعد أن طلق زوجته!

عذابات رمزي التي أسهب في سردها على مسامع سميرة، بسبب ذلك الموقف الغريب الذي قام به أبوه، جعلتها تقترب منه أكثر، وتقدر له كونه استراح لها وفتح قلبه ليسرد أسراراً لم يجبره أحد على سردها. تحول اللقاء الأول غير الناجح إلى لقاءات عديدة، وبعد أن كان مكانها الرسمي هو المقهى الشعبي، تنازلت سميرة عن جزء جديد من مبادئها، وتركت لنفسها العنان لتقابله في أماكن أكثر جاذبية في دبي. لكنها دائماً ما كانت تجد صعوبة في كل مرة تلقاه فيها، حتى تتمكن من تجاهل أو التغاضي عن مسألة شكله المنفر.

في ذلك الوقت، كانت أمل تتقلب على صفيح عادل المتقد، فلا هي معه دائماً ولا هي بدونه. يغيب عنها منشغلاً في عمله، ليظهر مرة أخرى وكأنه لم يغب. يأخذها في أحضانه، ويدور معها في ملهى العشق الثمل ثم يختفي. لم تكن قادرة على أن تواجهه برفضها لهذا الحال، فهي مكبلة بصورة ذهنية رسمتها لنفسها في عينيه. إنها المرأة المختلفة عن جميع النساء، التي لا تهتم كثيراً لوجود الرجل في حياتها لأنها لا تحتاج إليه، فهي تعتمد على نفسها، ولا تحلم بأن يساعدها ذكر في حمل خف وزنه أو ثقل. لا ترغب في الزواج لأنه اختراع فاشل، ولا تهتم بأن يكون حبيبها إلى جوارها دوماً...

صورة فرضتها على نفسها، قبل أن تفرضها على عادل، تجد فيها الحل السحري من أي إساءات قد يوجهها إليها أي رجل في الكون. لكنها لم تكن تدري أن تلك الصورة ستتحول إلى قرحة تلهب معدتها، و"قرصة" تعصر قلبها في جميع الأوقات؛ لأنها ببساطة لم تحسب حساب أن عادل سيتحول بقدرة قادر إلى رجلها الأثير، ذلك الرجل الذي كانت تنتظر أن يكونه جدها وأبوها وزوجها السابق، لم تضع احتمالاً واحداً أنها معه ستعيش في

بقعة راحتها، وأن ذراعيه ستكونان جنتها المفقودة، وأن نظرة عينيه ستكون أمانها، وصوته سيكون أمواجها الحانية.

كانت تكره نفسها لأنها اعتادت عدم الإفصاح عن مشاعرها الحقيقية، تنحت الجمود في جملها، وتصقل ملامح عدم الاهتمام على وجهها، فعندما أفصح عادل برغبته في الزواج منها بشكل عابر، وكأنه خائف من توجيه الطلب إليها بشكل واضح وصريح، أجابت بغباء بصقت على نفسها في المرآة على أثره. كان عادل يحادثها تليفونياً بعد يومين لم يظهر خلالهما، فبادرته بسخريتها اليائسة: يااااااه ...هما بيطلعوا إمتى؟!

عادل مجارياً إياها: بيطلعوا بالليل!... إزيك؟!

أمل: كويسة... إنت أخبارك إيه؟!

عادل: تعبان... مرهق جداً.

أمل: الشغل برضو؟!

عادل: أمال هيكون إيه بس يا أمل؟!

أمل: أنا إيش عرفني؟!... عموماً ماشي هامشيهالك الشغل!

عادل: ما هو لو إحنا متجوزين... كنتي زمانك لاقيتيني متلقح جنبك كل يوم بعد ما يكون الشغل فحتني طول النهار!

أمل: لا يا حبيبي... أنا بحب أنام لوحدي!... وبعدين إنت ليه بتكلمني على اعتبار إني صايعة؟!... ما أنا كمان باشتغل... ولا تكونش فاكر إن أنا تيتة وإنت جدو؟!

عادل: لا أبداً... مش فاكر حاجة.

انتهت المكالمة لتنهض أمل ومعدتها تؤلمها، لتبصق على وجهها في المرآة! كم مرة احتاجت إلى أن تحب عادل بكلها دون حواجز؟! كم مرة رغبت في أن تطلق لقلبها وشفتيها العنان كي تخر على ركبتيها معترفة بعشقها له. لكنها في كل مرة تتاح لها الفرصة، ترفسها بقدمها، لتعود وتبكي مرارة من نفسها التي لم تكن بقادرة على مصالحة الرجال من أجل عيون عادل. ثم تعود لتبرر موقفها بأنه لم يقل لها يوماً أنه يحبها، وأنه غائب دائماً عنها متعللاً بانشغاله في العمل، ثم تطلق الـ"ماذا لو" العظيمة في وجه العالم..."ماذا لو استسلمت له تماماً ثم خانني؟!".

أخيراً قررت سميرة أن تقص حكاية رمزي على مسامع أمل، ربما وجدت عندها الإجابة التي تبحث عنها: "هل تطلق لنفسها العنان وتحب رمزي رغم شكله غير المريح؟!". لم تكن تدري أن أمل نفسها في ذلك الوقت، لم تكن قادرة على أن تجيب على سؤالها هي: "هل تطلق لنفسها العنان كي تحب عادل بدون أسوار قديمة بنتها حول نفسها؟!". لكن كالعادة كانت أمل تملك إجابات كثيرة لكل العالم من حولها إلاها! فهي الوحيدة التي تغرق في لجة أسئلة بإجابات معلقة يتبعها الـ"ماذا لو"!

اتصلت سميرة بأمل في أحد الصباحات المتكررة، واتفقتا على اللقاء بعد انتهاء العمل. كانت أمل قد نسيت أنها طرف رئيسي في رحلة بحث سميرة عن "رجل"، ربما بسبب ما حدث بعد قصة محمد أبو طالب، والتي تسببت بانفجار بينهما، أصرت خلاله على وصف سميرة بالحمقاء، لأن ما حدث بينها وبين محمد لا يمكن اعتباره حباً بأي شكل من الأشكال، بينما وصفت سميرة أمل بمتبلدة المشاعر، لأنها لا تستوعب أن الحب لا يحتاج إلى وقت طويل كي ندركه وننتمي إليه بِكُلِنا.

بعد أن أتمت سميرة سرد مروية رمزي، قالت: كل ما أكلمه في التليفون أحس إني بحبه... وأول ما أقابله أتصدم بشكله كأني باشوفه لأول مرة!... لكن بعد ما نقعد ونتكلم أحس إني مستريحة معاه... مش عارفة أعمل إيه؟!

أمل: هو شكله وحش أوي كده؟!

سميرة: أستغفر الله... أنا مش باعترض على خلقة ربنا!

أمل: ما تدخليش ربنا في الموضوع دلوقت!... أنا عايزة أعرف... هو للدرجة دي شكله منفر؟!

سميرة: لأ.. مش أوي كده!... بس أنا ماكنتش باحلم إن الانسان اللي هارتبط بيه يكون شكله مبعجر أوي كده!

تضحك أمل ثم تسأل: لكن إنتي مستريحة لكلامه وطريقة معاملته ليكي؟!

سميرة: ما هو ده اللي مجنني!... أنا فعلاً باحب صوته في التليفون جداً، وكمان بحب أسمعه وأتكلم معاه، لما بنتقابل وتخلص خضتي الأولانية من شكله!

أمل: كل مرة بتشوفيه فيها بتتخضي من شكله؟!

سميرة: أيوه... لدرجة إني بدأت أتضايق من نفسي عشان الموضوع ده!

أمل: ممكن أشوفه؟!

سميرة، وكأنها حصلت على النتيجة التي كانت تسعى إليها ودون عناء السؤال: طبعاً طبعاً... سيبيني بس أمهدله الموضوع، وبعدين أحدد الميعاد وأقولك.

أيام تمر، تأخذ أمل في طياتها، ما بين العمل والقراءة ومكالمات أمها وابنها التراجيدية، وواحة عادل التي تستريح عليها كلما عن له المرور. وعندما يغيب، وتعاند روحها التواقة للسؤال عليه، تُخرج علبتها السحرية التي تخفيها بحرص شديد داخل دولابها، تفتحها ببطء وهي متهدلة على فراشها، وتبدأ في سحب محتويات العلبة واحدة تلو الأخرى. غالباً ما تبدأ بتمثال عادل الورقي، الذي صنعه لها بنفسه.

كان يوم عيد ميلادها، ولم تكن تتوقع قدومه إليها أو حتى تذكره للمناسبة، هو الذي لا يعي تواريخ الأيام ولا خصوصية بعضها. انطلق جرس الباب لتنهض غير متوقعة قدومه، وبمجرد أن فتحت الباب حتى وجدت "عبقرينو" ينظر إليها بعينيه المتقدتين ذكاء، وقبعة تَخرُجِه تعلو رأسه، بينما نظارته تنزلق على أنفه البني المكور. كان هذا هو دبها الحبيب الذي منحه إياها عادل في عيد ميلادها، قال لها: أول ما شفته شبهت عليه، قلت ده الخالق الناطق أمل!

تقفز على الأرض وهي تحمل "عبقرينو" بين ذراعيها، وفي واحدة من لحظاتها القليلة، التي تترك نفسها فيها دون انضباط، تدور حول نفسها وهي تغني:

Happy Birthday to me ...Happy Birthday to me

يصاحب دورانها وغناءها، ضحكة عادل الصافية، التي كانت دائماً تشبهها بصوت اختلاط حفيف الأشجار مع رقرقة المياه العذبة في جدولها،

ملفوفة بأول شعاع للشمس وهو يقبل الأرض في الصباح. يضحك؛ فتدور وتدور وهي تختلس النظر في كل دورة إلى عينيه اللتين لا تعرفان غير الابتسام، حتى وهو في قمة الحزن.

عندما حان موعد مغادرة عادل لارتباطه بموعد عمل مهم، تشبثت برقبته وامتطت جذعه مثلما تحب أن تفعل دائماً، أغرقته بالقبلات وهي ترجوه أن يبقى، وقالت له ربما لأول وآخر مرة في عمر علاقتهما: ما تسيبنيش لوحدي، باخاف وانت بعيد عني.

حينها ضمها إلى صدره بقوة حانية، وقبلها في جبهتها ثم شفتيها. تناول من على الكمود المجاور للفراش علبة سجائره الفارغة، وطلب منها أن تحضر له مقصاً. انصاعت لأوامره وهي متعجبة من طلبه. وبمجرد أن تناول المقص، أخذ يقص شكلاً له من كرتون علبة السجائر، وبعد أن انتهى سلم قرينه لها وقال باسماً: أنا مش هاسيبك أبداً، ولما أكون مش موجود، عادل الصغير هياخد باله منك.

ضحكت ملء شدقيها مما قال، فلقد اعتاد أن يسمي عضوه الذكري بـ"عادل الصغير"! ضحك هو أيضاً بعد أن تدارك الأمر وقال: خلاص خلاص، قريني بس هياخد باله منك... إمسكي بقى!

تناولت قرينه وظلت واقفة دون حراك حتى أكمل ارتداء ملابسه وقبلها، ثم غادر منزلها، لتنام على فراشها وقرينه في حضنها، ولم تستيقظ إلا في صباح اليوم التالي حيث وضعت القرين الكرتوني داخل علبتها الأثيرة، لينضم إلى باقي مخلفات عادل، من أعقاب سجائر وقصاصات تحمل مقالاته المفضلة لديها، وعلب سجائره الفارغة، وولاعاته التي نسيها عندها، وبعض شعيرات كانت قصتها من رأسه وهو نائم، والكثير الكثير

مما جمعته بعناية، مستعدة ليوم اختفائه، ليبقى لديها مؤونة كاملة تعينها على الحياة وهو بعيد عنها!

اتصلت سميرة بأمل بعد أسبوع تقريباً من آخر حديث تم بينهما حول رمزي، أخبرتها أنه لم يعترض أبداً على مقابلتها، بل على العكس تماماً، فقد رحب باللقاء مؤكداً أنه سيكون سعيداً بالتعرف على جميع أصدقائها، ويتمنى أن يتعرف على أسرتها أيضاً ذات يوم. كان هذا التصريح موضع إعجاب أمل، التي وضحت لسميرة أن هذا الكلام لا يخرج إلا من رجل جاد في علاقته بالمرأة التي معه.

انتشت سميرة بمجرد أن اخترق تعليق أمل طبلة أذنها، ووجدت نفسها من دون سابق إنذار تدب على الأرض بثقة، بينما ارتفعت هامتها لتلامس السماء، يتناغم مع كل ذلك "تقصع" ملحوظ في عجيزتها!

التقوا ثلاثتهم في مقهى شكسبير داخل برج الخليج (**Gulf Tower**) بشارع عود ميثاء. اختارته أمل مؤكدة أنه أفضل من يقدم الشيكولاتة الساخنة في دبي! وصلت أمل وسميرة معتقدتين أنهما سبقتا رمزي، لكن وبمجرد أن وطئتا المقهى بأقدامهما، حتى اقترب منهما النادل، وهمس بأن الأستاذ رمزي ينتظرهما في الدور الثاني "الدور المخصص للعشاق"!

استقبلت أمل الإشارة بحبور، ولكزت سميرة في جانبها الأيمن قائلة: ده طلع واد شيك وبيفهم. لم تستوعب سميرة سبب هذه الملاحظة التي ألقتها أمل على مسامعها، وفضلت ألا تستفسر منها عن شيء الآن، لكن ابتسامة عريضة اعتلت وجهها، وزاد دبيب كعبها على الأرض، قائلة بثقة: مش قلتلك يا بنتي؟!

صعدت الفتاتان السلالم الفيكتورية التي تتلاءم واسم المقهى، ليستقبلهما رمزي بذراعين مفتوحتين عن آخرهما، بينما دخان السيجار يتراقص نحو الأعلى من بين أصابع كفه اليسرى. بمجرد أن أبصرته أمل أدركت تماماً ما تعنيه سميرة، فلقد كان يشبه الضفدع في قصص الأطفال المصورة، فقط يرتدي نظارة ويمسك بسيجار هافانا الكوبي! ولم يكن ينقصه وفقاً لرؤية أمل التليفزيونية سوى تاج مذهب وحرملة قطيفة حمراء ذات ياقة فرو بيضاء كثة، يغطس فيها رأسه الذي لا يستند على عنق مثل باقي البشر!

على عكس المثل القائل: "الانطباع الأول يدوم"، كان رمزي، برغم تلك الإكسسوارات التي يحيط نفسه بها؛ من نظارة ذات إطار ثقيل ماركة "دولتشي أند جبانا"، وساعة "رولكس" ضخمة تبرق على معصمه، وسلسلة "كارتييه" ذهبية تتراقص على عنقه الشحيم، وقميص "بيير كاردان" حمصي اللون، وحذاء "كلاركس" ضخم يحتل مساحة كبيرة أسفل الطاولة - شخصاً يتمتع بصوت سلس هادئ، ذي نبرة عميقة مقنعة، حتى ولو لم يكن لديه شيء مهم ليُقنع به. انصاعت أمل فوراً لنصيحته بتناول الموكاتشينو، بدلاً من الشيكولاتة الساخنة؛ لأنها وفقاً لخبرته في التذوق يتم تقديمها بنكهات متنوعة ومنعشة. وبالطبع انقادت سميرة لرأي الجماعة، وتناولت الموكا بسعادة غامرة، لتحكي عن عشقها لها لفترة لا بأس بها من حياتها!

عندما انتهى اللقاء، وركبت أمل سيارة سميرة في طريق عودتهما إلى الشارقة، وقبل حتى أن تسأل سميرة أي سؤال؛ أكدت أمل أن الرجل لا يعيبه شيء، وأن مسألة شكله هذه مسألة ثانوية جداً، فهو يتمتع بشخصية

آسرة، ويبدو مرحاً ومثقفاً ثقافة رفيعة، كما أنه مهتم بشكل مبالغ فيه بمظهره، ويعتني عناية فائقة بماركات ملابسه، وختمت كلامها بجملة صريحة وحقيقية جداً: ثم إن تلات رباع الرجالة في مصر شكلهم زي رمزي، ولو بدأوا شبابهم طوال وعراض وحلوين، بينتهي بيهم الحال تخان ومدورين وصلع!

عند تلك الجملة التي أغلقت بها أمل عريضتها الدفاعية عن رمزي، انطلقت ضحكة سميرة الطفولية ليهتز لها جسمها كله. لم تضع كفها على فمها كما اعتادت لتخفي الضحكة، ولم تقطعها هذه المرة، بل تركتها لتأخذ كامل وقتها وتملأ فراغ السيارة. أما أمل فقد اكتفت بابتسامة، انزلقت على أثرها في مقعدها، وهي تعيد رسم ملامح عادل الخلابة في السماء الصافية التي تنظر إليها من خلف زجاج السيارة الأمامي.

(٢)

استطاعت سميرة مع رمزي أن تعبر بوابة كبيرة في اكتمال تعريفها الأنثوي؛ تلك الأنوثة الملفوفة بمليون غطاء، لا تراها حتى صاحبتها. فمنذ أن قطع تامر عليها الطريق أثناء مضيها قدماً نحو الكمال، وهي تعاني من الابتسار وتختفي خلف الأقمشة.

بدأت زاوية الرؤية التي تنظر من خلالها نحو رمزي، تختلف عقب ذلك الاجتماع الصغير الذي ضمها معه وأمل. رأته بعيون مختلفة؛ لم تعد تعبأ كثيراً بملامحه الجسدية المدورة، خاصة وأن يديه لم تظلا إلى جواره

حاملة سيجار الهافانا طول الوقت، وبدأت في طريقها نحو اكتشاف ما يختفي بعناية أسفل الملابس الكثيرة التي تلتف سميرة داخلها.

عندما وصلت سميرة إلى تلك المرحلة، هرعت نحو عريفتها الأثيرة أمل، والتي لم يكن لديها رد أنسب من ذلك الذي قاله فؤاد المهندس لسناء يونس في مسرحية "سك على بناتك": "سيبيه يمسكها يا فوزية، يمكن تطرى في إيده"! لكن سميرة أحبت أن تعرف حدود "المسك"، فكانت إجابة أمل واضحة وصريحة: الحدود تتوقف عند ما يمكن أن يصل إليه في السيارة أو المقهى أو الشاطئ، لكن إياكي وأن تسمحي له بعبور باب منزلك، أو الذهاب إلى منزله. وعندما أجابت سميرة بثقة أنها تعرفه جيداً، ومتأكدة من أنه لا يمكن أن يطلب الاختلاء بها في منزلها، أكدت لها أمل بمنتهى الصراحة: يبقى مش راجل!

سميرة: يعني إيه؟!

أمل: يعني مفيش راجل طبيعي على الأرض ما يطلبش الطلب ده... وما يلحش عشان تنفذيه له كمان!

سميرة: طب وإن ما طلبوش يا أمل؟!

أمل: يبقى حاجة من اتنين، يا إما ناقصه عضو مهم جداً في جسمه! يا إما متدين وخايف يخش النار.

وهنا انتهى الكلام بين الفتاتين، لترسم على أثره سميرة حدود اللمس والهمس بينها وبين رمزي! لم يكن جسد رمزي المدور ونظارته السميكة، دليلاً بأي حال من الأحوال على أي شيء ناقص فيه، بل كان يمتلك خبرات ذكورية لا بأس بها، أخذت سميرة من بقعة الظلام إلى الضوء، فبدأت تتحلل تدريجياً من أقمشتها الكثيرة، حيث تلونت ملابسها تدريجياً

بألوان زاهية، وبدأ غطاء شعرها يتراجع إلى الوراء مفلتاً بعضاً من الخصلات النافرة على الجبهة في عفوية مقصودة، بينما صعدت "الجيبات" لأعلى قليلاً مظهرة ما مقداره شبر تقريباً من أسفل الساق، لتطل الأحذية والصنادل المبهجة، التي أخفت تماماً انثناء جسدها نحو اليمين وهي تسير.

انطلقت سميرة مع رمزي في أول علاقة عاطفية ذات ملامح حقيقية في حياتها، فعلى الرغم من قصتها العظيمة مع تامر، والتي تكللت بشهور من الخِطْبةِ الرسمية، إلا أنّ حدود علاقتها به لم تتجاوز عتبة النظرات المراهقة والتنهيدات الساخنة، التي كانت تطلقها بانتظام عبر شباك غرفتها في منزلها بمصر. أما رمزي، فقد سحبها نحو عمرها الحقيقي والذي يقترب بثبات من منتصف الثلاثينات.

لا يمكنها أن تنسى قبلتها الأولى، والتي منحها إياها رمزي على الشاطئ. كانت معه في سيارته يتمشيان على كورنيش الممزر بدبي، زحفت كف رمزي اليمنى نحو كفها، التي كانت مستريحة إلى جوارها منتظرة يده حتى تحتضنها. استسلمت تماماً لأول مرة دون تمنع، كذلك الذي كانت تصطنعه ملفوفاً بالخجل في المرات السابقة، أحس رمزي باستسلامها للهيبِ جسده الذي كان واضحاً تماماً حتى للأعمى! - غير مدرك أن سميرة لم تصل إلى تلك المرحلة من قوة الملاحظة! - لكن مما لا شك فيه بالفعل أن سميرة كانت مستسلمة هذه المرة لأصابع يده، التي تناولت يدها ضامة إياها بقوة.

لم تكن سميرة على علمٍ بأن استسلام كفها هذا يعطي إشارة خفية بالمضي قدماً، لذلك عندما ركن رمزي السيارة بأحد الأركان الموازية لشاطئ الممزر، لم تدرك أنها خطوة في سبيل تحريك القِطَع إلى الأمام. نظرت

بحنو بالغ نحوه، وشعرت في قرارة نفسها أنها بالفعل تحبه، وأنه استطاع بقوة أن يُمَرْكِز ذاته في صميم قلبها، مطيحاً بكل من سبقوه: حسين ومحمد وحتى تامر!

استقبل رمزي نظرات سميرة، على أنها نداء لفمه حتى يلتقط شفتيها، وكفه حتى يسرح في ساحة نهديها. نظر من حوله، فاكتشف أن هذا الهدوء الذي يطغى على الشارع لا يعني أنه لن يبزغ أحد فجأة في أي وقت. مد كفه ليعالج خصلتها النافرة من أسفل طرحتها، ليعيدها إلى مكانها في الأسفل، ثم قال: باين على شعرك حلو أوي.

ابتسمت في طفولة، وقالت: أيوه وطويل كمان!

رمزي: نفسي أشوفه وألفه على إيدي، وألعب لك فيه بصوابعي.

نظرت للأسفل ولم تُجب سوى بصمت خجول، دعاه لأن ينقل قطعة جديدة على الرقعة التي تتوسطهما: إيه رأيك نتمشى على الشط شوية؟!

أجابت ببراءة: هنا؟ ده مش شط خالص، ده مفيهوش ولا موجة توحد ربنا!

ابتسم رمزي الذي لم يكن يعبأ بأمواج الخور، أو حتى أمواج المحيط الهادئ بجلالة قدره في تلك اللحظة! وقال لها: مش مهم... المهم نكون مع بعض.

انزلقت سميرة من باب السيارة بمجرد أن فتحه لها كما اعتاد، مؤكداً مَلَكِيته، ثم التقط كفها معاوناً إياها على السير، مغلقاً الباب بيده الأخرى التي تحمل المفتاح الإلكتروني، والذي كان يأخذ بلب سميرة، فبمجرد

الضغط على زره، تُصدر السيارة صفارة قصيرة متقطعة، معلنةً أن أبوابها قد أغلقت وأن أمورها جيدة وفي الأمان!

على الشاطئ بدأ الاثنان يسيران ببطء، وهما ممسكان بأيدي بعضهما البعض. كان رمزي خبيراً في أمور الفتيات العذراوات اللائي يخطون في سبيل تحقيق تجربتهن الأولى، وكانت سميرة واقعة تحت سحر هواء ديسمبر العليل، والنجوم التي تتلألأ في السماء من فوقهما، والشاطئ - الذي رغم افتقاره للأمواج - تتراقص مياهه مع ضوء القمر فتلمع كأنها فضة مسكوبة.

بعد خطوات قليلة، صعدت ذراع رمزي لتحيط بخصرها، لم تدر ما الذي عليها بالتحديد أن تفعله، أخذت تزيح صورة والدها من مخيلتها، ويبدو أن استمتاعها بملمس كف رمزي على خصرها، كان من القوة ما مكنها بسهولة من إزاحة صورته ذات النظرة الغاضبة. بعد فترة أخرى من المسير، وبعد أن تأكد رمزي بعين خبيرة أن لا أحد حولهما قد يراهما، توقف ملتفاً بكامل جسده أمام سميرة، ليضمها بذراعيه نحو صدره، ثم ليطبق بشفتيه على شفتيها، في قبلة طويلة، مرت كالأثير عليها. لم تتمكن من المقاومة، بل إنها لم تعبأ بفكرة المقاومة من الأساس! عندما تيقن رمزي من توهانها داخل قبلته، وأنه استطاع أن يرفع أول علم على أول قطعة أرض داخل جسدها، صعد بكفه نحو نهدها الأيمن، ليعصره بكل ما أوتي من رغبة، فأصدرت سميرة آهة رقراقة، لم تعرف هي ذاتها من أين صدرت! لكنها بالتأكيد أشعلت النار داخل رمزي، فشعرت سميرة بشيء مدبب يضغط على أسفلها، ورغم أنها لم تُحدد كنه ذلك الشيء! إلا أن غريزتها أنبأتها بضرورة التراجع إلى الخلف.

(٣)

تحبه على نغمات "روح عادية" لعمر فاروق تكبيلك. دائماً ما تبثه لواعج قلبها على نغمات الموسيقى الهادئة، والحزينة، ودائماً ما تفعل ذلك وهو غير موجود! كانت دائماً وهي معه، تضع نفسها تحت الملاحظة الشديدة، فلا تتركها للانهيار داخله بكلها. كل شيء محسوب بدقة، حتى بعد أن ينهيا جنساً عاصفاً، تكتفي بالصمت إذا ما سألها إن كانت سعيدة ومشبعة. كانت تود أن تخبره بأنها تسعد بكل لمسة تصدر منه نحو جسدها، وأنها تصل إلى ذروة عشقها إذا ما تلامست أصابعهما فقط، فما باله إذا قبلها، أو غمرها بكامل جسده؟! تحلم أن تعبر له بكل صراحة، أنها تعشق الجلوس على حِجره مواجهة إياه، لتريح رأسها على كتفه وتنام. ترغب في أن تؤكد له؛ أنها لم تنم من قبل بتلك الراحة التي تنام بها على كتفيه وبين ذراعيه. تود أن تخبره بأشياء كثيرة، لكنها تمنع نفسها بالقوة، ورغم أنها من وقت لآخر، تزلُ بلسانها وتبوح ببعض ما بداخلها، إلا أنها لم تخبره بالحقيقة كاملة أبداً.

تحبه على نغمات "روح عادية"، تتمايل بروحها العادية يميناً ويساراً، وتهيم بأنفاسها على صفحة صدره العارية، دون أن يكون معها، تكتفي بإغماض عينيها وتتمثله بين يديها. هي لا تبذل مجهوداً كبيراً حتى تستحضره أثناء غيابه، لا يحتاج الأمر منها إلا إلى أن تغمض عينيها وتحتضنه. يأتيها دائماً بعينيه المضيئتين، وصوته الذي يلفها في دوامة الحبور، وكتفيه المتسعتين بعرض الأحلام.

هكذا كانت أمل دائماً، تعيش مع عادل حياتين متوازيتين. حياة على أرض الواقع، يراها عادل ويلمسها بكفيه، وحياة أخرى على أرض خيالها، لا تحتوي على حواجز أو قيود. كانت تتساءل دوماً إن كان عادل يعرفها على حقيقتها، وإن كان سيظل معها إذا ما وقف على هذه الحقيقة؟! هو فقط يعرف تلك المرأة الجامدة، القوية أبداً، التي تصنع من كل موقف مهما كانت درجة شاعريته، ضحكة، والتي لا تهتم من الحب سوى بالجنس، والتي لا تعبأ كثيراً بفكرة الأمومة، ولا تُولي شيئاً اهتماماً، سوى لمستقبلها العملي، واستقلالها الاقتصادي.

تزعج تلك الصورة أمل كثيراً عندما تفكر فيها، لكنها لم يكن لديها – في اعتقادها – أي خيار آخر. لم تترك لها الحياة خيارات كثيرة، فإما هذه الصورة والبقاء على قيد الحياة، دون أن تتعرض لدهسات ودعسات الرجال! أو الصورة الأخرى، لتلك المرأة الشاعرية التي تحب حتى آخرها، والتي تتلوى بنار فراق ابنها كل يوم، فتموت أسفل سنابك خيولهم التي لا ترحم. لم يكن من الممكن أن ترى سيناريو آخر لحياتها، هي كاتبة السيناريو المحترفة، التي بدأت تتلقى أجرها بالدولار!

يدق جرس هاتفها المحمول، تلتقطه لتجيب عادل الذي يبادرها بقوله: هاجيب ماما تقعد معايا شوية.

كان الخبر مباغتاً لها، فهذا يعني أنه سيغيب عنها لمدد أطول من التي اعتادتها، وربما لن تراه من الأساس. علقت محاولة وضع نغمة صوتها في قالب بلا ملامح: يعني كده إحنا متوقفين عن الخدمة قد إيه بالظبط؟!

عادل: وليه متوقفين عن الخدمة؟!

أمل: عشان مامتك جاية.

عادل: ليه هو إنتي مش ناوية تشوفيها وتتعرفي عليها؟!

هنا، تغير منحى الحديث، فجملة عادل الأخيرة لم تكن تعني لها سوى تمهيد بفتح بوابة الزواج، وهو ما تتحاشاه باستمرار، وترفض طرحه بينها وبينه بأي شكل من الأشكال. هي تبتغيه دوماً معها، لكنها ترفض أن تُوقِع على صك عبودية جديد، ممهور بخاتم الزواج. صمتت أمل فترة كافية ليسمع عادل قلقها، كان يفهمها جيداً ويحبها تماماً كما هي، ولا يرغب في أن يغير شيئاً فيها، وإن كان يتمنى أن تصل معه لحدود الأمان، لتفتح أبوابها المغلقة وتُشرعها على مصراعيها أمامه، فلا يحتاج إلى بذل كل هذا المجهود في كل مرة رغب في أن يطلب منها شيئاً، أو يُسِرُ إليها بما يدور داخله. دائماً يفكر في الجملة قبل أن يلقيها على مسامعها، ودائماً يشعر بأنه مذنب رغم أنه لم يرتكب في حقها شيئاً.

أخيراً قرر عادل أن يقطع الصمت، فقال: يا بنتي ماما مش حاجة كبيرة، دي ست مودرن ولذيذة جداً، وتحب تتعرف على أصدقائي وزمايلي، وأكيد إنتي واحدة منهم، مش كده ولا إيه؟!

أفرغت هواء البالون التي انتفخت بصدرها، ثم قالت وهي بين الضيق والارتياح: أيوه طبعاً، أكيد أكيد!

رغم أنها لم تكن لتهدأ إذا ما قال لها إنه يود أن يُعرفها على أمه بشكل شخصي، إلا أنها لم ترتح كثيراً لفكرة كونها واحدة ضمن العديد من الأصدقاء وزملاء العمل. تعيش دائماً في حيرة وتُحيره معها، فعادل الذي كان قد أخبر والدته بالفعل عنها، وود حقاً لو أنه عَرَّف أمه عليها، باعتبارها حبيبته التي ينوي الزواج منها ذات يوم، لم يجد أمامه سوى أن

يفتعل تمثيلية يلعب فيها عدد لا بأس به من الأصدقاء أدواراً ثانوية، حتى يصل إلى مبتغاه الأصلي، وهو أن يُعرِف أمه على أمل!

في الوقت الذي كانت أمل تحاول الهروب من مقابلة والدة عادل، كانت سميرة تخطط بهدوء كي تتمكن من مقابلة والدة رمزي، ولكي نكون منصفين تماماً معها، لا يمكن أن نفسر الأمر بأنها كانت تسعى لنشر جنودها على ساحة رمزي الرئيسية في سبيلها لسحبه نحو المأذون! كل ما في الأمر، أنه كان دائم الحكي عن والدته، معاناته معها بعد أن تزوجت أخته وسافرت إلى لندن لتعيش مع زوجها هناك، وكيف يتعذب معها في كل مرة يحين موعد زيارتها للطبيب النفسي، هذا عدا مشاكله اليومية معها، منذ اللحظة الأولى التي تستيقظ فيها من نومها وتمتنع عن تناول طعام إفطارها، الذي يجب أن تتناوله حتى يتمكن من إعطائها قائمة أدويتها التي تتنوع ما بين أدوية الضغط والسكر والقلب والاكتئاب. قائمة مرهقة من الأدوية التي يحتار هو نفسه في التفريق بينها، ما يجعله يُلصق لافتات عريضة، موضحاً عليها وظيفة كل دواء، حتى لا يفسد الأمر بالخلط بينها. سميرة التي تعاطفت مع حبيبها ومعاناته اليومية، فكرت لو تمكنت من التعرف على أمه، حتى تعاونه في رعايتها وإعطائها دواءها اليومي بانتظام!

أبدت سميرة تعاطفها الشديد معه في البداية، ثم أخذت تعمق من مأساته اليومية وكيف أنه في حاجة إلى من يعاونه. بمجرد أن نطق رمزي بجملة مفادها أنه بالفعل يحتاج إلى من يساعده في رعاية أمه، حتى قفزت سميرة داخل بقعة الضوء، معلنةً أنها على أتم استعداد لتساعده في هذا الأمر.

أبدى رمزي دهشته من عرض سميرة، فهذا يعني أنها على استعداد لدخول بيته، فنظر إليها متسائلاً عن إمكانية قيامها بهذا الأمر، في ظل تحفظاتها العنيدة بخصوص استقباله في منزلها. جاء ردها واضحاً وواثقاً، فهي لا يمكنها استقباله في منزلها؛ لأنها تعيش وحدها، لكن ذهابها إلى منزله سيكون من أجل رعاية أمه، وسيكون في الأوقات التي لا يوجد هو خلالها في المنزل، وإلا فما فائدة مساعدتها له لو كان ملازماً والدته في المنزل؟!

على أية حال؛ لم يكن رمزي ليقبل بعرضها، فمقابلتها لوالدته من الأمور البعيدة تماماً عن ذهنه في الوقت الراهن، خاصة وأنها تحولت إلى مصدر إزعاج حقيقي له، ولم يكن ليدخلها في حياته بأي شكل من الأشكال، خاصة عندما يتعلق الأمر بفتاة مرتبط بها، فأمه كانت تعاني من الخلط بينه وبين والده في ذلك الوقت، إضافة إلى أنها من الأساس تصر على تزويجه بابنة أختها!

شكر رمزي سميرة، في جملة مرتبكة، لم يتمكن من صياغتها جيداً، رغم أنه كان هادئاً ولطيفاً وهو يوجهها لها: صعب... صعب يا سميرة... ماما صعب تقابلك دلوقت... النتيجة مش هتكون كويسة خالص. شكراً على عرضك على أي حال.

وقع كلام رمزي على رأس سميرة كصاعقة حقيقية، فقد فهمت الأمر على أن رمزي لا يرغب في أن يعرفها على أمه، لأنه لا يعرف كيف سيشرح لها ارتباطه بفتاة عاجزة مثلها!

كالعادة اتصلت بأمل والنار تخرج من أنفها، تدور دورات صغيرة ومتقطعة حول نفسها في انتظار إجابة على الاتصال دون جدوى، وكالعادة سبت أمل في سرها لأنها لا تجيب في الوقت الصحيح! اتصلت مرة أخرى

في إصرار لا رجوع عنه، فأجابت أمل بصوت منخفض: سميرة هاتصل بيكي بعدين أنا قاعدة مع عادل ومامته.

وقبل أن تصرخ سميرة في أذن أمل: نعم؟! مامته؟!

كانت أمل قد ضغطت بإبهامها على زر الإغلاق، لتعود إلى ابتسامتها الكرتونية التي تواجه بها أم عادل. هي لا تحب الأمهات، بمعنى أصح تشعر أمامهن بالحرج، فمن حق كل أم أن ترى في زوجة ابنها صورة مصغرة لها، كل الأمهات يفنين عمرهن في حب كائن صغير، يرعينه منذ كان في حجم كف أيديهن، يعلقنه بأثدائهن حتى وهن نائمات، تاركات صدورهن عارية حتى في عز الشتاء والبرد، يجرين خلف هذا الكائن في كل مكان، يجمعن حاجاته المبعثرة، يرتبن خزائن ملابسه وكتبه المدرسية، يجمعن جواربه من أسفل أثاث المنزل كله، ويكوين ملابسه حتى بعدما تطول قامته سقف المنزل وينظر إليهن من فوق! يجرين وراءه بأطباق الطعام في عرض ملعقة واحدة تنزل إلى جوفه، ويملكن الدنيا إذا ما نام في أحضانهن، أو إذا ما أخذهن هو في حضنه عندما يصبح صدره عريضاً، وذراعاه حاويات ضخمة تستطيع جمع جسدين في نفس الوقت. هو رجل تصنعه المرأة بنفسها منذ لحظة تكوينه الأولى، يخرج ليحمل عاداتها التي طبعته بها، يأكل مثلما طبخت له، ويلبس مثلما اختارت له منذ طفولته، ويتحرك في الكون وفقاً لحجم الدلال الذي منحته إياه، الأمهات في رأي أمل "أُس الفساد لكل الرجال! فكيفما رأى الرجل أمه، يرى نساء العالم".

لذلك، هي لا تطيق الأمهات، بمن فيهن أمها، وهي نفسها، إن جاز لنا إطلاق لقب أم عليها! جلست أمام أم عادل تفتعل الابتسام والضحك الذي كان يخرج عصبياً من بين تشنجات فكيها، تنظر نحو عادل من وقت

لآخر، وكأنها تستنجد كي ينهي اللقاء، أو "الفخ" كما أسمته بعد ذلك! فقد خدعها واقتصرت المقابلة على مثلث برمودا المرعب، الرجل والمرأة والأم ثالثهما، فهل بإمكانكم تخيل الأمر؟! كان هذا هو السؤال الذي أخذت أمل تلقيه على كل ما حولها، بينما تقود السيارة في طريقها نحو منزل سميرة. كانت بالفعل في حاجة إلى أن تتقيأ غثيانها من وقع المقابلة، دخلت على سميرة وهي تلقي بالحقيبة كالمعتاد على الأريكة المجاورة لباب المنزل، ودون أي مقدمات أو حتى ملاحظة ملامح سميرة المنزعجة، أخذت كمجنونة حقيقية تنزع دبوس شعرها، ثم تهرش بأصابع كفيها الاثنتين، وكأن جرباً حقيقياً أصاب فروة رأسها! ثم تنزع حذاءيها وتلقيهما بعيداً، تعود لتبحث عن حقيبتها لتخرج سيجارة، وبعد أن تشعلها تنظر لسميرة، التي كانت قد أغلقت الباب وأسندت ظهرها عليه، في انتظار اكتمال العرض العالمي لأمل رفعت!

متخيلة؟! متخيلة اللي حصل؟! أنا يعمل فيا كده؟! متخيلة يا سميرة؟! أنا ياخدني مقلب الحرامية ده؟! أنا أقابل أمه؟! ليه وعشان إيه أقابل أمه؟! جايب أمه من مصر ومركبها طيارة عشان تتفرج عليا؟! أنا بضاعة يعني؟! والست أمه راكبة الطيارة وجاية عشان تعاين البضاعة اللي هيا أنا؟!

في آخر تساؤلات أمل المشروعة، ارتفع صوتها كثيراً وأصبحت كأنها تؤدي مشهداً لمعلمة على مقهى، تتبادل السباب وأحد الزبائن المحتالين، وقبل أن تصفق بيديها وتفتحهما عن آخرهما كما يفعلن نساء الحواري في أفلام الأبيض والأسود! صرخت سميرة بصوتها المرتعش: بس يا أمل كفاية، أنا مش قادرة أفهم إنتي إيه اللي مزعلك بس؟ إنتي بلسانك قايلة لي

قبل كده، إن الراجل لما يقدم حبيبته لأهله ده معناه إنه جاد في العلاقة، إيه اللي حصل بقى؟!

ألجمت جملة سميرة الاعتراضية وسؤالها التعجبي لسان أمل تماماً، ولم تجد كلمات مناسبة تُركِبها إلى جوار بعضها البعض في شكل متناسق يقنع المستمع إليها، ما جعلها ببساطة تتحرك نحو الأريكة، وهي متهدلة الذراعين تكاد السيجارة التي وصلت إلى "فلترها" أن تلسع سبابتها والوسطى، وبعد أن ألقت بعجيزتها على الأريكة نظرت إلى سميرة في حيرة والدموع تملأ عينيها: إيه يا سميرة؟!

سميرة: أنا مش قادرة أفهمك... إنتي بتحبي عادل ولا لأ؟!

أمل باستسلام: بحبه... بحبه بجنون كمان!

سميرة: طيب ليه بتعملي كده؟! ده جايب مامته من مصر عشان يقدمك ليها، عايزة إيه تاني دليل على حبه ليكي وإنه عايز يتجوزك؟

أمل: أنا عندي فوبيا من الجواز... مش هاعرف أتجوز تاني، برغم إن عادل هو منتهى أملي في الراجل اللي باحلم بيه طول عمري، لكن مش هاقدر أمنع نفسي من الشك فيه طول الوقت، مش هاقدر أمنع نفسي من الإحساس بأنه خاين بأي شكل من الأشكال، هاكون دايماً معاه مستنية السيئ، وعمري ما هاتخيل لحظة إنه بيحبني كده وخلاص، عمري ما هاصدق إنه مش مخبي عليا مصيبة هيعملها فيا إن آجلاً أو عاجلاً! الأفضل إننا نفضل كده للأبد، عشان ما يبقاش ليا عليه حاجة ولا ليه عليا حاجة!

سميرة ببساطة: يا سلام؟! إنتي اللي بتقولي كده يا خبيرة العلاقات؟! وفين بقى كلامك بتاع إن الراجل لا يمكن ما يطلبش من الست إنه يروح بيتها والقصص دي؟!

أمل باستسلام حقيقي: عادل مش ناقصه حاجة يا سميرة، أنا وهو بينا علاقة كاملة.

سميرة: كاملة؟! كاملة يعني إيه؟!

تضحك أمل رغماً عنها من سؤال سميرة، وتأخذها في حضنها ثم تربت على كتفيها وتقول: كاملة يعني زي المتجوزين يا سميرة!

تنزع سميرة جسدها من بين ذراعي أمل، ثم تصرخ في وجهها: يا نهارك اسود يا أمل! مش خايفة من ربنا؟!

تجمع أمل أغراضها وتنهض لتبحث عن حذاءيها، وبعدما تعثر عليهما تصرخ في وجه سميرة وهي تحجل بقدم لتضع الحذاء في الأخرى: لأ مش خايفة!... سبتلك إنتي الخوف يمكن ينفعك!

وقبل أن تفتح الباب، تصرخ سميرة بعصبية: استني ما تمشيش، إنتي حرة في حياتك إعملي فيها اللي إنتي عايزاه، بس أنا عايزة أعرف حاجة مهمة، إنتي ليه بقى عمالة تحذريني إن رمزي ييجي عندي الشقة طالما إنتي مش فارق معاكي كده؟!

أمل ببساطة وهي تخرج سيجارة من حقيبتها وتشعلها، وهي مستندة بظهرها على باب المنزل: مش عشان ربنا، عشان المجتمع!

سميرة: نعم؟! مش فاهمة!

أمل: أنا سبق واتجوزت، ومعايا ورقة رسمي بتقول إن أنا خلاص ما بقتش عذراء، لكن إنتي لأ، لو فقدتي عذريتك قبل الجواز مش هتلاقي حد يقبل يتجوزك في المجتمع الزبالة اللي إحنا عايشين فيه!

سميرة: طب وليه مش حاطة ربنا في حساباتك دي؟!

أمل: لأن ببساطة الأولى بربنا يحاسب الرجالة على خياناتهم الأول قبل ما يحاسبني أنا على حبي لحبيبي! أنا مش شرموطة باشتغل بجسمي، أنا ست محترمة وبحب راجل واحد بس!

سميرة: طب ما تتجوزيه، إيه اللي مانعك بقى؟!

أمل: لأ مش هاوقع بإيدي دي تاني على صك عبوديتي، حتى ولو كان لعادل!

في اليوم التالي، عندما استيقظت أمل من النوم جوار سميرة في منزلها، تذكرت أنها لم تعرف سبب اتصالها بها أثناء لقاء السحاب بوالدة عادل! لكنها فضلت أن تجري اتصالاً به أولاً، لتتأكد أنها لم تفقده بعد، خاصة وأنها متأكدة أن أمه قالت فيها من الهجاء ما يكفي ليستهلك كل بحور الشعر! لم يجب عادل كعادته على اتصالها، لكنها استقبلت عدم معاودته الاتصال فوراً كإجابة للتساؤل الذي نامت مؤرقة به.

بحاجبين يكادان أن يصطدما ببعضهما البعض، أيقظت أمل سميرة، وهي تحمل كوبين من النسكافيه الساخن، الذي أنعشت رائحته سميرة حتى قبل أن تفتح عينيها. أسدلت قدميها على الأرض وهي تفتح عينيها ببطء، وترى أمل تبتعد حاملة الكوبين ومتجهة نحو الصالة. نهضت تتهادى بمؤخرتها المدورة في تماسك يلين مع الخطو يميناً ويساراً، بينما تهتز خصلات شعرها التي تتناثر في عبث مثير حول جسدها الضئيل، تخطو خطواتها المكسورة تجاه الأيمن قليلاً بإثارة حقيقية، فتلك العرجة الخفيفة التي خلفها لها شلل الأطفال، لم تكن منفرة أو مثيرة للشفقة كما كانت تتخيل دوماً بل فتنة للرائي، لو أنصف الناظرون!

سميرة: صباح الخير يا أمل.

أمل عابسة: صباح النور... إنتي اتصلتي بيا ليه إمبارح؟!

سميرة بابتسامة جانبية ساخرة: أبداً كنت عايزة أقولك إن رمزي رفض إني أساعده في رعاية أمه!

أمل: طب وإيه فيها دي؟!

سميرة بتعجب: إنتي غريبة أوي، بتقولي كلام وتقولي نقيضه في نفس الوقت!

أمل بعصبية: ليه بقى؟! في إيه تاني؟!

سميرة: يا بنتي مش كده يبقى معناه إنه مش جاد في العلاقة، طالما مش عايز يعرفني بأمه؟!

أمل تفرك جبهتها بكف مرتعشة: الله يخرب بيت الأمهات، مش عارفة يا سميرة... أنا ماعدتش عارفة حاجة! وخلاص كرهت نظرياتي وكرهت نظريات البشرية كلها في موضوع العلاقات ده!

سميرة في حيرة يائسة وهي تنظر لأمل في تضامن، والدموع تلمع في عينيها: طب هنعمل إيه دلوقتي يا أمل؟!

أمل بيأس: مش عارفة!

(٤)

نحن النساء وبكل بساطة، نرفض الحقيقة الواقعة أمامنا على الأرض، والتي تصرخ أحياناً بأعلى طبقة صوتية لديها في وجوهنا: أنا هنااااااااااا، انظرن نحويييييييي! لكننا ببساطة نتجاهل النظر والسمع، مصرات على حقيقة واحدة موجودة داخلنا، نعتمدها دون غيرها ونقدم لها جميع مبررات الوجود، فقط حتى تظل قائمة. بصراحة وبدون أن تغضبن مني يا بنات: نحن نتشبث بالأشياء زيادة عن اللزوم، ولا نعرف كيف نترك ما هو واضح أنه غير مقسوم لنا.

كان من الواضح تماماً أمام سميرة وأمل بالتبعية، أن موضوع رمزي "فيه إن"، لكنهما أخذتا تلتمسان الأعذار، وتقدمان التبريرات، وترجئان خطوات، وتفتعلان حقائق لا تريانها، لكنها ربما تحدث خلف الستار في حياة رمزي غير المرئية لهما. أولاً كانت والدته المعقدة نفسياً، ثانياً أدويتها الكثيرة ذات الأوقات المختلطة بين الصباح والمساء، فإذا ما ضبطت سميرة إيقاعها على مواعيد الصباح، دخل عليها رمزي بموعد مسائي، فإن عدلت صباحها بالمساء، خرج عليها بموعد بعد الظهر، أو بعد العصر، أو في منتصف الليل، الخلاصة؛ ومن الآخر كما اعتدنا أن نلخص حكاوينا، هو لا يظهر إلا عندما يريد، ويختفي عندما تريده هي.

كان هذا ملخص بدايات الفصل الثاني من مسرحية "سميرة ورمزي"، فبعد أناقة وسحر وهيام الفصل الأول، دخلنا على نقطة الصراع والتي بدأت إرهاصاتها خلاله، ولكن بالتركي "يا واش يا واش"، وبالمصري "حبة حبة يا ملواني"! فالأم كانت حاضرة غائبة بموقفها

المأساوي من الحياة، ودائماً ما تكون الأم لدى جميع الرجال، نقطة ارتكاز ما، ينطلق منها أحدهم عابساً أو مبتهجاً، ضعيفاً أو قوياً، منغلقاً أو منفتحاً، وهكذا حتى نهاية المتناقضات في الكون. ورمزي بدأ خيط الصراع بمشهد لأم مهجورة، ضاعت أحلامها على صخرة زوج قاس، تركها ومضى، غير معتبر لرغباتها في الحياة، بعد سنين طويلة من الزواج والكفاح من أجل تربية الأبناء.

في الفصل الثاني، بدأت صورة الأم تتضح أكثر لتهيمن على ما عداها مع اقتراب إسدال الستار على أحداثه، ولكن قبل أن يصل الستار إلى أرضية المسرح، ألقى رمزي بمفاجأة قمة الصراع في المسرحية، ألا وهي مشكلة الإقامة لديه، فهو يعمل في شركة عقارية بدون إقامة سارية داخل أراضي دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث إنه مدين بمائة ألف درهم، سحبها على شكل قرض من أحد البنوك، وعندما تم فصله من عمله السابق تم إخطار البنك، فحجز على جميع نقوده، وعمم على اسمه في جميع موانئ الخليج البرية والجوية والبحرية، حتى يتم القبض عليه عند الخروج أو الدخول، ونظراً لأن هذه النقود صرفها على زواج أخته الأسطوري، فهو لم يعد يمتلكها بأي صورة، ولولا أحد أصدقاء والده القدامى، لما استطاع الالتحاق بعمل جديد، وإن كان راتبه لا يتجاوز خمسة آلاف درهم في الشهر، ما يجعله غير قادر على تسديد القرض، فما يستلمه بيده من خزينة الشركة كل شهر، بالكاد يكفي تفاصيل حياته وأمه، وعندما كادت "شراشيب" الستارة تلامس الأرض، قال رمزي جملة قمة الحبكة في المسرحية: أنا خايف أظلمك معايا يا سميرة.

وبالطبع أجابت سميرة بالجملة التي يحبها الجمهور: أنا بحبك يا رمزي، ومستعدة أستحمل معاك أي وضع! وعندما نظر إليها رمزي بعينين زائغتين مشككتين في ما تقوله، أكدت بقولها: أنا مستعدة أستناك لآخر يوم في عمري.

كان لابد أن أنهي المشهد هنا بموسيقى تصويرية رومانتيكية عاصفة، لكنني في الحقيقة سأترك لكم اختيار الموسيقى التي تفضلونها! لأنني أحب أن أضيف معلومة مهمة، ألا وهي: الجمهور الذي يفضل تلك المشاهد، هو الجمهور النسائي، حيث إنه في عالم الرجال مثل تلك المشاهد وهذه الجمل المتكررة منذ الأبد؛ ليست مفضلة، وتبعث على السأم والشعور بالنعاس!

لم تستطع أمل أن تجيب سميرة بشكل قاطع على الموقف الذي سردته، فهي ببساطة تعلم في قرارة نفسها، أن هناك أمراً مريباً في الموضوع، فلماذا لم يفتح رمزي موضوع مشكلة إقامته غير الشرعية في الإمارات قبل ذلك؟! خاصة أنه وسميرة يخرجان معاً بشكل رسمي أمام الناس منذ ستة أشهر؟! يذهب إليها ليلقاها أسفل مقر عملها، يخرجان بشكل شبه يومي في المساء، يمضيان عطلة نهاية الأسبوع معاً أو ضمن مجموعة من الأصدقاء، حتى إن رمزي تحول بشكل أو بآخر إلى صديق لأمل، وكثيراً ما كان يتصل بها ليتحدث معها في شئون تخص سميرة، مثل ماذا تحب كي أحضره لها كهدية، وما هي أكلتها المفضلة حتى أعزمها عليها في نهاية الأسبوع، أو يشتكي لأمل بعضاً مما أغضبه منها حتى تعينه على فهمها أكثر، بما يسمح ونجاح العلاقة. كل ما سبق جعل أمل تؤمن تماماً بأن رمزي بالفعل يحب سميرة، وأنه يمضي قدماً في طريق التقدم لخطبتها رسمياً.

ما الذي يحدث إذن؟! موضوع إقامته المفاجئ هذا، يحمل بعضاً من أعراض الانسحاب التكتيكي من العلاقة، لأنه أيضاً وبمنتهى البساطة،

يستطيع أن يبيع سيارته وسلسلاه الذهبي وساعته الرولكس ليسدد دينه أو بعضاً منه! مع ذلك جلست أمل، وبنوع من الإصرار الأنثوي العجيب على إنجاح علاقات الحب رغم أنف الزمن، تبحث عن مبررات تفسر بها الأمر مع سميرة، لينتهي الكلام بينهما بجملة مهمة جداً في النقاشات النسائية: أكيد كان خايف يقولك من الأول لحسن تسيبيه وترفضي تكملي معاه!

في ذلك الوقت، دخلت أمل مع عادل في صراع من نوع آخر، من الممكن أن أطلق عليه "حمى الفراش"، فبعد مغادرة والدته أرض الإمارات، عائدة إلى أرض الوطن السعيد! أحب كل منهما إثبات ملكيته لأرض الآخر، فكانت الطريقة الوحيدة للإثبات هي ممارسة المواجهة جسداً لجسد، بكثرة، وبعنف، وبلا استحياء! انتقل عادل بشكل مؤقت إلى منزل أمل، فقد فوجئت به في تمام الساعة الحادية عشرة مساءً في أحد الأيام الصيفية، وفي ظل صوت التكييف الهادر، يدق جرس الباب دون إعلان مسبق، تعجبت قليلاً بعد أن رأته مدوراً ومنبعجاً عبر العين السحرية، وقالت بهمس وهي ترفع حاجبيها إلى أعلى نقطة تعجب ممكنة في الجبهة، بينما تصعد شفتاها مفتوحتين إلى أقصى اليمين: **WHAT؟!**

عادل مبتسماً بعينيه الانتهازيتين، وهو يدخل من الباب ويلقي بحقيبته على الأرض، ثم يلتقط أمل بذراعيه، ساحباً قبلة عميقة كادت أن تسحب لسان المزمار من حلقها: وات في عينك، اخرسي خالص! إنتي مش عاجبك إني جيت ولا إيه يا بت إنتي؟!

أمل بعد أن عادت بسلام إلى الأرض: بت في عينك! هو أنا أطول يا عادل بك، ده إنت تآنس وتشرف، بس إيه الشنطة العجيبة المنبطحة أرضاً دي؟!

عادل فاتحاً ذراعيه عن آخرهما، في إشارة لأمل كي تستقر بينهما وهو مستريح بكامل بنيان جسده المهيب على الأريكة: إمشي! أنا شنطتي واقفة وشاخة الرأس كمان... تعالي هنا وبطلي غلبة.

بعد هذه الجملة الإيروتيكية الذكورية البحت، لا أستطيع أن أصف بالتحديد ما حدث، فهو لا ينتمي إلى أي صورة رومانتيكية في أذهانكن! وأعني بنون النسوة هنا أنني أخاطب النساء بالتحديد، لأن الذكور بالطبع لا يحلمون بأي شموع أو موسيقى هادئة في الخلفية للجنس، وإنما يتخيلون تماماً ما قام به عادل في تلك اللحظة العاصفة، أو العاصرة، وفقاً لما قام به بالفعل مع أمل، لينهي الحدث بجملة قالها وهو مستلق على ظهره إلى جوارها على الأرض: مش ممكن، بقالنا أربع سنين مع بعض ولسه ما زهقتش منك!

أمل من بين خصلات شعرها المتشابكة في سوريالية معقدة: أربع سنين ونص!

(٥)

لم تتمكن أمل وسط زحام العمل والمنزل، الذي انتقل إليه عادل، مضيفاً إلى حاجاته قطعة جديدة كل يوم، من زيارة طبيبتها النسائية لتركيب اللولب الجديد، بعد أن طلبت منها الانتظار قليلاً لحين علاجها من التهاب بسيط في المهبل، ووصفت لها حبوباً لمنع الحمل، لتستخدمها بشكل مؤقت لمدة شهر، لكن الشهر امتد إلى شهرين وثلاثة، حتى استيقظت صباحاً على حقيقة مفجعة، ألا وهي تأخر دورتها الشهرية عشرة أيام!

صارحت عادل بالحقيقة المرة، لكنه لم يعلق بجدية على الأمر وهو يطل عليها عبر منضدة مطبخها الأميركي التصميم، بينما يقبض بكفه اليمنى على كوب القهوة الساخن: طيب وإيه المشكلة؟! بكره تييجي.

نظرت أمل إليه بهلع محاط بهالة من الاستهجان، قائلة: إنت مش بتفهم ولا إيه يا عادل؟!

نظر إليها بعد سحب رشفة من قهوته الصباحية، وهو على نفس الهيئة لم يغيرها، فقط أضاف ابتسامة: لا بافهم يا روح خالتك! ليه؟!

أمل: عادل، أنا ممكن أكون حامل!

عادل: طيب ماشي ولو حامل، فين الأزمة؟!

أمل بعد أن نهضت من موضعها، وبأعلى طبقة صوتية لديها: إنت عبيط؟!

يضع عادل كوب القهوة على المنضدة، ليخرج من المطبخ نحو أمل، حاضناً إياها وماسحاً على شعرها في حنان مدبر: حبيبتي لو طلعتي حامل هيكون خبر سعيد، والموضوع مش هيكلفنا غير مشوار على السفارة نكتب كتابنا، ونستنى البيبي ييجي على مهله بعد كده!

هل قال هذه الجملة فعلاً لأمل؟! نعم قالها بصوت مسموع، ثابت غير مهتز، واثق لا تشوبه لحظة شك واحدة، وبحروف سليمة واضحة وضوح الشمس بكل إزعاجها القاتل. لم يكن ينقص أمل طفل آخر في الحياة، وهي التي تتعمد إنكار أمومتها لمخلوق يتنفس على الأرض بالفعل. خروج طفل آخر من بين فخذيها إلى هذا العالم، أمر يقترب من عالم المستحيلات، أو ربما المرفوضات بشدة، ودون أدنى رغبة في المناقشة أو

البحث أو إعادة النظر؛ فرحها مغلق للأبد، ولا توجد فرصة ولو ضئيلة لفتحه إلا لممارسة الجنس، والجنس فقط!

في المساء عادت أمل من عملها تحمل في حقيبتها جهاز اختبار الحمل، اشترته من إحدى الصيدليات في شارع الشيخ زايد بدبي، هناك لا يعرف الناس بعضهم بعضاً، كلهم عابرون بلا توقف ولا ملامح مميزة. دخلت إلى الصيدلية بحذر، تنظر حولها كمن ارتكب جرماً وينتظر القبض عليه في أي لحظة، بصوت هادئ جداً مغلف بنعومة لا تخصها بأي حال من الأحوال، همست للصيدلانية المحجبة والتي تضج ملامحها بانتماء عربي صريح: لو سمحتي عايزة جهاز اختبار حمل!

بسلاسة وانسيابية رائقة، أشارت برقبتها أن "حاضر تؤمري سعادتك"! ودارت بوجهها تجاه أحد الأرفف، ساحبة منه علبة كرتونية مستطيلة قدمتها لأمل في هدوء قائلة: ٧٠ درهم.

أثناء محاولات أمل المستميتة من أجل إخراج النقود من بين دهاليز حقيبتها، أخذت تردد بنفس النعومة المزيفة: أصل الدورة اتأخرت عشرة أيام، وأنا لسه عندي بيبي صغير ومش هاقدر أراعي الاتنين كده لو في حمل، بس جوزي فرحان وعايز بيبي تاني!

وسط ربكتها وهي تسلم الصيدلانية النقود، لم تتلق منها سوى ابتسامة متكلفة وكلمة جامدة: بالتوفيق، ثم انشغلت بزبون آخر.

خرجت أمل من الصيدلية في حالة دهشة من نفسها، لماذا رصت كل تلك الكلمات السابقة، مكونة جملة لا يصلح استخدامها إلا في مسلسل عربي غبي؟! وما الذي يخص تلك الصيدلانية بحالتها العاطفية أو الجنسية أو موقفها من جنين متوقع داخل رحمها؟! من أين أتى أو كيف تم تصنيعه

داخلها، بورقة أم من دونها؟! سارت كالعادة نحو سيارتها تؤرجح ذراعها التي تنتهي بكيس الصيدلية المستريح داخله "جهاز كشف الحمل"، وهي تنفخ وتسب وتلعن نفسها المعبأة بقائمة لا نهائية من الازدواجيات.

كان عليها الانتظار حتى الصباح، كما ذكرت التعليمات بالنشرة الداخلية للجهاز، لكنها سارعت إلى فراشها ساحبة الغطاء أعلى وجهها مثبتة إياه بكفيها، بينما قرصت بأصابع قدميها في تشنج على طرفي الغطاء من الناحية الأخرى، رافعة ركبتيها لأعلى، لتصنع كوخاً ضيقاً تنحشر داخله. تفتح عينيها عن آخرهما ولا تفكر في شيء، فقط سيل من الدموع وارتعاش خفيف لا يشعر به سواها. عندما عاد عادل إلى المنزل، لم يعلق على الكوخ المثبت فوق الفراش، فقط غير ملابسه وغسل أسنانه ثم نام إلى جوار أمل في صمت، ولم يحاول هدم الكوخ، فقط همس: تصبحي على خير يا مشمشة.

"مشمشة"، الاسم الذي تعشق أمل سماعه من حبيبها، لكنها أبداً لم تصرح له بذلك، تنتظر أن ينطق به من حين لآخر في ترقب، لتبتسم عيناها بطفولة يراها عادل جيداً، لكنه لا يفصح بكشفه للأمور. يستمر في اللعبة التي تفضلها أمل، حتى لا يخسرها. هو يحبها فعلاً ولا يرجو سواها، بعد سنين طويلة من تجارب لنساء لا يعرفن شيئاً عن فنون الحرب والقتال، يتلقين فصول الحياة كأمر مسلم به، ينصعن دون إرادة لجميع متطلبات الأهل ومن ثم الأزواج. لا يمكنه أن ينسى حبيبته في الجامعة، التي تزوجت مباشرة بعد انتهاء الدراسة، دون أن يطرف لها جفن، وهي تخبره أن هذه هي إرادة والدها، التي لا يمكنها أن تخالفه. وتلك التي أعادت له "الدبلة"، لتتزوج بعد أسبوع من طبيب أصلع منتفخ يكبرها بخمسة عشر عاماً، لكنه

يمتلك شقة معبأة برفاهيات الحياة، وتستريح سيارته الطويلة العريضة أسفل المنزل. كره النساء اللائي يختصرن الحياة في الطاعة وعبادة المواد الاستهلاكية، كره من يفتحن أقدامهن للغرباء بورقة رسمية، وضمان وسيلة انتقال سهلة، وسقف يسترن أسفله، قبل أن يتبرم الأهل من بقائهن دون زواج.

كانت أمل بالنسبة إليه النقيض الذي يبحث عنه، تلك المرأة التي ترفض المسلمات وتفعل ما تريده فقط، حتى لو خالفت قانون القطيع، حتى لو لفظها أهلها والمجتمع، حتى لو اضطرت إلى التسليم بالخسارة ضمن إطار المعركة، وأثناء القتال الشرس.

نام إلى جوار حبيبته تداعبه الفرحة، وقلبه يخبره بأنها فعلاً حامل، يفكر أنه الآن ليس مضطراً إلى نسج قصص خيال علمي ولا مخلوقات فضائية ستغزو العالم، حتى تذهب أمل معه لعقد قرانهما في السفارة، أو حتى السفر إلى القاهرة للزواج هناك وسط عائلتيهما، هي الآن لا يوجد لديها جلول أخرى، أو هكذا هُيئ له!

تعمدت أمل ألا تخرج من داخل كوخها، حتى ينتهي عادل من جلبته الصباحية، وتسمع صوت الباب يُغلق من ورائه. كجبانة حقيقية، تسللت خارج السرير بوهن، تحيط بعينيها دائرتان سوداوان كاملتا الاستدارة. اتجهت نحو حقيبتها المستقرة منذ أمس في ركن قصي على الأريكة، فتحتها بحذر، وبأصابع مرتعشة بوضوح تناولت جهاز اختبار الحمل. أخرجته من علبته، وجلست تقرأ الإرشادات الخاصة بكيفية استعماله. في حملها الأول لم تحتج إلى هذا الجهاز، ذهبت مزهوة بخصوبتها بعد شهر واحد من زواجها إلى الطبيب النسائي، وأجرت تحليلاً للحمل بالمختبر الصحي، وسط رعاية

مشددة من أمها وزوجها، لكن هذه المرة اختلف الوضع، فقد لفظت رعاية أمها منذ زمن، وألقت بزوجها خلف ظهرها دون تردد، ولا تنتوي الوقوع في فخ الزواج مرة أخرى حتى لو كان الزوج عادل. هي لا تمتلك القدرة حتى على افتعال الثقة برجل، هي لا تمتلك القدرة على الإمساك بقلم وتوقيع صك زواج جديد، هي فقدت كل قدرة عصبية على العيش ضمن أطر موثقة في المجتمع.

اتبعت التعاليم بحرص داخل الحمام، نظرت إلى المؤشر وقلبها يكاد أن يتوقف، ارتعش كفها وسقط الجهاز على الأرض. هي بالفعل حامل! ما العمل الآن؟!

(٦)

احتاجت أمل إلى أربع ساعات حتى تتمكن من جمع تفاصيل جسدها لتنهض من فوق فوهة المرحاض، وربما استغرق الأمر أكثر من ثلاثين دقيقة حتى تعبر المسافة الفاصلة بين الحمام وأول أريكة تقابلها في صالة منزلها! نزل مشهد إشارة الحمل الإيجابية عليها كانهيار واحد من أبراج شارع الشيخ زايد على رأسها! لم تستطع أن ترسم سيناريو لخطوتها المقبلة، لكن ما كانت متأكدة منه أنها ستجبن عن توقيع صك الزواج بعادل، رغم أنها في أعماقها تتمناه، ليكون رجلها إلى النهاية، حتى لو ارتكب حماقة الخيانة. هي تحبه إلى هذا الحد، حد أن تتغاضى عن أي وكل حماقة قد يرتكبها في حقها، ولذلك عقلها يرفض توقيع صك العبودية، ولن يترك زمام أمورها لقلبها الضعيف الهش، الذي يشبه قلوب جميع النساء، اللائي يفضلن العيش مخدوعات بمزاجهن ولا يتخذن مواقف إيجابية، جل ما ستكلفه إياهن أن

يعشن معتمدات على أنفسهن بشكل كامل، وأن يواجهن المجتمع بصدر مفتوح لمواجهة جميع الطعنات بشجاعة.

سحبت هاتفها المحمول واتصلت بعادل، تعلم مسبقاً أنه لن يجيب. ألقت بالهاتف جانباً وذهبت إلى الكمبيوتر لتديره، وتبدأ عملية البحث عن حل لمصيبتها. بعد بحث طويل اكتشفت أن الحل الأمثل والمضمون للإجهاض، هو إجراء عملية، وبما أن هذه الخطوة قد تجلب الكثير من المخاطر في الإمارات، فالأضمن أن تجريها في مصر. أجرت اتصالاتها بعدد من صديقاتها المقربات في القاهرة، وبقليل من قصص الخيال النسائي استطاعت أن تحصل من إحداهن على عنوان ورقم هاتف مستشفى النساء والتوليد للدكتور محمد فواز في ألماظة. كما أخبرتها صديقتها، فهم يجرون عمليات إجهاض بشكل يومي، وأنها بالفعل أجهضت عنده مرة من قبل، عندما فوجئت بحملها، ولم تكن مستعدة وزوجها لطفل آخر في هذا الزمن الصعب. كما أوصتها بأن على "صديقتها" الحامل أن تذهب في صحبة زوجها، حتى لا يكون موقفها محرجاً!

اتصلت أمل بالمستشفى، وتمكنت من تحديد موعد بعد ثلاثة أيام الساعة العاشرة صباحاً، لإجراء عملية الإجهاض. لم يتبق لها سوى إعلام عادل، الذي تخيلت أن إعلامه سيكون سهلاً، وأنه بالتأكيد في قرارة نفسه يريد التخلص من الطفل، فأين هو ذلك الرجل الذي يرغب في ارتباط مرهون بأعباء أسرية؟! فالرجال جميعهم يتزوجون لأنهم لا يملكون خياراً آخر لمضاجعة النساء. رددت أمل هذه الجمل داخلها في بساطة شديدة، ثم نهضت لتغتسل مما علق بجسدها من توتر وقلق منذ طلوع النهار.

في تمام الثانية عشرة مساء، عاد عادل آملاً أن تكون قد رضخت لفكرة الزواج به، كحل وحيد للخروج من أزمة الحمل. لم يمر بخاطره للحظة، أنها ستكون قادرة على اتخاذ قرار الخلاص من ابنهما. داعبت مخيلته صورة طفل يحمل ملامحهما معاً، يتسم بهدوئه وجنون أمه، يأخذ ملامح وجهها، بينما يتمتع بقامة والده الطويلة والعريضة، وضحك كثيراً عندما تخيل أن عضو ابنه الذكري سيكون مماثلاً لعضوه! وسيتحلى بنفس شقاوته ويقظته الدائمة. فكر أنه سيكون متعباً لجميع الفتيات اللائي سيقعن في غرامه، وأنه سيبدأ مشواره الجنسي الطويل من سن الثالثة عشرة، ليسبب "خوتة" مبكرة لأمه..." أمل"!

لا أدري لماذا لم يمر بخاطر عادل، أن داخل أمل خَرِب إلى الدرجة التي يمكنها أن تلقي بنطفته في صفائح زبالة دكتور فواز؟! لكن ما حدث هو أنه عاد في ذلك اليوم مستعداً بقلب يكاد يرقص لأن يسمع خبر حملها، ليبدأ بعد ذلك في إجراءات الزواج بالسفارة، أو حتى في مصر، المهم هو أنه سيتزوج تلك المجنونة التي قلبت حياته رأساً على عقب، لتصبح امرأته إلى النهاية.

الإجابة التي لم ينتظرها عادل كانت في استقباله، بمجرد أن دخل من باب المنزل، فقد كانت أمل جالسة أمام التليفزيون، تحمل الريموت كنترول في كف، وفي الأخرى تتعلق سيجارتها، يتصاعد دخانها لأعلى راسماً لوحة سوريالية تعبر بصدق عن دواخلها. لم يحاول عادل أن يرسم خيوط الأمل في الأفق مع لوحة أمل المرسومة على الأريكة، فقرر الدخول فوراً في الموضوع، وبأقصى ما يمكن أن يحصل عليه من هدوء، جلس إلى جوارها مقبلاً يدها التي تحمل الريموت كنترول، ثم دخل مباشرة في الموضوع: هاه يا حبيبتي ....إيه الأخبار؟!

التفتت إليه أمل وقد تمكنت من رسم ملامح اللامبالاة والصرامة على وجهها، لكنها لم تتلفظ بأي كلمة، فاضطر عادل إلى أن يكمل الحديث الذي بدا له أنه لن تُحمد عقباه: إيه يا حبيبتي... واضح من السيجارة إن نتيجة اختبار الحمل سلبية؟!

نهضت أمل من مكمنها الذي جاهدت من أجل رسم لوحتها الباردة داخله، ثم التفتت بميكانيكية وخطوات محسوبة باتجاه عادل، وفي هدوء يغلي قالت من بين أسنانها، محاولة تزييف ابتسامة: لأ! النتيجة إيجابية!

نهض عادل في حركة تمثيلية مفتعلة، ضاماً أمل بين ذراعيه وماسحاً على شعرها قائلاً: ألف مبروك يا حبيبتي، كده بقى أحجز للقاهرة ننزل نكتب الكتاب ونرجع.

وببطء ميت سحبت ذراعيها من حوله، ثم دست كفها اليمنى بين جسديهما ودفعته بعيداً، ثم قالت ودموعها متجمدة في عينيها: إحنا هنحجز تذكرتين عشان أنزل أعمل إجهاض... أنا رتبت كل حاجة خلاص!

عادل في ثبات مُصِر: أمل... أنا مش هاسافر مصر غير علشان نكتب كتابنا، لكن لو مصرة على الإجهاض يبقى تسافري لوحدك!

إلى هنا ولم تتمكن أمل من الاستمرار في تمثيليتها الحجرية، فعادت تلقائياً إلى طبيعتها الكابية مرة أخرى، وأخذت تصرخ بأعلى صوتها: إنت عايز تستغلني وتلوي دراعي؟! كلكم واحد...كلكم خونة... عايز تجبرني على الجواز منك عشان تسحب روحي بعد كده بصك العبودية اللي مفروض أوقع عليه بإرادة كاملة؟! عايز تستعبدني بذل الأمومة؟! لأ مش أنا... أنا مش غبية عشان أكرر المصيبة تاني.

لم يكن من السهل أن يستوعب عادل جُمل أمل، المتدافعة كالرصاص الحي نحوه؛ بسهولة. لم يستطع في هذه المرة أن يستوعب جموحها وآلامها وإحباطاتها التاريخية، والتي تصر على التقوقع داخلها. "أنا إنسان في النهاية"، هكذا قال لنفسه قبل أن ينظر نحو أمل بثبات ويقول: في لحظة حطتيني في نفس الكفة مع طليقك الخاين وأبوكي العنيف، من غير تفكير في كل اللي بينا قررتي ترمي ابني في زبالة عيادة، ما أخدتيش وقت يا أمل قبل ما تقرري تخلصي مني بدم بارد.

لم تستوعب أمل أن ما يقوله عادل يعني أنه سيرحل هذه المرة ولن يعود، لم تفهم أن بإمكان الرجال أن يحبوا فعلاً حتى لو كانت الحبيبة هي، وأنهم قد يصابون بجروح قلبية تكسرهم وتحني هاماتهم، لم يكن هناك غير الظلام الذي يسكنها والرغبة المستميتة التي تسيطر عليها دائماً في أن تنقذ نفسها من هلاك الذكور: اللي بينا واضح من البداية ومفيهوش عشم.

(٧)

عقب عودتها من القاهرة خاوية الأحشاء، حاولت باستماتة أن تصل إلى عادل، لكن دون جدوى. مكالماتها ضاعت في الأثير، ولم تتلق أي نوع من أنواع الإجابة عليها، حتى إنها ذهبت إليه في مقر جريدته، لكنهم أخبروها في مكتب الاستقبال بأنه غير موجود، ولم تفكر مرتين قبل أن تتوجه إلى منزله، لكن أحداً لم يفتح لها الباب، كانت على استعداد أن تتقبل خروج امرأة عارية أمامها على باب بيته، على أن يستقبلها الصمت، وبعد

شهرين من الدوران حول نفسها في محاولة الوصول إلى حبيبها، قابلت أحد زملائه بالجريدة صدفة في "كارفور"، فجرت نحوه بشكل أثار ريبته وزوجته التي كانت تجاوره، لكنها لم تهتم لذلك، فقط أرادت أن تعرف أين عادل؟!

إنتي ما تعرفيش؟! عادل أنهى تعاقده من شهر ورجع مصر.

هل هذه هي النهاية؟! هل هكذا ألقت بحبيبها من وراء ظهرها، وعليها أن تمضي في الكون بلا إحساس؟! أي إحساس على الإطلاق، ولو حتى مجرد وجع طفيف على حواف قلبها!

أثناء ذلك كله، لم تكن سميرة تعيش لحظات عشقها الهنية، فقد كانت لا تزال تدور حول نفسها حتى تتمكن من فك خيوط عقد الحبكة الدرامية الخاصة برمزي وأمه، حتى قررت في ظل غياب أمل المتعمد عن ساحة أيامها، أن تفتح مع رمزي الموضوع بشكل واضح ومباشر، حتى لو كانت تلك الخطوة خاطئة في تكتيك العلاقات بين الرجال والنساء. اتصلت برمزي، وبمجرد أن أجابها لم تُضع الوقت في أي سلامات وكلمات افتتاحية: ألو يا رمزي.

رمزي: سميرة... إزيك يا حبيبتي.

سميرة: رمزي هو أنا حبيبتك فعلاً؟! يعني بكل وضوح كده إنت عايزني ولا لأ؟!

رمزي: ليه بتسألي الأسئلة دي يا سميرة؟! إنتي عارفة إني بحبك.

سميرة وقد لان صوتها قليلاً: أصلي بصراحة ما عدتش فاهماك، موضوع مامتك وبعدين مشكلة الإقامة والقرض بتاع البنك، ظهروا فجأة، وخايفة ليكون الموضوع لمجرد إنك عايز تخلص مني!

رمزي وقد ظهر على صوته الانزعاج الشديد: إنتي إزاي تقولي كده؟!... أصلاً إزاي تعتقدي إني ممكن ألفق قصص عشان أخلص من حد؟! يا سميرة أنا لو عايز أخلص منك فعلاً كنت قلتلك مباشرة إني مش هاقدر أكمل علاقتنا، لكن أدعي المرض على أمي بالباطل، وكمان ألفق مشكلة إقامة لنفسي؟! أنا مش مستوعب إزاي تفكيرك يوصل بيكي لكده؟!

شعرت سميرة أنها أوقعت نفسها في مأزق حقيقي، قد يودي بحياة قصة حبها مع رمزي، لم تعرف ما الذي عليها أن تنطق به في هذه اللحظة، فسبت أمل في داخلها، ولعنت اختفاءها الدائم في اللحظات الحاسمة، ظلت تردد: رمزي أنا... أنا... أنا..

فقطع عليها رمزي أسطوانتها التي شرخت، وقال: سميرة... أنا بحبك.

التقطت سميرة الجملة كغريق تعلق بقشة، وسارعت قائلة بلهفة: والله وأنا كمان بحبك!

رمزي وقد زال الانفعال عن طبقة صوته: عايز أشوفك حالاً.

في ذلك اليوم التقت سميرة برمزي، وخطت بكامل إرادتها نحو منطقة أكثر عمقاً في علاقتها معه، فقد فعل تماماً مثلما أخبرتها أمل، وطلب في إلحاح لم تقو على مقاومته طويلاً أن يصعد معها إلى شقتها، وحدث ما هو متوقع! خرجت سميرة لأول مرة في حياتها من شرنقتها، استطاع رمزي أن

يزيل عنها قشورها المتوالية قشرة بعد قشرة، لم تتمكن من الرفض، فقد أحبت ذلك، أحبت أن ترى جسدها يهب من سباته العميق داخل ظلمته، أحبت ملمس يد رمزي على جسدها، الحق أنها أحبت ملمس يد الذكر على جسدها! أدركت لأول مرة أنها عاشت ثلاثة وثلاثين عاماً كاملة في عطش، وأنها ولأول مرة تذوق طعم الماء في عمرها كله. كان رمزي حذراً في التعامل معها، لكنه استطاع أن يقضي وطره بطريقة أو بأخرى، دون أن يفض عذريتها. قال لها وهو مستلق على الفراش إلى جوارها، عريه يجاور عريها: أنا حافظت عليكي عشان ليلة دخلتنا يا سميرة، بس ربنا يشهد علينا إنك مراتي من اللحظة دي!

في اليوم التالي لذلك اللقاء ركبت سميرة السحاب، وتبخترت على نِدَفه المبعثرة في السماء. لم تشعر بالزحام وهي في طريقها إلى العمل، ولا باكتظاظ البشر في المصعد وهي متوجهة نحو الشركة، وبمجرد أن دخلت إلى المكتب؛ استقبلت كل البشر بابتسامة مترعة بالمحبة، وعيون طفولية كادت أن تفقدها في الإمارات المكتظة بالروح العملية، وعندما وصلت إلى مكتبها استراحت بجسدها على المقعد يطغى عليها إحساس قوي بالشبع.

نسيت سميرة أمل تماماً، ولم تتساءل حتى بينها وبين نفسها: أين هي؟! أو لماذا اختفت من داخل الأيام؟ انشغلت بكونها زوجة، فقد صدقت عميقاً جملة رمزي التي تعود إلى أفلام الستينات: ربنا يشهد علينا إنك مراتي من اللحظة دي! كان من المفترض أن يعقب الجملة نغمة "كمان" على مقام الصبا، بينما تمتلئ عيون المشاهدين المفترضين للمشهد بالدموع، وابتسامة قصيرة مرتعشة تتراقص على وجوههم، لكنني للأسف لا يمكنني توفير ذلك على صفحات كتاب!

قطع صوت الكمان الذي يلعب في خلفية مشهد الزوجة المشبعة، الذي كان يطغى على بصر سميرة، رنين الهاتف الأرضي على مكتبها، فرفعته كالملسوعة مجيبة: ألو... أيوه يا باش مهندس... أيوه خلصته... حاضر هاجيب لحضرتك الماكتات كلها فوراً.

حملت سميرة "الماكتات" المطبوعة والمصفوفة بحرص شديد إلى جوار طابعة الـ"إتش بي ديسك جيت"، وانطلقت نحو مكتب مدير الشركة، الذي قال لها بعدما انتهى من مطالعة "الماكتات" بإعجاب: سميرة، أنا معجب بشغلك جداً، إنتي فعلاً أثبتي جدارة وتميز عمري ما كنت أتخيلهم، عشان كده أنا مش هالاقي أفضل منك أبعته لقطر.

سميرة بهدوء فرح: قطر؟! أعمل إيه في قطر يا باش مهندس؟!

المدير: هتعملي الماكتات بتاعة مشروعنا هناك، وبالمرة تدربي المهندس اللي بيشتغل نفس شغلتك في مكتبنا في قطر، لأنه صغير ومحتاج شوية تدريبات، ومفيش أفضل منك يعمل الموضوع ده عندي.

زفت سميرة الخبر لرمزي فرحة، فأجابها بدبلوماسية أنه سعيد لأجلها جداً، وإن كان سيشتاق إليها كثيراً، أما أمل فلم تجب على اتصالها، وهي لم تشغل نفسها بضرورة التحدث إليها. كانت سميرة تعيش لحظات انتصار غير مسبوقة في تاريخ عمرها الذي تجاوز ثلاثين عاماً، فهي الآن زوجة! ومهندسة ناجحة.

وهي تستعد للسفر إلى قطر، تلقت اتصالاً هاتفياً من أمل، تسألها عن أحوالها، فأخبرتها عن رحلتها المزمعة إلى قطر والتي ستستمر شهراً تقريباً. لم تحتف أمل بالخبر كثيراً، فقط أخبرت سميرة أنها قد تضطر إلى السفر للقاهرة في زيارة سريعة، كي تطمئن على أمها وابنها وتعود. انتهت المكالمة

في أجواء جافة من الطرفين، اللذين كان واضحاً تماماً أنهما يشعران بثقل وجود الآخر في محيط حياة كل منهما.

طارتا؛ كل إلى وجهتها، عادت أمل بعد ثلاثة أيام في القاهرة، أتمت فيها مهمتها القصيرة والسريعة والحاسمة، بينما عادت سميرة بعد شهر، عاشت خلاله جميع أنواع الأحلام بكامل صنوفها التي ذُكرت في روايات "عبير وزهور"! وحتى في الميثولوجي المعروف بالحلم الأميركي، أو إعلانات "أسرة صغيرة تساوي حياة أفضل"، التي أكل بها التليفزيون عيشاً على أقفيتنا لسنين طويلة! عادت إلى دبي وهي محملة بكثير من التوقعات، أولها أن يأتي إليها رمزي بخاتم الخطبة، والسؤال عن كيفية الوصول إلى والدها ليتُم مراسم الزواج. عندما أقلها رمزي إلى المطار وهي في طريقها إلى الدوحة، أخبرها بأن مشكلة إقامته على وشك أن تُحل، وأنه يتوقع بعد شهر تقريباً أن يدق طابع إقامته الشرعية في الإمارات على جواز سفره، لينتقل بعدها إلى العمل بأحد البنوك الأجنبية، وبعده سيتمكن من الزواج منها فوراً. كانت سميرة تُحدث نفسها بأنه ها هو الشهر قد مضى، وبالتأكيد تمكن من حل جميع أزماته ولن يتبقى سوى الزواج منها.

كانت سميرة تدفع الإجراءات بالمطار دفعاً، فهي أول من جرى خارج الطائرة بمجرد أن سمحت لهم المضيفة بترك مقاعدهم والتوجه نحو الباب. كانت تجري في ممرات مطار دبي الطويلة كالمجنونة، تلكز بقدمها اليمنى قليلاً، لكنها لا تشعر بأنها تملك أقداماً على الإطلاق، بل أجنحة تطير بها. أخذت تتوسل لطابور المسافرين المصفوف أمام الجوازات، حتى تختم دخول وتخرج لتحضر حقيبتها سريعاً. وبعدما أتمت جميع إجراءاتها خرجت مندفعة من باب المطار، تبحث بعينيها عن رمزي في جميع

الاتجاهات حتى وقع بصرها عليه. حاولت أن تدفع عربة الحقائب بسرعة نحوه، لكنه أدركها واتجه نحوها في خطوات أسرع ليأخذها في حضنه، مقبلاً إياها في جبهتها، ثم دفع العربة بالنيابة عنها، وسار صامتاً تحوم حول رأسه هالة سوداء، أغمضت عنها سميرة عينيها بقوة وتجاهلتها بإصرار.

بمجرد أن استقرت سميرة إلى جوار رمزي في سيارته، حتى بادرته بالسؤال: في إيه يا رمزي، مالك؟!

رمزي في جدية تبدو حزينة: أبداً... أنا كويس.

سميرة: لأ إنت مش كويس... طنط كويسة؟!

رمزي: الحمد لله كويسة.

سميرة: يبقى ما عرفتش تحل موضوع الإقامة... ولا يهمك يا حبيبي إحنا ممكن...

قاطعها رمزي قائلاً: سميرة، أنا آسف... فعلاً آسف... بس أنا ما عدتش قادر أحس تجاهك بنفس المشاعر اللي كانت موجودة قبل كده!

هل قال هذه الجملة فعلاً؟! نعم قالها ببساطة شديدة، وإن كانت بساطة تبدو حزينة وكابية، بدون سحب رمادية تظلل السيارة المتجهة بسرعة نحو الشارقة حيث تسكن سميرة. انعقد لسانها فترة، لكنها استطاعت أن تجمع بعض كلمات من تلك المخزنة في مركز الذاكرة بعقلها، وقالت متسائلة: طب واللي حصل بينا؟!

اندفع رمزي فوراً مدافعاً عن موقفه: سميرة أنا حافظت عليكي... أنا ما عملتلكيش حاجة!

سميرة: ما عملتليش حاجة؟! حافظت عليا؟! هو الموضوع عذرية يا رمزي؟!

رمزي مرتبكاً: مش فاهم! أمال تقصدي إيه؟!

سميرة: ما أقصدش حاجة!

بجوار البناية التي تقطنها سميرة، أنزلها رمزي واضعاً إلى جوارها حقيبتها ثم قال: أنا باتمنى نكون أصحاب، وإن ما تكونش دي نهاية معرفتنا ببعض.

لا تدري سميرة حتى الآن من أين واتتها الشجاعة، واستطاعت من دون مساعدة أمل أن تجيب عليه في قوة وثبات: إحنا عمرنا ما كنا أصحاب ولا هنكون!

واستدارت ساحبة وراءها حقيبتها باتجاه باب البناية الذي بدا بعيداً جداً، حتى إنها عادت لتشعر بإعاقتها من جديد، ولم تتمكن من رؤية سوى عرجاء بائسة تجرجر عجزها، مستميتة من أجل الوصول إلى مجرد باب... باب بنايتها

الفصل الثالث

(١)

عندما تصل إلى آخر ممر مظلم، وتكتشف أنه ما من طرق ممكنة يؤدي إليها، ماذا ستفعل؟! هل فكر أحدكم أن يجيب على هذا السؤال؟! هل تطرق إلى أذهانكم من الأساس؟ كان هذا حال أمل وسميرة وهالة ومنال. كل منهن وصلت إلى آخر الممر المظلم، وكل منهن اكتشفت أنه ما من طرق متاحة يؤدي إليها، وكل منهن انهارت بجسدها على الفراش عاجزة تماماً عن الفعل...

ربما بكت سميرة وأطلقت عويلها إلى فضاء غرفتها الضيقة، أو استعانت بالله ولزمت بيته في صلاة مستمرة يائسة، لم تجد غيرها كرد فعل وحيد متاح أمامها، فلم تصل مع ذلك إلا إلى نهاية نفس الممر الذي لم يرحمها حتى ببصيص من ضوء.

ربما دارت أمل حول نفسها في كل اتجاه، معبرة بطريقتها المتمردة والرافضة بأعنف ما يكون، فأباحت فراشها لرجال عابرين، حتى تثبت

لعادل الذي لم يكن يرى شيئاً، أنها قادرة على العيش من دونه، وأنه مجرد رجل يُمتعها ليس إلا، وأن الرجال الذين يمتلكون أدوات المتعة كثيرون، يعبئون الأرض ويكتظون على أرصفة الحياة، لكنها لم تصل إلا إلى نهاية الممر، لتنضم إلى صديقتها القدرية. لكن وهما مقرفصتان في برد الظلمة، انضمت إليهما هالة ومنال!

ربما يكون إله هناك يحبنا فعلاً! لكنه بالتأكيد يحبنا فقط دون أن يحرك ساكناً! قد تكون هذه هي طريقته حتى يُعلمنا أو يجعلنا ندرك حقيقتنا الشخصية، أو نخلق قيمنا الخاصة بعيداً عن نواميس صلبة لم تفكر في اختلاف البشر، ولا تطور الزمان، أو حتى في تعقيدات دواخلنا التي لا يكفيها الطعام أو المأوى، بل دائماً ما تأخذنا مشاعرنا إلى بعيد مبهم، دون أن يكون هناك قائد، أو حامل شعلة يلوح بها في الطريق الطويل. دائماً ما يكون الباب المغلق موضع تساؤل وريبة، يخلق فضولاً قاتلاً يجعلنا نفتحه في النهاية، لينفجر في وجوهنا صندوق "باندورا" الذي لا يمكننا العودة إلى الوراء وإعادته إلى حالته المغلقة، بل يجب أن نواجه كل العويل والنواح الذي سيندفع منه في وجوهنا!

لذلك لم يكن من الممكن أن تجلس نسائي الجميلات كثيراً دون حراك، عند آخر الممر، يواجهن الحائط الصد، محملقات في الظلمة، في محاولة لتجميع أي ضوء متاح داخل قاع عدسة عيونهن.

كم من الوقت مر حتى يقررن التحرك؟ لا أدري، فأنا لا أتذكر إن كانت أسابيع فقط هي التي مرت، أم شهور! لكن ما أتذكره جيداً؛ أن كل واحدة منهن انفردت بمدة تخصها وحدها، ربما تزيد فترة واحدة على الأخرى، لكن المؤكد أنهن سقطن متعاقبات كقطع دومينو متراصة، وقد

تكون أصبع الله هي التي دفعت الأولى، ليتساقطن جميعاً فوق بعضهن البعض!

كانت هالة قد عادت إلى حياتها الروتينية، تكدح في العمل وترسل زهورها الحمراء إلى حبيبها الهلامي، الذي اختفى عازماً على عدم الظهور، وكما اعتادت طوال حياتها، صمتت لتعود إلى النقطة صفر؛ تنتظره حتى يدرك أنها امرأته، وأن اتحاد جسديهما مسألة مكتوبة في النواميس العلوية، لن يستطيع الفرار منها إلى الأبد! أما منال فهي بطبيعة الحال تسير داخل عجلة زمنها الخاص، وتؤدي دورها على مسرح الحياة ببراعة يعجز أمامها أهل "برودواي"!

سميرة قررت أن تنتحر بطريقة تخدع بها الإله! ليظهر أمامه موتها مصادفة بحتاً، فلا يحرمها ملكوت السماء، ويفتح أمامها أبواب جنته! عندما اقترب موعد عيد ميلادها الرابع والثلاثين قررت أن تغلق على نفسها باب بيتها حتى تتعفن بعيداً عن عيون الناس، فهي وكما ظنت تزداد عفناً كل يوم، بمضيها كجسد وحيد في الكون، يشهدها المارة ويُشيرون نحوها بأصابعهم المدببة، لتنطلق ضحكاتهم الساخرة حولها غير عابئين كثيراً أو قليلاً بكونها تُعدُ بشراً مثلهم تماماً. ربما ما زاد من دوافعها الانتحارية، اتصال والدها بها ليحدثها بأنه عثر لها على زوج تجاوز الخمسين، ولديه أبناء من زوجة رحلت إلى الرفيق الأعلى، وأنه والحمد لله تعالى يعمل في وزارة الأوقاف وحاصل على شهادة ما من الأزهر، لا أذكر بالتحديد تخصصها! طلب الحاج عبد المنعم من فتاته العرجاء، أن تجمع أمتعتها سريعاً وتعود إلى مصر، حتى يعاينها الزوج المرتقب ويتمم مراسم الزواج الميمون! حاولت

سميرة أن تبدو هادئة في بداية المكالمة، فقالت لوالدها: أنا ماقدرش آخد أجازة كده من الباب للطاق، من غير ما أرتبلها قبلها بفترة يا بابا.

الأب: مش فاهم!... يعني عايزاني أقول للراجل يستنى؟!

سميرة: أيوه يستنى يا بابا لغاية ما أنزل مصر في أجازتي السنوية الطبيعية.

الأب: ما ينفعش... كده ممكن يدور على عروسة غيرك!

سميرة: ما يدور يا بابا أعمله إيه يعني؟!

الأب: يدور؟! إنتي بتقولي إيه؛ ده عمتك لقيت العريس ده بالصدفة، وبتقول إنه لقطة وحرام نضيعه من إيدينا.

سميرة وقد اقتربت من لحظة الانفجار: لقطة؟! ده عنده خمسين سنة وعنده عيال وبيشتغل في الأوقاف!

الأب ببساطة شديدة: ما هو إحنا مش كاملين برضو يا بنتي!

سميرة وقد نزع والدها الفتيل: ماشي يا بابا أنا مش كاملة... عرجا ومشلولة وزي الزفت، بس برضه مش عايزة عريس الأوقاف ده، ومش عايزة أتجوز خالص... أنا عايزة أموت عانس يا بابا... استريحت!

انتهت المكالمة لتتخذ سميرة قرارها سريعاً، ودون عودة إلى الوراء... الانتحار ببطء دون أن يلحظ الله فلا يحرمها جنته! حددت يوم عيد ميلادها ليكون نقطة الصفر التي تنطلق فيها إلى سماء بلا إعاقات جسدية أو حتى عقلية، سماء تستوعب كل من لم يتمكنوا من استيعاب بعضهم البعض تحتها، سماء تقبلها دون نذور أو صلوات عديدة مديدة لا نتيجة لها، سماء لها ولكل المتعبين الذين لم يكن لهم مكان على الأرض.

اتصلت أمل بها قبل الموعد بيومين، لتعرف منها كيف ستحتفل بعيد ميلادها، فأجابتها سميرة بحدة وحسم شديدين: مش هاحتفل بأي حاجة، أنا عايزة أقضي اليوم ده لوحدي!

أمل مستنكرة: لوحدك؟! يعني إيه؟! بطلي هبل.

سميرة: يا أمل من فضلك سيبيني في حالي... أنا باقولك مش هاحتفل بأعياد ميلاد... وبعدين يعني هاحتفل بإيه، بإني خلاص قربت من نص الثلاثينات وعانس لوحدي!

أمل: طيب ما أنا مش عانس لكن وحيدة!

سميرة: أمل... إرحميني من نظرياتك الفاشلة ... إبعدي عني بقى.

أمل غاضبة: فاشلة؟! ماشي يا سميرة... اتفلقي... وإبقي تُفي في وشي لو عبرتك!

لم تستطع أمل أن تنفذ وعيدها لسميرة بأن تتركها تتعفن وحدها! كانت هي نفسها وحيدة حد الانتحار، ورغم جميع نظرياتها بأن الآخرين هم الجحيم بعينه، وأن الدوران في آلة الزمن وحده هو الحل الناجع لجميع مشكلاتها، إلا أنها ركزت كل انتباهها على الوصول إلى خطة محكمة تقتحم بها عزلة سميرة. في البداية فكرت أنه من الأفضل أن تبتاع هدية غالية الثمن تبهر بها صديقتها، لكنها تراجعت عندما دارت على جميع المنافذ التجارية ولم تجد سلعة واحدة مبهرة تساعد على الخروج من أزمة. أصابها الأمر شخصياً بالحزن، فقد اكتشفت بأسلوب عملي أن أغلى الأثواب وأقيم الحُليّ لا يمكنها أن تحل محل عادل! عادت إلى المنزل لتشعر لأول مرة بالهجير الذي يحتل فراغ محل إقامتها، لم يكن لها وهي جالسة على أريكتها الأثيرة أن تنزع آثار عادل من كل ركن بالمكان، وبتلقائية عجيبة التقطت هاتفها واتصلت

بدليل التليفونات لتحصل على أرقام لمكاتب عقارية. شغلت وقتها لمدة ساعة تقريباً في الاتصال بتلك المكاتب، حتى تجد من يساعدها في العثور على شقة أخرى لتنتقل إليها بسرعة: عايزة أوضة وصالة في ظرف أسبوع بالكتير.

ألقت بالهاتف على الطاولة وهي تزفر ضيقها، بعدما اكتشفت أنها ستحتاج أيضاً إلى تغيير الأثاث والفرش، فحتى ملاءات فراشها تشهد بوضوح أن آثار عادل لن تنمحي من عليها، مهما تم غسلها آلاف المرات. فكرت أن عليها أن تحرق كل شيء حولها، حتى جسدها الذي لا يشعر بأي اكتفاء مهما مارس من جنس مع أعتى الذكور قدرة! إن الأمر أشبه بطعام الأم، مهما تناولنا من مأكولات مصنوعة بأيدي أشهر الطهاة في العالم، ومهما خلطنا من وصفات شهية في مطابخنا، يبقى ذلك الأثر الخفي الذي يقبع في آخر ألسنتنا، يشتهي ملعقة واحدة من أكلة كانت أمنا تطبخها لنا ونحن أطفال. لم تكن أمل لتعترف قبل تلك اللحظة، لكنها فجأة أدركت من قلب أزمتها، أنها لا تبغي من الكون سوى ذراعي عادل: بس أنام في حضنه ولو مرة واحدة تاني... حضنه بس يا رب... مش عايزة غير إنه ياخدني جوه حضنه.

هل انهارت في بكاء وعويل؟! لا لم يحدث... فقط تساقطت دموع صامتة يائسة على خديها وسقطت في نوم عميق.

عندما استيقظت أمل خاوية تماماً من أي شيء يمكن الإشارة إليه، نظرت حولها في تراخٍ فوجدت نفسها منبعجة على الأريكة. ربما مرت خمس عشرة دقيقة قبل أن تنقل جسدها إلى الفراش، لكن ما أعرفه تماماً أنها

بمجرد ما أُلقيَت على الفراش أنار في رأسها مصباح "عبقرينو"، فاندفعت بقوة نحو الصالة لتلتقط هاتفها من على الطاولة، ثم اتصلت بمنال.

منال: ألو...كيفك يا أمل... شو ها الغيبة؟!

أمل: إزيك يا منال... معلش سامحيني، انشغلت في كام حاجة كده ..بأقولك إيه؟!

منال مقلدة لهجة أمل المصرية: إيه؟!

أمل: إنتي طبعاً بتعرفي تعملي ميك أب وحركات.

منال في استنكار: بأعرف أعمل؟! حبيبتي لولا إني مني بحاجة... لكنت سبب رئيسي في وقف حال كل الصالونات بدبي!

أمل تبتسم في تراخ: حقك عليا أنا غلطانة... طب يا أعظم **Make Up Artist** في التاريخ... ممكن تفضيلي نفسك يوم الاتنين الساعة سبعة مساءً.

منال: لا... بدك تنتظري تاشوف الـ **schedule** تبعي، بعدين بخبرك إن كنت فاضية أو لا!

أمل وقد وضعت كفها على رأسها، وظهرت علامات الضجر على وجهها: منال... مش هتعملي عليا مهمة... فضيلي نفسك يوم الاتنين الساعة سبعة... بس كده ما عنديش كلام تاني!

منال: طب أقله أعرف شو راح أعمل يوم التنين... بدك زينلك عروس متلاً؟

أمل: بكره هاقولك في الشغل.

لم تكن أمل تدرك أبعاد خطتها تماماً، لكنها فكرت أن تقدم الحياة لسميرة في ملخص سريع، ربما أيضاً أرادت أن ترى بنفسها تلك الحياة على وجه صديقتها، فتدرك أنها تحتاج مثلها إلى أن تنغمس في أليافها رغم كل شيء. جلست قليلاً لتتأمل ما الذي يمكن أن تفعله أيضاً، فظهرت أمامها صورة هالة، تلك التي تراها دائماً عين البؤس ذاته، فإن كان الواقع يهشم طرقاتها وسميرة، فالوهم يحتكر مجال تلك الدرزية التي تسكب أيام عمرها في انتظار سني متزوج. اتصلت بهالة واكتفت بأن تخبرها بأنها مدعوة لعيد ميلاد سميرة يوم الاثنين، بشرط ألا تخبر زميلتها في العمل بأي شيء، لأنهن سيفاجئنها بحفلهن الصغير، الذي تبغي أن يكون حميماً. لم تنس أمل أن تتصل بـ"مستر بيكر" لتحجز كعكة عيد الميلاد، ثم نهضت إلى مكتبتها الموسيقية واختارت بعضاً من الألبومات العربية والأجنبية استعداداً للحفل، واطمأنت لوجود أشرطة فيديو فارغة لتسجيله. شغلتها قليلاً مسألة الرداء الذي سترتديه في ذلك اليوم، لكنها في النهاية استقرت على بدلة رياضية، فالحفل سيكون في منزل سميرة التي لن تكون مستعدة أصلاً له!

عندما حل يوم الاثنين اجتمعت ثلاثتهن عند "مستر بيكر" في شارع الوحدة بالشارقة لتسلم الكعكة، قبل التوجه إلى منزل سميرة. ركنت كل من أمل وهالة سيارتيهما أمام المحل، وانضمتا إلى منال في سيارتها التي رفضت أن تغادرها لتركب سيارة أي منهما. استجابت أمل سريعاً لعلمها التام بشخصية منال، بينما كانت استجابة هالة بطيئة وهادئة، خاصة بعدما سمعت مبررات منال غير المطلوبة، حين سألتهما أمل الانضمام إليها في سيارتها: لا حبيبتي أنا ما بحب إركب غير سيارتي، إنتي بتعرفي أمل وضعي وكيف ممكن الناس لو حدا لمحني في سيارة عادية شو يالي ممكن يحكوه!

ارتبكت هالة قليلاً وهي تضع قدمها في سيارة منال، فلأول مرة في تاريخها تتعامل مع حالة الشهرة، لكن أمل التي تدري تفاصيل كل منهما، مسحت على ظهر هالة بهدوء وابتسامة حاولت بصعوبة أن تجعلها عذبة ارتسمت على وجهها، ثم مالت على أذنها وقالت بصوت منخفض: هي شكلها يخض بس في الحقيقة حد أليف جداً!

انطلق موكب النسوة نحو بيت سميرة الذي لم يكن يبعد كثيراً عن موقع تجمعهن، وبمجرد أن ركنت منال سيارتها في زاوية بعيدة عن المارة، أشارت لرفيقتيها بأنه بإمكانهما التحرك. خرجت منال وهي محصنة بجميع أدوات التنكر الستينية - نظارة شمسية رغم تجاوز الساعة السابعة مساءً، وإيشارب على رأسها ذكرني بمشهد لمريم فخر الدين في أحد أفلامها الأبيض والأسود! - كادت ضحكة ماكرة تنفلت من أمل، لكنها جاهدت نفسها على كتمها داخلها حتى لا تتسبب بإفساد خطتها من أجل عيد ميلاد مميز لسميرة، التي تحبس نفسها في انتظار العفن. لم تكن تدري تفاصيل خطتها، لكن كل ما اتفقت عليه مع منال وهالة ألا يبديا أي مظاهر للبهجة، وأن يلزما الصمت ومحاولة إخفاء كعكة عيد الميلاد بقدر الإمكان. أمام باب شقة سميرة طلبت هالة أن تحمل هي الكعكة، لتدخل في ذيل الطابور متوجهة إلى المطبخ مباشرة لإخفائها في الثلاجة دون أن تلحظ سميرة، وعندما سألتها أمل في قلق إن كانت ستتمكن من ذلك فعلاً، أجابتها بثقة: ما تحملي هم!

قرعت أمل جرس الباب وهي تنظر إلى منال متخوفة منها، لكنها جزت على أسنانها وأغمضت عينيها، ثم ضغطت بإصرار مرة ثانية على الجرس. عندما لم تظهر أي استجابة من الداخل، أزاحت منال أمل من

طريقها ووضعت إصبعها على الجرس دون أن ترفعه، ثم انطلقت بجملها المتبرمة: شو هايدا... وينها صديقتك هاي... شو بلا ذوق تاركتنا في الشوب؟... افتحي... افتحي إنتي يا سميرة... طفلة صغيرة متلاً ولا شو؟!

تراجعت أمل للوراء تضع كفها على رأسها، بينما هالة متسمرة في موضعها في ذهول تام، لكن ما لم تدركه أمل أن صوت منال وإصبعها الملتصقة بزر الجرس، كانا سبباً رئيسياً لإثارة فضول حتى من ترغب في الانتحار، ربما لتتعرف على صاحب هذا الصوت كرغبة أخيرة قبل الموت! المشهد التالي هو الأكثر إبداعاً لمنال، فبمجرد أن فتحت سميرة الباب بعينيها الحمراوين من كثرة البكاء، وجسدها الهزيل المنكفئ إلى الأمام، أزاحتها منال بكفها اليمنى جانباً ودلفت إلى الداخل، بينما سميرة تتبعها بلسان معقود من فرط الذهول، ما سمح لهالة أن تجري إلى المطبخ وتنفذ دورها في الخطة، في حين جرت أمل خلف سميرة وأدارت وجهها ناحيتها، معانقة إياها وهي تضحك كبلهاء، وتقول: دي منال زميلتي في التليفزيون، ما تقلقيش خالص دي طيبة وأليفة جداً.

سميرة وقد بدأت تتدارك الموقف: إنتي إيه اللي جابك؟! أنا مش قايلة لك مش عايزة أشوف حد النهارده؟!

أمل مرتبكة: أيوه ما أنا عارفة، بس قلت آجي وتتفي على وشي مش مشكلة بقى!

رغم عفوية إجابة أمل، إلا أنها كانت نكتة قوية جداً بالنسبة لسميرة، فضحكت حتى وضعت يدها على بطنها متألمة من قوة قهقهاتها، وما زاد المشهد كوميدية منال التي تعاملت بتأفف واضح من منزل سميرة، وهي

تتحرك يميناً ويساراً تفتح المصابيح وتزيح الستائر من على النوافذ، وتدير جهاز التكييف: شو هايدا؟!... قبر ولا شو... بتقتلي حالك بالحر يعني؟! شو ها النسوان يا ربي؟!... على شو يعني؟!... معترة ها البنت والله!

عندما أدركت أمل ما تقوم به منال، لم تتمالك نفسها هي أيضاً من الضحك، بينما ظلت هالة واقفة بإحدى زوايا الصالة ترقب المشهد في صمت، ولا تدري ما الذي يمكن أن تفعله حياله. أشارت أمل للجميع بأنه قد حان الوقت كي يسترحن على المقاعد، وعندما انتهى الموقف تماماً وغيم الصمت عليهن جميعاً، أدارت أمل رأسها نحوهن تشاهدهن في صمت، بينما دموع تكسو عينيها، ثم خبطت كفاً على الأخرى وقالت: يا الله كم نحن بائسات!

منال: وع شو الفصحى يالي بتحكي بيها يا ست أمل؟!

أمل: مش عارفة هو الموقف طلب كده... أعمل إيه؟!

منال: يللا يللا بلا تضييع وقت... نحنا جايين تا نحيي سميرة في عيد ميلادها... ما له لزوم البؤس هايدا.

أمل: عندك حق.

وأخيراً تحدثت هالة: أمل...كنت خبرتيني إنك جايبة معك سيديهات موسيقى؟!

أمل: أيوه.

هالة: جبتي شي بيفرفح؟!... نجوى كرم مثلاً ولا إليسا؟!

أمل مبتسمة في اعتذار: آسفة يا هالة أنا جبت سيديهات كلها موسيقى أجنبية.

هالة: أجنبي؟! لا لا ما بتناسب مع الموقف أبداً.

وهنا تدخلت سميرة في الحديث بعد صمت طويل: أنا عندي يا هالة حاجات عربي كتير في المكتبة... اختاري اللي يعجبك وشغليه.

على صوت الدبكات الشامية التي التقطتها هالة بصعوبة من بين ألبومات سميرة، بدأ الثلج يذوب، لتتحرك كل واحدة منهن في اتجاه، نهضت أمل لتختار رداءً زاهياً من بين ملابس سميرة، لكنها وجدت في الأمر صعوبة بالغة ما جعلها تأخذ وقتاً، في حين تحركت منال لتجلب حقيبة مساحيق التجميل الخاصة بها، وتسحب سميرة من على الأريكة، لتضعها على أحد المقاعد التي سحبتها ووسطتها في قلب الصالة أسفل ضوء المصباح، وعندما سألتها سميرة عما هي بصدده، أجابتها: بدي طَلِع المرة ياللي جواكي... إنتي كيف تاركة حالك هيك؟!

ابتسمت سميرة في استسلام ولم تجب، ويبدو أن فكرة إعادة رسم وجهها بالمساحيق راقت لها، فرفعت وجهها لأعلى وأغمضت عينيها في صمت، تاركة لمنال وجهها ساحة حرة لريشتها. وبين جمل منال الفريدة: "إنتي ما بتساوي حواجبك أبداً؟! شو نامصة ومتنمصة ولا عاجبك شكلك هيك؟!"، "ليش تاركة الحبوب تاكل وجهك بها الشكل، إنتي لازمك جلسات تنضيف بشرة، راح خبرك بعدين على اسم كلينيك كتير ممتازة هنا بالشارقة، راح تخليكي عروس بظرف أسبوعين"، "ما تزمي شفايفك هيك... اتركيهم مرتاحين حبيبتي"... ومن جملة لجملة أخذت يدا منال الماهرتان تتقافزان على وجه سميرة، بينما تسحب من وقت لآخر أداة مختلفة للرسم أو علبة لمسحوق، وبعد أن انتهت اعتدلت في وقفتها وقالت: خلاص... خلصت. حاولت سميرة أن تنهض لتنظر وجهها الجديد في

المرآة، لكن منال دفعتها برفق نحو مقعدها مرة أخرى لتحسم الأمر: لا !!!! لسه... وجهك منو كل شي، بيضل شعرك والفوسطان. ثم نادت على أمل بصوت عالٍ: أماااال وينو الفوسطان؟!... شو عم بتخيطيه من جديد؟!

خرجت أمل وهي تحمل أحد أثواب سميرة، لكنها كانت بالفعل تعيد تشكيله، فقد نزعت عنه كُمَيه وزينت صدره ببعض أغطية رأس سميرة، لتضيف إليه ألواناً مختلفة، كما قامت بثني ذيله ليصبح عند الركبة. ندت شهقة انبهار من فم سميرة وهي تفتح عينيها عن آخرهما، بينما قفزت هالة كطفلة من مقعدها لتحمل الثوب عن أمل وهي تبتسم مقربة إياه من سميرة، التي التقطته لتضعه على جسدها وتنظر للأسفل قائلة بنوع من الحسرة: عمري ما لبست فستان قصير من أيام ثانوي.

ابتسمت منال بخبث وهي تضع يديها عند خصرها قائلة: والله منك قليلة يا ست أمل.

أمل ضاحكة: أومال يا بنتي.. إنتي فاكراني بألعب ولا إيه؟!

أعجبت منال اللعبة كثيراً، فثبتت كفيها على ذراعي سميرة قائلة: شوفي... ما في مراية إلا بالأخير... لما تكتمل الهيئة....**deal**؟!

سميرة مبتسمة بانبهار وقد داخلها شعور ما بالروعة: **deal**... والله **deal!**

هالة: خلاص منال اتركيها لحالها.

منال ضاحكة: خلاص تركتها... أمل روحي وقفي قدام المراية تا نضمن إنها ما تختلس نظرة هيك ولا هيك.

أمل وقد أخذتها روح اللعبة في طياتها: أوكيه!

ارتدت سميرة الثوب بينما أمل تقف أمام المرآه تحرسها، ثم نادت على هالة كي تجهز كاميرا الفيديو، ليبدآ في تسجيل تفاصيل اللعبة. عندما خرجت سميرة ترتدي الثوب، وضعت منال كفها اليمنى على فمها لتمنع شهقة من الانطلاق، لكن نظرات الإعجاب أطلت بوضوح من عينيها، فشعرت سميرة بأنها فعلاً تدخل تفاصيل لعبة شيقة وممتعة، فأغمضت عينيها وهي تسحب دبوس شعرها الذي يكبحه دائماً أسفل غطاء الرأس، فما كان من منال أن قالت: وكمان شعر أسود كحيل طويل... عا شو دافنة حالك إنتي؟!

بدأت منال في إكمال مهمتها مع الشعر، فأخذت تمشطه وتعيد تشكيله فوق رأس سميرة، بينما هالة ومنال تتناوبان على حمل الكاميرا وتغيير سيديهات الموسيقى، التي أشعلت داخلهن الحماس. بدأت سميرة تدبدب بقدميها على الأرض، وهي جالسة مستسلمة لأنامل منال، التي أخذت بدورها تهز عجيزتها على الإيقاع، في حين تدور أمل وهالة بالكاميرا، يقربانها من وجهيهما لتنفلت الضحكات في أريحية. تشعل أمل سيجارة، بينما تناول هالة واحدة أخرى، لتلتقطها بعفوية دون أن تفكر في إن كانت تدخن أم لا؟! تطلب سميرة أيضاً سيجارة لأول مرة في حياتها، لكن منال ترفض حتى تنهي مهمتها، بينما تضع أمل سيجارتها بين الحين والآخر بين شفتيها لتسحب نفساً وتنفثه جانباً، ثم تكمل عملها بشعر سميرة.

بعد أن انتهت منال من مهمتها، طلبت من الجميع الصمت حتى تتمكن سميرة من الذهاب إلى المرآة في هدوء لتنظر وجهها الجديد. نهضت سميرة يداخلها قلق لم تتمكن من تفسيره لتوها، لكنها بدأت خطواتها نحو غرفة النوم لترى نفسها في المرآة، بعد أكثر من ساعتين وهي تمارس لعبة

غابت معها عن واقعها الرديء. كانت تخطو وهي خائفة أن ترى وجهها الذي تعرفه منذ الأزل، وتفكر ما الذي يمكن أن تفعله إن رأت نفس الوجه الكئيب المنزوي؟! قبل أن تصل إلى المرآة توقفت ودارت بوجهها للخلف، تطلب الدعم من البنات، كن جميعاً خائفات وكأنهن يواجهن نفس التحدي، وكأنهن جميعاً يحلمن بتغيير وجوههن الذابلة المحتقنة. عندما طالت وقفة سميرة، تحركت أمل نحوها ودموع غافلتها تساقطت على وجنتيها. تساءلت سميرة عن سبب الدمعة، فأجابت أنها لا تعرف السبب الحقيقي، ثم دفعتها للأمام نحو المرآة، لترى نفسها لأول مرة منذ زمن طويل، منذ تركها تامر وحيدة تواجه ذراعها وقدمها الكليلتين. كم غاب هذا الوجه الطفولي المرح عنها؟!

قالت: يا الله...كأن بقالي سنين مشفتنيش.

لم تفهم منال الجملة تماماً فسألت متعجبة: شو عم تحكي؟!

لم يصدر من أمل وهالة أي كلام، فقط صمتتا وكأنهما تشاركان سميرة في نفس الإحساس "كم فات من الوقت دون أن نرى وجهنا الجميل؟!"... في نفس اللحظة تضامنت أفريل لافين معهن وبدأت تصدح بأغنيتها:

I am beautiful

التفتن جميعاً نحو الصوت، ودون أن يشعرن جرين نحو الصالة وهن يتقافزن ويملن يميناً ويساراً على نغمات الأغنية، بينما يهتفن بصوت عال معها، وكأنهن يقلن للعالم الذي قبحهن، إنهن رغم أنفه جميلات! إنهن رغم محاولات الهدم واقفات على أقدامهن صامدات ورائعات... إنهن مليئات بالخطأ والخطيئة الجميلة، لذا هن جميلات مهما فعلن ومهما قلن!

Everyday is so wonderful
Then suddenly

It's hard to breathe
Now and then I get insecure
From all the pain
I'm so ashamed
I am beautiful
No matter what they say
Words can't bring me down
I am beautiful
In every single way
Yes words can't bring me down
So don't you bring me down today
To all your friends you're delirious
So consumed
In all your doom,
Trying hard to fill the emptiness
The pieces gone
Left the puzzle undone
Ain't that the way it is
You're beautiful
No matter what they say
Words can't bring you down

(كل يوم يأتي رائعاً، ثم فجأة نشعر أنه من الصعب أن نتنفس، من وقت لآخر أشعر أنني غير آمنة، وأشعر بالعار من كل الألم الذي يداخلني، أنا جميلة مهما قالوا، الكلمات لا يمكنها أن تهدمني، أنا جميلة بكل الطرق، نعم الكلمات لا يمكنها أن تهدمني، لذلك لا تحاول أن تشعرني بالإحباط اليوم).

مع هذه الجملة يشددن جميعاً على الكلمات وينطقنها بإصرار: **so don't you bring me down today!**

(أنت بالنسبة لكل أصدقائك مشوشة، مستهلكة تماماً، على كل الأحوال أنت محطمة، تحاولين جاهدة أن تملئي الفراغ داخلك، ضاعت منك القطع، فتركت رقعة البازل دون أن تكمليها، إن الأمر ليس كذلك، أنت جميلة مهما قالوا، الكلمات لا يمكنها أن تهدمك، أنت جميلة بكل الطرق، نعم الكلمات لا يمكنها أن تهدمك، لذلك لا تحاول أن تشعرني بالإحباط اليوم. مهما فعلنا ومهما قلنا، نحن الأغنية داخل النغم، مليئات بالأخطاء الجميلة في كل مكان نذهب إليه).

لا أستطيع سوى أن أقول إن هذه الأغنية جاءت في وقتها، وربما يمكنني الاعتراف أنني تدخلت بشكل أو بآخر لأن أدخل هذه الأغنية في الوقت المناسب، في محاولة مني للعب دور الرب، الذي يمد يده في الوقت المناسب للغريق، ونسائي الجميلات جميعهن كن غارقات وليست سميرة وحدها، كلهن احتجن إلى يوم ميلاد جديد، بشكل أو بآخر. كلهن كن في حاجة إلى أن يسمعن أنهن جميلات رغم كل شيء، ورغم جميع الكلمات التي آذتهن أو آذين بها غيرهن. ربما احتجت أنا أيضاً إلى أن أسمع الأغنية كي أذكر نفسي بأن أخطائي رغم قبحها جميلة، بل وتزيدني بهاءً رغم ما تفعله بي من ألم وتشويش. نعم تشويش، فأنا لست رباً على أية حال!

كيف انتهى اليوم؟! أعلم أن هذا ما تنتظرن قراءته الآن... اليوم لم ينته، فلقد التهمن كعكة عيد الميلاد بشراهة واسعة المدى، بينما تخاطفن كاميرا الفيديو ليصورن أنفسهن في أوضاع مختلفة، يتحركن بعهر أمام العدسة أحياناً، ويصنعن وجوهاً بهلوانية للعبث واللهو والحكمة والجنون، بينما فاجأتهن منال بكاميرا فوتوغرافية وزجاجة شمبانيا، مؤكدة أنها لا تُسكر فهي مشروب النساء الرقيقات، ورغم تحفظ سميرة في البداية، إلا

أنها جرؤت على أن تتناول كأساً عندما شاهدت هالة وقد فقدت رباط هدوئها، وابتلعت كأسها الذي ناولته إياها أمل على جرعة واحدة. بين عدسات كاميرا الفيديو والفوتوغرافيا ودخان السجائر وجرعات الشمبانيا، انطلقن في بهجة هيستيرية تختلط خصلات شعرهن ببعضها البعض، وهن يلصقن رؤوسهن أمام الكاميرا التي تحملها أمل بكفها معاكسة أمام وجوههن، ينظرن الصورة الملتقطة عبر شاشة الإل سي دي، ويضحكن من منظرهن المندهش، أو لرأس إحداهن الذي طار من الصورة، أو لأنف إحداهن الذي برز كبينوكيو، أو لعين حمراء ضربها الفلاش بقوة!

لم ينته اليوم... نعم لم ينته، فقد اتصل بأيام أخرى بدأن جميعهن معها حياة جديدة، حياة تشملهن جميعاً في الصورة.

(٢)

اللعبة التي فرضت نفسها على النساء الأربع، لم تنته مراحلها، فقد عبرن المرحلة الأولى بنجاح متواضع ربما، لكنهن على أية حال أنهينها، دون أن يدرين أنهن بصدد مراحل أكثر صعوبة، وإن كن في ذات الوقت أخذتهن بهجة اللعبة، فلم تتملص أيهن من تكملتها. في إجازة نهاية الأسبوع عقب عيد ميلاد سميرة، استيقظت منال كعادتها مبكراً لتتوجه نحو نادي "**Fitness First**" لتمارس بعضاً من الرياضة، التي تعتبرها إحدى أدوات نجاحها كمذيعة لها اسمها وتأثيرها. لكنها في ذلك اليوم لم تشعر أنها ترغب

في ممارسة الرياضة باعتبارها روتيناً يومياً، وإنما شعرت برغبة عارمة في الجري على جهاز الـ **TREDMELL** حتى تصل إلى آخر بقعة في العالم، بعيداً عن زواجها المصطنع، وابنتها التي تحشر أنفاسها في صدرها، وأمها وأبيها وأخيها وكل المجتمع الذي يراقبها. في الطريق اتصلت بأمل التي لم تكن قد غادرت فراشها بعد، تصارع صداعاً يشق رأسها من أثر زجاجة الفودكا التي تجرعتها كاملةً ليلة أمس، وهي تحدق في الفراغ المحيط بشاشة التلفاز، دموعها تتساقط دون أن تحدد إن كان السبب عادل أم ابنها أم أباها أم زوجها السابق، فقط تبكي كومة من الأشخاص والأحداث والمشاعر المختلطة!

زعق رنين الهاتف في أذن أمل، فنزل على رأسها كمطرقة من العصر الحجري، ولم تدر بنفسها إلا وقد ضغطت على زر الإجابة بسرعة حتى يتوقف، لكنها صُدمت عندما اكتشفت أنها فتحت الخط ومن ثم عليها أن تجيب: ألو.

منال: صباح الخير يا حبوبة!

أصيبت أمل بخيبة لمجرد وصول صوت منال إلى أذنها، فالوقت ليس مناسباً للتعامل مع الإيجو الخاص بها، لكنها لم تجد مفراً من تكملة المكالمة: صباح الخير يا منال.

منال: شو هيدا؟! بعدك نايمة؟!

أمل: أنا مقربعة إزازة فودكا لوحدي إمبارح! وعندي صداع ابن ستين كلب، ومش قادرة أرفع راسي من على المخدة!

منال: يا ويلي؟! زجاجة فوكا كاملة لوحدك يا مجنونة إنتي؟!

أمل: أيون... لوحدي.

منال: خلاص علاجك عندي... ياللا فيقي وغيري تيابك، وحصليني على "فيتنس فيرست" يللي بـ"برجمان" ببر دبي.

أمل: يا سلام؟! ده إيه التفاؤل ده؟! بقولك مصدعة ومش قادرة أقوم من السرير، تقوليلي أحصلك على فيتنس فيرست؟ هو أنا قادرة أمشي أما ألعب رياضة!

منال: اسمعي شو عم قولك أنا... تعالي انشالله زحف... بس اشربي ماي كتير وانتي عالطريق.

أمل: يا منال!!

منال: اسمعي... ما راح إقبل أعذار... ياللا خلصيني بقى... بانتظرك ...تشاو تشاو.

أمل: تشاو تشاو؟! مجنونة إنتي؟!

لكن جملة أمل الأخيرة لم تصل إلى مسامع منال، التي أنهت المكالمة. ببساطة شديدة وكطفلة عنيدة ألقت أمل بهاتفها على الكومود المجاور لفراشها، واستدارت يساراً لتكمل نومها، لكنها لم تتمكن من نزع فكرة شرب المياه الكثيرة والذهاب إلى منال لتتحرك قليلاً، ربما تمكنت من استعادة أنفاسها التي قطعتها الفودكا وعلبتا "الجيتان" اللتان امتصت سجائرهما حتى الأعقاب أمس. بتململ متردد، سحبت جسدها من على الفراش وتوجهت إلى الحمام للاغتسال.

في الطريق نفذت أمل وصية منال، وشربت أكثر من زجاجة "إفيان" حتى وصلت إلى "برجمان"، وسألت عن موقع " فيتنس فيرست" داخله.

بعد أن ركنت سيارتها أسفل النادي الصحي الملحق بالمركز التجاري، بدأت تشم رائحة أوكسجين ما في الجو، ما أثار تعجبها. استقلت المصعد مع مجموعة من الرجال والنساء، يحملون حقائب رياضية ويرتدون ملابس منعشة. توقعت أن يكونوا من رواد النادي، وداخلها نوع من الارتياح لمرآهم، حتى إنها تخيلت نفسها واحدة منهم. عندما دخلت إلى النادي اتصلت بمنال، التي خرجت لتستقبلها، وبعد أن حصلت لها على دخول استثنائي لهذا اليوم، توجهت معها نحو صالة الأجهزة. رائحة الأوكسجين اخترقت رأس أمل، فملأتها بشعور الانتعاش، لكنها عندما أخبرت منال بملاحظتها تلك، تعجبت منكرة وجود أي رائحة لأوكسجين، وإنما كلور التنظيف المستخدم بقوة في المكان. ملاحظة منال الواقعية جداً أزعجت أمل، لكنها قررت تجاهلها، وعندما قفزت فوق واحدة من العجلات الثابتة، وبدأت في تحريك البدال، شعرت بأنها امرأة عجوز، غير قادرة حتى على الضغط بقدمها. توقفت وعقدت ذراعيها على ذراعي العجلة، ثم انكفأت برأسها عليها. لم تنتبه منال المشغولة بممارسة طقوسها الرياضية إلى وضع أمل، لكن أحد المدربين الفلبينيين لاحظها، فتوجه إليها:

المدرب: ما بك؟

أمل: أشعر أنني امرأة عجوز.

ابتسم وأجاب: أنت امرأة جميلة جداً... فقط هذه أول مرة تمارسين فيها الرياضة... بهدوء ولا تجبري نفسك على شيء.

ثم أعمل أصابعه في الأزرار الملحقة بالعجلة، وقال لها: الآن أريني ما الذي يمكن أن تفعليه.

بدأت أمل في تحريك قدميها، ففوجئت بانسيابية حركة البدال: ماذا فعلت؟

المدرب: أنت مبتدئة لا يمكنك العمل على قوة ضغط عال، فقط خففت الضغط. هل اشتركت في النادي؟!

أمل: ليس بعد.

المدرب: بعد أن تنتهي من تجربة اليوم أحب أن أراك.

تنقلت أمل على الأجهزة الرياضية، وإن لم تكن تكمل أكثر من ثلاث دقائق على كل واحد منها، لكنها رغم ذلك كانت تشعر بتفكك لقيود سرمدية تقبض على عقلها وقلبها. أخذت تتجول بين صالات النادي، لتشاهد عالماً مغايراً تماماً لبشر يرقصون ويمارسون اليوجا ويتقافزون ويحملون الأثقال، نساء ورجال، الكل سواء.

بعد أن أنهت جولتها، اصطحبتها منال إلى غرفتي الساونا والبخار، وبهما شعرت بأن العرق الذي يتفصد من مسام جلدها يقشر طبقات السم الذي تراكم على جسدها منذ سنين طويلة. لم تستطع أمل تحديد سبب هذا السحر الرياضي الذي وقعت أسيرة له، لكنها تأكدت أنها ستعود إلى هذا المكان لتكون واحدة من رواده.

لم تكن هناك خطة محددة برأس أمل بعد خروجها بصحبة منال من "فيتنس فيرست". سارت إلى جوارها في صمت، لا تشعر سوى بخدر لذيذ يجتاح كل عظمة من عظام جسدها. بعد أن انتهت منال من سلسلة المكالمات الهاتفية، التي اشتبكت بها بمجرد خروجهما، نظرت لأمل ودعتها لتناول وجبة الغداء عند "بول" في الطابق الأرضي من برجمان، لم ترفض أمل بالطبع، فقد كانت جائعة بالفعل وتحتاج إلى التهام أي شيء، وإن كان

"بول" ليس بأي شيء؛ فمخبوزاته وشطائره المميزة ليس باستطاعة أحد مقاومتها، تكفي رائحة الخبز الطازج التي تتسلل نحو الأنوف ونحن بانتظار وجباتنا ليتم تقديمها إلينا. الرائحة تبعث نوعاً ما من الجنون المرح، تُسبل معها عينيك وتجد نفسك مبتسماً وأنت تسند رأسك على ظهر كفك وتسرح في كون من الكعك والفانيللا!

كعادتها اقتحمت بواقعيتها القحة سباحة أمل في تيار الفانيللا: شو بك إنتي... مغمضة عيونك وبتبتسمي؟!

تفتح عينيها على إثر دفعة خفيفة من منال لذراعها: إيه؟!... بتقولي إيه؟!

منال: شو... ما تقوليلي إنك عم بتحبي وسرحانة بها الحبيب؟!

دائماً كلمة حبيب تنزل كشرطة "موس" على سطح قلبها، فهي بالطبع تحب وتسرح بحبيبها، لكن ذكرى عادل لم تعد مصحوبة برائحة الخبز بل الكحول، وطعمها لم يعد بطعم القرفة والقرنفل بل الدموع. تغافل دمعة أمل وتنسكب على خدها الأيمن، لتفضحها أمام منال.....: أمل... شو بك؟! عن جد أنا آسفة... أنا كنت مفكرة إني بامزح معك... ما كنت عرفانة إنك بتحبي فعلاً... وها الشي مسببلك عذاب!

تمسح أمل دمعتها وتبتسم واهنة، ثم تنظر لمنال قائلة: ليه يا منال؟! هو أنا مش ست وبحب واتحب واتصدم وابكي زي بقية ستات ربنا؟!

منال: لا حبيبتي إنت ست الستات... ما تواخذيني عن جد أنا آسفة... بس بتعرفي أنا دايماً أشوفك مرة قوية وما بيهمك شي... ومن شان هيك...

أمل مقاطعة: من شان هيك قررتي تحكيلي عن مأساتك، عشان أحرضك على قرارات قوية وقاسية، منها إنك تسيبي بنتك لجوزك وتختفي من حياتهم.

كانت تلك الجملة صادقة، فمنال ترغب بشدة في الفرار من حياة الزواج التي تعيشها قسراً، ولكنها ترغب في الخلاص مما نتج عنه الزواج أيضاً... بنتها! لم تستطع منال نكران الأمر، ولكن أمل رغم ذلك لم تمنحها تصريحاً بالهروب، بل منحتها تصريحاً بالغرق في ويلات المشاعر النسائية المضطربة. لا تدري أمل لماذا انطلقت دون أن تسحب أنفاسها في سرد قصتها على مسامع منال؟ لكنها فعلت من أول جدها وجدتها، وحتى اللحظة التي أسقطت فيها جنينها بسلة مهملات عيادة الطبيب واختفاء عادل عن الأنظار، ومع آخر لُقمة من "الدانش بالأناناس" الذي تحبه، أنهت حكايتها بجملة واحدة: وراح... اختفى... ويمكن خايفة أدور عليه بجد وأكلمه واعتذر له ولا حتى اعترف له بغلطي... يمكن لأني لغاية دلوقت ما واجهتش نفسي بجد... بهرب في الفودكا والسجاير والصوت العالي والاسترجال... بأهرب في قلب ميت بيتعامل بدالي مع كل الناس وكل حاجة، وأنا من جوايا هبلة أوي وضايعة زيادة عن اللزوم!

دمعتان تسيلان على وجه منال، التي تسحب منديلاً ورقياً لتمسح به دمعتيها، ثم تقول لأمل بصوت متهدج: عن جد بكيتيني... لشو كل هايدا الحزن يعني؟! لكنها وبدون مقدمات تتحول من البكاء الممثل في دمعتين صامتتين إلى نحيب: وقال شو جبتك يا عبد المعين؟! وأنا اللي كنت مفكرتك مرة قوية وما في متلك، وإنك راح تعلميني كيف أواجه ها الكون بقسوة... طلعتي هبلة وما بتسوي...!

استطاعت منال في خضم هذا المشهد المأساوي، والذي كان يتابعه بعض من مرتادي "بول" عن كثب، أن تحول مزاج أمل من الأسود القاحل إلى الأحمر الزاهي – ربما ساعدتها رائحة الخبز وطعم "الدانش بالأناناس"! – لكن من المؤكد أن رد فعلها العجيب وكلماتها الكوميدية، لعبا الدور الرئيسي في تفجير قهقهات أمل التي لم تستطع منال بكل الطرق أن توقفها، فأسرعت لدفع الحساب، ثم جرت أمل من ذراعها جراً وهي تقول: شو يا مجنونة؟!... راح تفضحيني... يعني ما بتعرفي وضعي بالمجتمع؟! والله إخص عليكي يا أمل إخص!

في سيارة منال وبعد أن هدأت أمل من قهقهاتها الهيسترية، وجدت نفسها تقول لمنال: إيه رأيك نعمل حزب نسائي صغير كده؟!

منال: حزب؟! يا عزيزتي الإمارات ما فيها حزب للرجال، راح يسمحولنا بعمل حزب نسائي؟!

أمل: يا شيخة ركزي معايا... هو أنا باقولك نعمل حزب سياسي ولا حتى جمعية نسائية رسمية؟! أنا باقولك مجازاً يعني... إننا نعمل زي رابطة نسائية صغيرة تضمنا إحنا وبس، ونحاول مع بعض نحل أزماتنا في الحياة.

منال: إيه لو مجازاً ماشي... لكن مين إحنا؟! أنا وانتي يعني؟!

أمل: منال أنا طول عمري باقول إنك ست ذكية... مالك النهارده؟!

منال: مالي النهارده؟! إني قابلتك على الصبح فخربتيلي نهاري كله!

أمل مبتسمة: إخص عليكي... طب أنا آسفة... أنا أقصد أنا وإنتي وسميرة وهالة.

منال: والله حلوين هادوله البنات... أوكيه بس شو راح نعمُل يعني؟!

أمل: مش عارفة... بس كلنا عايشين حياة مأساوية، وكلنا محتاجين اللي ينقذنا... فليه ما نحاولش ننقذ بعض؟

منال: يعني كلنا محتاجين ياللي بينقذنا وبنفس الوقت ننقذ بعض؟! كيف راح تيجي هاي؟!

أمل: مش عارفة!... بس ندور...كل واحدة فينا تدور على حل... أربعة يفكروا أفضل من واحدة.

(٣)

بصمت ضائع في دوامة الوهم، خطت هالة التي تسير على كومة من سحاب هش نحو باب منزلها، لتخرج منه متوجهة إلى الاجتماع الأول لجمعية "الوليات المتحدة... المرأة المتوحشة سابقاً"!... هكذا أسمته أمل وهي تضحك، عندما سألتها عن الاسم المفترض للجمعية النسائية التي سينشئنها: "يا ستي هو لازم يعني يكون لها اسم؟!"... "ما بعرف... قولي إنتي... بالأخير إنتي صاحبة الفكرة"... "هههه خلاص سميها الوليات المتحدة، هههه وبين قوسين المرأة المتوحشة سابقاً"!... "المرأة المتوحشة؟!"... "آه... دي بقى كناية عن كسرة النفس، أو الجناح على رأي أمي، اللي بقينا فيها... مش كده ولا إيه يا أختي؟!"... "والله يا أمل أنا بعمري ما عرفت أفرق بين جدك وهزارك"... "مش مهم... إنتي بس تعالي

الاجتماع"... "ووين راح يكون ها الاجتماع؟!"... "أي حتة!... خليه على الفطار يوم الجمعة في شكسبير الشيخ زايد".

مطعم ومقهى "شكسبير" في شارع الشيخ زايد، مكان يوحي بالتراخي، فبمجرد أن تضع مؤخرتك على أحد "كنباته"، وتحتضن وسادة من وسائده بين ذراعيك، وتلامسك أشعة الشمس المتسللة عبر الزجاج، حتى يسري الخدر بين أوصالك وتبدأ مرحلة مقاومة النوم. كانت هالة أول من وصل إلى مقر اجتماع القمة الرباعي؛ شعرت أنها ليست في حاجة إلى التضامن أو الاتحاد مع مجموعة من النساء حتى تتخلص من أحمد، فهي في نهاية الأمر لا ترغب في التخلص منه! داعبت الشمس خصلات شعرها الذهبية، فانعكست على كوب الماء المقابل لها على المنضدة. سحبت وسادة واحتضنتها بعشق ومرت سحابة على ذاكرتها مدندنة بأغنية إيتا جيمس " **I been loving you too long to stop now have**"! نعم لقد أحبته منذ وقت طويل جداً حتى أصبح عادة من عادات حياتها، أن تستيقظ صباحاً وتبتسم في وجهه الأثيري داخل فراغ الغرفة، أن تشتري له هدية كل عام في عيد ميلاده، وتضعها إلى جوار عشرات الهدايا التي ابتاعتها له في جميع المناسبات، لكن لم يمنحها الحظ الفرصة كي تعطيها له، أن تشتري ملابس لجميع المناسبات كي يراها وهي ترتديها، لكنه دائماً يغيب لسبب ما فلا يراها، أن تطرب للأغاني التي تذكرها به أو التي تحكي حكايتهما، أن تشتري له الورد وتمنحه لمياه البحر، متوسلة إليها أن تحملها إليه... من الصعب أن تتوقف عن حبه فقد أصبح هي وليس أحداً آخر. تسري موسيقى أغنية إيتا جيمس في أوصالها، فينتفض قلبها وتبدأ في الغناء بصوتها الرخيم الحزين والموجع:

I've been loving you too long to stop now

There were time and you want to be free
My love is growing stronger, as you become
a habit to me
Oh I've been loving you a little too long
I don't wanna stop now, oh
With you my life,
Has been so wonderful
I can't stop now

لم تكن أمل هي الشخص المفضل لدى هالة كي تستيقظ من غفوتها على صوته، لكن هذا ما حدث. لا أستطيع أن أنسى النظرة المحبطة التي أطلت من عيني هالة، عندما فاجأتها أمل بمقص "تلم" قطعت به حبل صوت إيتا جيمس الذي كان يسري بعمق في مسار نهرها الداخلي. فزعت وعادت إلى الوراء، ثم فتحت عينيها بضيق، وعندما رأت أمل دفنت مؤخرتها بفرش الأريكة وعصرت الوسادة بين ذراعيها، ثم مالت برأسها يميناً، سألتها أمل باستغراب: مالك يا بنتي... إنتي شفتي شيطان؟!

هالة بتلقائية: هيك شي!

أمل: إيه؟!

هالة: خلاص أمل خلاص... وينون البقية؟

أمل: منال بتركن عربيتها بره وجاية.

هالة بفزع: سميرة... المهم سميرة... وينها؟!

أمل: جاية يا ماما... إهدي... هو في إيه بالظبط؟!... يعني لو مجتش سميرة أنا ومنال ما ننفعش.

هالة: الصراحة إيه ما بتنفعوا... أنا آسفة بس التفاهم معكن راح يصير كتير صعب... على القليلة سميرة بترجم إلي كتير من تصرفاتكن!

تضحك أمل وتنظر لأسفل، ثم تقول بصوت هادئ: أعتقد إنه بعد النهارده مفروض كلنا نبذل مجهود عشان نفهم بعض، ونفهم نفسنا كويس.

انضمت منال وسميرة إلى الاجتماع، وتشبثت منال بالاسم الحركي الكوميدي الذي ابتدعته أمل بعفوية مُرة. أمضين معظم الوقت تحكي كل واحدة منهن قصتها من وجهة نظرها، وبعد أن أنهين الحكايا، جاء وقت الحل، فحل الصمت على مجلسهن وشخصن جميعاً بأبصارهن نحو الفضاء الضيق للمقهى. حاولت أمل أن تكسر رتابة الصمت فسألت: مفيش اقتراحات يا بنات ولا إيه؟!

منال: هايني عم فكر... إعطيني شوية وقت بس!

هالة: بعمري ما فكرت إن عندي مشكلة... أحمد حبيبي مو مشكلتي.

أطبقت سميرة شفتيها وطرفت برموشها في بُطء، بينما نظرت أمل لهالة بدهشة فاغرة فاها، في حين تولت منال الرد: منك بمشكلة؟! حبيبتي خليني خبرك خبرية صغيرة راح تفاجئك...كلنا ما عندنا مشاكل عويصة... وحدك ياللي بتعاني من مصيبة! كل واحدة منا ممكن تحل أزمتها بإجراءات عادية جداً... لكن إنتي محتاجة عشر حكما نفسيين.

قاطعتها سميرة: منال..: من فضلك خدي بالك من كلامك.

أمل: صحيح يا منال... إذا كان فيه حد محتاج طبيب نفسي... فيبقى إحنا كلنا... يا شيخة ده إحنا نقفل مستشفى مجانين كامل لوحدنا!

هالة مرتبكة تحاول أن تجمع أغراضها: أنا بدي إستأذن منكن... ورايا إشيا كتير لازم خلصها...

سميرة: أقعدي يا هالة إنتي مش هتمشي قبل ما منال تعتذر لك.

منال مستنكرة: أنا؟! أعتذر؟! عن شو؟! كل كلمة حكيتها صدق...

أمل: حتى لو كانت صدق... هالة متهمة بالحب العذري مش كده؟! إنتي بقى متهمة بالكره المتعمد مع سبق الإصرار والترصد!

منال تسحب حقيبتها وتنهض بعصبية شديدة، ثم تنظر بكره لأمل: عموماً الحق مش عليكي، الحق عليي أنا ياللي نسيت وضعي ورضيت أُقعد معكن!

سميرة: شوفتي؟! شوفتي إزاي زعلتي عشان أمل اتكلمت عليكي كلام معجبكيش؟ على الأقل هالة مغلطتش في حد!

أمل: وهو مالنا يا ست منال؟! ولا تكونيش فاكرانا شارين البروباجندا بتاعة الست المذيعة المشهورة... مفيش واحدة من اللي قاعدين في القعدة دي فاشلة مهنياً... كلنا محققين نجاح عملي محصلش ومش أقل منك.

منال: شو هايدا؟!... إنتو راح تتكاتروا عليي ولا شو؟!

هالة: أرجوكن يا بنات بلاها ها الحكي المزعج... خلاص منال... أرجوكي إهدي.

منال: بس... روحي بعيد... أنا من هلا بره ها المسخرة... بلا حكي فاضي.

لو كنتم معي في ذلك اليوم تشاهدون من بعيد "الوليات الأربعة"، لضحكتم حتى سال الدمع من أعينكم... فقد طبقن النظرية الأزلية القائلة إنه من الصعب أن تتصادق النساء بحق؛ فهن دائماً واقعات في حبال الغيرة والمنافسة لإثبات التفوق أمام الجنس الآخر، وربما أمام أنفسهن، فمن الشائع جداً عن عالم النساء، أنهن من الممكن أن يعترفن بتفوق الرجل عليهن ويفرحن له، لكن من النادر جداً أن تسمح امرأة بتفوق أخرى، بل لو استطاعت أن تعرقل مسيرتها فستفعل وهي تستشعر اللذة! بالنسبة لي ونظراً لكوني ألعب دور الإلهة في هذه الحكاية، فأنا لا أشعر بالغيرة من تفوق النساء من حولي، لكني أؤكد لكم باعتباري أنظر للأمور من أعلى، أن هذه النظرية صحيحة بنسبة كبيرة، لدرجة أنها تحدث حتى بين الأخوات أو الأم وابنتها... مسألة عويصة ومثيرة للاشمئزاز، لكنها تحدث. أعتذر إذا كنت لا أملك تفسيراً للأمر، لكن ربما لأن الرجل سجن المرأة في قفص، يعتلي هو قمته، وأصبح هو الهدف الوحيد من أجل الخلاص والانعتاق، حتى لو كان انعتاقاً وهمياً، إلا أنه في النهاية لم يكن لدى النساء سوى الانخراط في السباق بكل ما يحمله من آلام، تجبرهن على أن يدعسن رؤوس بعضهن البعض، وبمرور الوقت تحول الأمر إلى صفات وراثية، حيث تولد المرأة وهي تكره الأخريات تلقائياً!

لا أدري، ربما ثارت ضدي الآن صاحبات الجمعيات الحقوقية النسائية، لكني في النهاية أجتهد من موقعي على قمة سحب نسائي الجميلات، وأقسم أنني بالفعل لا أحركهن كعرائس الماريونت إلى مصير لا يرسمنه لأنفسهن، أنا فقط أشاهد وأروي، وأحياناً لا أستطيع كبح جماح

تطلعاتي التنظيرية، فليس من الممكن أن أجلس هنا طوال الوقت أروي فقط ما أراه كببغاء أحمق!

(٤)

مر أسبوع تقريباً على الاجتماع الفاشل الأول لجمعية "الوليات المتحدة – المرأة المتوحشة سابقاً"! سأحاول تسجيل رد فعل كل واحدة منهن في ملخص سريع: أمل شعرت بأن الحياة مقرفة فعلاً، ولا سبيل إلى تعديلها أو توفيق أوضاعنا فيها، فغرقت في كؤوس الفودكا!

سميرة قررت أن تقوم بتزجيج حاجبيها لأول مرة في حياتها، وطلبت من منال أن تصحبها فنشب بينهما عراك جديد، لأن سميرة رأت في وصايا منال للكوافيرة سبباً كافياً أن أصبح حاجباها رفيعين جداً، فتركت منال لها الصالون واصفة إياها بالمعقدة، بينما أحبت سميرة حاجبيها الجديدين بمجرد أن حل المساء وألقت نظرة عليهما في المرآة.

منال أخرجت كل مشاعرها المحبطة في ابنتها وزوجها، فرفضت مصاحبته في سهرة عمل تخصه، وأزاحت ابنتها عن طريقها بقسوة، فارتطمت بالحائط وتكورت حول نفسها تبكي ولم تنقذها سوى الخادمة الفلبينية، لكن ذلك لم يحرك ساكناً لدى منال، فلم تلتفت حتى إلى الوراء.

هالة هي الوحيدة التي ظلت طوال الأسبوع تفكر في ما حدث؛ ضميرها يؤنبها لأنها كانت السبب في هذا الشجار وفشل "الوليات المتحدة" في التحليق نحو السماء، لكنها احتاجت طويلاً كي تستجمع

شجاعتها وتتصل بالفتيات، لتحاول إعادة تجميعهن مرة أخرى. مع ذلك احتاجت أيضاً إلى أن تبتدع حدثاً ما كي تدعوهن إليه، فلم تجد أفكاراً منطقية سوى أن تدعوهن إلى العشاء وكفى. بهدوئها الشهير ونعومة صوتها الناعم الحزين، أجابت بنفس الإجابة عليهن جميعاً عندما سألن عن المناسبة: نحن بحاجة إلى الاسترخاء مع أكلة حلوة ومشروب لطيف في ضو القمر... وأنا الفرندة تبعي صحبة ويا القمر.

لم تحتج إلى كثير من الجدال كي تقنعهن بالحضور، فقد كن جميعاً في حاجة إلى أي بصيص أمل من حياة داخل عوالمهن المثيرة للغثيان، خاصة سميرة التي كانت تخطو بوعي شديد نحو عالم جديد، مُخالف تماماً للعالم الذي انتمت إليه لعقد زمني كامل، وأثبت فشله الذريع، فبدون أي تأثيرات خارجية، حتى من أمل صاحبة التعليقات الخارجة عن الحدود، توقفت سميرة عن صلاة العشاء اليومية بالجامع، وهدأ تتبعها الهستيري لـ"عم الشيخ" صاحب التلاوات السحرية. كما كان لمظهرها الذي انتهت إليه يوم عيد ميلادها تأثير العاصفة، فلقد رأت نفسها لأول مرة، بعد سنين طويلة، فتاة حلوة شهية، واختفت إعاقتها تماماً فلم ترها رغم أنها دائماً ما كانت أول شيء تقع عليه عيناها بمجرد النظر في المرآة. أعاد مظهرها يوم ميلادها علاقتها الحميمة بالمرآة، والتي انقطعت منذ ولى تامر ظهره إليها صارخاً "ابتعدي يا مشلولة"! وعادت ترى نفسها امرأة من جديد، امرأة كاملة الهيئة، وليس مجرد شبح لامرأة يعافها الرجال.

تتابع حضور الفتيات على منزل هالة، في ما بين الثامنة والتاسعة مساءً بعد انتهائهن من العمل، كانت سميرة أولى الحاضرات، يدفعها الشوق لأن تعرف رأي الفتيات في شكلها الجديد، بعد أن ابتاعت ملابس جديدة تتغير

معها هويتها السابقة تماماً، حيث انحسر غطاء الرأس فلم يعد يحتل المساحة العظيمة التي كان يحتلها من الكتفين والصدر، واقتصر على لفة رقيقة فوق الرأس تتجمع إلى الوراء بربطة أشبه بوردة ناعمة، لتطل بعض من خصلات الشعر النافرة على العالم ويتنفس عنقها الصعداء.

خطت سميرة مختالة للداخل، متسائلة إن كان هناك من حضر قبلها، لكن هالة نفت مفصحة عن قلقها ألا تظهر منال أو أمل أبداً. سميرة أكدت بثقة متناهية أن أمل ستأتي بلا شك، لكنها لا تدري شيئاً عن منال، خاصة وأنهما تشاجرتا بسبب حاجبيها خلال الأسبوع الماضي، ولم تنس أن تعلن انزعاجها لأن هالة لم تلحظ أي شيء بخصوصها، عند ذاك خرجت شهقة خفيفة من فم هالة، ووضعت أناملها على فمها عائدة خطوة إلى الوراء، وممسكة بكف سميرة باعدة إياها على الجانب الآخر، ثم طرفت بجفنيها سريعاً وندت شفتاها عن ابتسامة واسعة: شو ها الحلا؟!... شو ها الحلا يا ست سميرة؟!... والله واتغيرنا وبقينا غير شكل... خبريني شو سويتي بحالك؟

سميرة معاتبة: بعد إيه بقى؟! ده لو مكنتش قولتلك مكنتيش أخدتي بالك.

هالة: عن جد آسفة يا سميرة... بس الجو متوتر وخايفة ليتكرر يوم شكسبير... لكن سيبك... إنتي حليانة كتير... وين كنت مخبية كل هاد؟!

كادت سميرة أن تنفجر زهواً بكلمات هالة، وبدأت تخطو وتتكلم من منطلق موقعها الجديد في الجمال، فبدت أكثر ثقة وعلياء، لكن صوت جرس الباب قطع عليها طريقها نحو المقعد، فاستدارت باتجاه الباب مرة أخرى. بدا صوت الجرس متعجرفاً فقالت: أعتقد إن دي منال... أمال أمل فين؟

دخلت منال بمقدمة سريعة وخاطفة: أنا بس إجيت لخاطركن مش لخاطري أنا... تصرفات سميرة الغريبة والمرة عم تعمل حواجبها، أكدتلي إنكن بحاجة لإنقاذ عاجل.

ضحكت سميرة وهالة مؤمنتين على قول منال، لكن سرعان ما اختفت الضحكات ليحل محلها تساؤل: "أين أمل؟". اتصلت سميرة بأمل، فأجابتها بسرعة وكأنها تضع إصبعها على زر الإجابة بالهاتف: إنتي فين يا أمل؟

أمل: أنا قاعدة على كورنيش الممزر؟

سميرة: مش هتيجي على عشا هالة؟

أمل: وإيه الجدوى... إحنا مصرين على الحياة في مصير مقرف ودنيا مقرفة.

سميرة: لا مش حقيقي... تعالي وإنتي تتأكدي بنفسك إننا مش هنعمل كده... أنا اتغيرت يا أمل... تعالي شوفي شكلي... هالة اتجننت لما شافتني، ومنال جت معايا الصالون عملت حواجبي.

أمل: عملتي حواجبك؟! بتتكلمي بجد؟!

سميرة: أيوه والله!... تعالي عشان تتأكدي بنفسك.

أمل: طب اقفلي اقفلي أنا جاية فوراً!

كان حاجبا سميرة دافعاً مهماً لتحريك أمل من أمام أمواج الخليج المتخبطة بجدار كورنيش الممزر! فأسرعت بترك عادل المتأرجح أمامها عليها، واتجهت نحو منزل هالة كي ترى شكلها الجديد، وكيف غيرا من وجهها. بمجرد أن خطت داخل منزل هالة حتى تساءلت عنها، وعندما

وقعت عيناها على وجهها حتى صرخت: يااااااي... مش ممكن!... وشك نور وبقيتي زي القمر... لا وإيه ده؟! إيه اللي حصل للطرحة؟! وإيه الهدوم الحلوة دي؟!... ده احنا بقينا حاجة تانية خالص!

لم يمر هذا اللقاء بفشل كسابقه، بل كان ناجحاً، على الأقل في تقريب النساء الأربع من بعضهن البعض، كل واحدة أخبرت بما جاء على بالها بعفوية ولم تلق بالاً لمحاذير عليها أن تحتفظ بها لنفسها. تحدثت منال لأول مرة بعيداً عن بقعة شهرتها وشخصها الإعلامي المرموق، بينما بدت سميرة مختالة بشكلها الجديد، وتضامنت معها أمل بحب حقيقي، أما هالة فكانت سعيدة لأنها أخيراً قدمت عشاءً ناجحاً بمنزلها، وارتدت ثوباً من تلك التي ابتاعتها من أجل عيني أحمد، لكن بصره لم يقع عليها، ورغم يقينها أن هذا التجمع أتى من أجل مساعدتها على الخلاص منه، إلا أنها شعرت بزخم وجوده داخلها فتحركت بين ضيوفها بقوة حضوره!

(٥)

النتيجة التي خرجن بها من اجتماعهن لم تكن محددة في نقاط، فهن لم يتحدثن عن خطط أو خطوات يجب اتباعها في المستقبل للخلاص من أزماتهن، فقط مر الوقت في الثرثرة وتناول الطعام الذي أعدته هالة بمهارة أثارت غيرتهن، فبدأن يتساءلن عن الوصفات، وكيف أخفت عنهن هالة موهبتها هذه طوال كل ذلك الوقت، فلم يكن منها سوى أن أخبرتهن بأنها على استعداد تام لأن تُعلمهن الطبخات الشامية. بالطبع لم يمر هذا الاقتراح

مرور الكرام على منال، فنهضت مذعورة من مقعدها وعادت لعجرفتها السابقة معلنة أن "الأكل اللبناني ما فيه متله بالمنطقة العربية كلها"، حينها سحبت أمل قوس الكونترباس وأعادته بسرعة إلى موضعه بقولها: "خلاص إنتي تعلمينا الأكل اللبناني وهالة تعلمنا الأكل الشامي". لم تتمكن منال من التراجع، رغم أنها لا يربطها بالطعام اللبناني سوى جواز السفر، والتهامها له منذ وعت الحياة! لكنها في النهاية لم تتمكن من الاعتراف بالحقيقة على توتر رعشات قوس الكمان!

الآن وقد مرت سنون على حكاية نسائي الجميلات، إلا أنني أؤكد أن المطبخ كان أولى الخطوات للخلاص من الجحيم - أتمنى أن تعتمدوا روايتي دون روايات الآخرين! - معه حكين وبكين واجتاحتهن النشوة عند تذوقهن للطعام أثناء طهيه على طرف ألسنتهن، وسرحن في ملكوت البخار الصاعد من القدور، وتذكرن اللحظات الحلوة واللحظات المرة، وفصدنها مع قطرات الندى القافزة من مسامهن والمنتفضة على إثر حرارة الفرن!

بدأت سميرة كورس "الطبخ"، ربما لأنها أحبت أن تُكمل طريقها الأنثوي الذي اعترضه تامر بقسوة، ثم أتى رمزي ليقيم فيه سداً مانعاً للمرور. بعد أن أنهت متطلبات عملها وقبل انتهاء الدوام اليومي بساعة، دخلت على "جوجل" لتبحث عن أكلات شامية تشبه تلك التي طبختها هالة. لم يكن الأمر صعباً على "جوجل" فبمجرد كتابة الكلمتين، حتى رص لها قائمة طويلة لا تنتهي من "اللينكات" التي تضج بوصفات الشام! اختارت بعض الأكلات ودونتها في ورقة صغيرة ثم اتجهت نحو مكتب هالة لتخبرها.

سميرة: خلصتي شغل يا هالة؟

هالة: إيه خلصت.. بس منتظرة الدوام ينتهي.

سميرة: طيب بصي بقى، أنا طلعت من على النت أسماء أكلات شامية شكلها لذيذ وعايزاكي تعلميها لي.

ابتسمت هالة وقالت: وشو ها الأكلات بقى خبريني؟!

سميرة: تبولة وشاكرية ومقلوبة الباذنجان وحلاوة الجبن!

هالة: خلاص **done**، بس شو رأيك نخبر أمل ومنال؟!... ناخد قهوة الصبح مع بعض وبعدين نطبخ؟

سميرة: ده يوم الجمعة أكيد؟!

هالة: أكيد.

ومع هذه الجمعة بدأ "ماراثون الطبيخ" الذي لم ينته. اجتمعن في شرفة هالة، حيث الجو منعش تسري فيه رعشة برد خفيفة من رعشات شهر ديسمبر. بدأن بفناجين القهوة في أيديهن، ثم انقلبت على أفواهها فوق الصحون، ليتبادلن قراءة الفنجان لبعضهن البعض، وسط ضحكات هستيرية؛ لأنهن جميعاً لا يعرفن شيئاً عن قراءة الطالع بأي طريقة من الطرق، لكنهن في النهاية تمادين وسرحت كل واحدة في خيال جامح، لتمنح صديقتها كل ما تحلم به من خلال طالعها الذي تخطه تعاريج "التنوة" المتبقية.

في المطبخ لم يكن خلط المكونات ببعضها البعض، وسرد خطوات كل وصفة هو كل المشهد، لكنهن اختلطن في لوحة سوريالية داخله، فواحدة تساعد هالة في الطبخ، وأخرى تُعد قهوة جديدة، وثالثة تغسل الأواني المتسخة الناتجة عن عملية الطهو. مر الوقت عليهن وهن يتنقلن من موضع لآخر داخل مربع المطبخ الصغير، لكنهن شعرن برحابة تتسع لضمهن دون تذمر. وعندما أصبح الطعام جاهزاً شعرن جميعاً بأنهن استطعن أن يقدمن إنجازاً عظيماً

للبشرية! بدا الحدث ضخماً ويستحق افتتاحاً لائقاً به. ضحكن وهن يمثلن قطع شريط الافتتاح، متجهات نحو طاولة الطعام الغنية بالأطايب التي طهونها معاً، ثم جلسن بعشوائية يلتهمن الطعام دون أن يفكرن في قوامهن الذي قد تدمره قائمة الطعام الدسمة. أكلن وكأنهن يأكلن لأول مرة في حياتهن، أكلن ما صنعنه بأيديهن لأنفسهن دون تدخلات خارجية، ضحكن دون مجاملات، ودون سحب من الأسى تعبر على الذاكرة، واستلقين على الأرائك متخمات دون شعور بالندم، ولكن برضا لم يسبق لهن أن شعرن به من قبل.

(٦)

استنفر يوم المطبخ حواس الجميع، وشعرت كل واحدة منهن أن عليها تقديم نشاط مختلف لباقي الفتيات. لم يكن الأمر مرتباً أو مُعداً له مسبقاً، لكنه جاء عفوياً منهن جميعاً. انغمست هالة في مشاهدة قنوات الطبخ، واشترت الكثير من كُتب الطهو التي تنتمي لبقاع مختلفة من العالم، انقسمت حياتها بين العمل وتجريب الوصفات الجديدة، لتدون في دفتر خاص الوصفة الناجحة حتى تُعلمها للبنات. كان الأمر سهلاً بالنسبة لمنال فعالمها مليء بالمغريات الأنثوية، حيث الأناقة والموضة والجمال والرشاقة، وهذا هو ما عرضته عليهن. أما أمل فلم يكن في عالمها سوى الكُتب والسياسة والعمل والنوادي الليلية وكؤوس الفودكا وماراثون تحدي الرجال، الذي أكل سنيها، إضافة إلى موهبتها السرية التي لم يكن يعلم عنها أحد سوى عادل! عالم خَشن بلا هفهفات حرير أو موسيقى ناعمة! على

العكس تماماً كانت سميرة، فالمزاج الرائق الذي عم تلك الأيام، أعاد إليها هوايتها القديمة – عشق الألوان – فقررت أن تغمر أيام الفتيات بها.

مرت الأيام على نسائي الجميلات أكثر راحة وبهجة. لأول مرة تنسى أمل كل ما يتعلق بعادل، وتنام دون أن يتجسد أمامها وتشتهي عناقه، أما سميرة فأصبحت تنظر لصورتها في المرآة دون أن ترى إعاقتها، ولم تعد منال تهتم بتأكيد صورة الأسرة السعيدة في عيون المحيطين بها، حيث اختفى كل الناس ولم يبق سوى الفتيات الثلاث اللائي شغلن أوقاتها خارج الاستوديو، ونفس الشيء فعلته هالة حيث أصبحت تطهو طعاماً دون أن تتخيل أنه لأحمد، ولأول مرة ترغب في شراء ملابس لا تُخطط لأن يراها أحمد. عندما أعلنت هذه الرغبة في واحدة من الجُمع التي يلتقين فيها، سحبت منال نفساً عميقاً وقفزت في أعماق البحر الذي تعرف شعابه جيداً. لم تعترض أي من نسائي، فكلهن كن بحاجة إلى أن يتسوقن لشراء ملابس جديدة تناسب أداءهن الجديد في الحياة.

يمكننا تخيل رقصة منال المنفردة داخل بقعة الضوء الوحيدة على مسرح التسوق، تسير كغزال متبختر بين المحال التي تحفظ مواضعها بالمراكز التجارية والخريطة الداخلية لكل منفذ بيع، لا يمكن أن يخطر على بال امرأة شيء تبتغيه دون أن يكون لديها قائمة من أفضل العلامات التجارية العالمية التي تتناسب وجميع الطبقات الاقتصادية. لم يكن خافياً على أحد من "الوليات المتحدة" مهارة منال في هذا الأمر، لكن من يسمع غير من يرى، فكلما فكرت واحدة في شيء تُريده حتى أرشدتها منال لمحل بيعه والرف المعلق عليه. كانت آية تسوق إعجازية جسدها الله أمام أعينهن!

فسرن خلفها منومات مسلوبات الإرادة تماماً، حتى عُدن إلى منازلهن وكانت الفاجعة!

اكتشفت أمل أنها لأول مرة في حياتها اشترت "فساتين" كثيرة، ولا مكان لبنطال أو قميص، وعندما راجعت فواتير الدفع المكرمشة داخل حقيبتها وجدت أنها في يوم واحد اشترت أغراضاً بخمسة آلاف درهم، فصرخت بأعلى صوت لها: الله يخرب بيتك يا منال!!

سميرة ارتعبت بعد أن راجعت فواتيرها، لكنها لم تصرخ، فقط أعادت ترتيب ميزانية الشهر خاصتها، وانتقصت من بنودها لصالح بند إعادة تأسيس خزانة ملابسها، ولم تنم حتى ألقت بجميع ملابسها القديمة خارج الخزانة، ورصت بعشق حقيقي أغراضها الجديدة.

هالة تعجبت أنها لأول مرة تشتري ملابس رياضية كثيرة، وأخذت تفكر لماذا فعلت ذلك؟! لكنها في النهاية أحبتها ووضعتها داخل خزانتها، بعد أن أزاحت بعضاً من قطع الملابس المرهونة باسم أحمد، ورغم القرصة الخفيفة التي لسعت منتصف قلبها، إلا أنها لم تلبث أن اختفى أثرها، وأكملت إعادة ترتيب أوراق خزانتها بين الأولويات وما يليها. ولم تنس أن تُلقي بالفواتير في سلة المهملات حتى لا تشعر بالندم كلما شاهدتها!

كان ذلك اليوم نادراً بالنسبة لمنال، فلأول مرة تُمضي يوماً كاملاً في التسوق دون أن تشتري قطعة واحدة لنفسها! مع ذلك تشعر بالسعادة وتملأ المتعة نفسها فترقص روحها على كعبيها المرتفعين ١٥ سنتيمتراً عن الأرض، ولأول مرة تبتسم لابنتها وتلوح لها من بعيد قبل أن تختفي في غرفتها لتنام كطفل سقط من فرط اللعب.

دعوني أتذكر مشاعري أثناء تلك الفترة؛ آسفة لقد تعودتم أن أصف لكم مشاعر نسائي الجميلات، لكنني ورغم أنني لست محددة الملامح لديكم، ولا تعرفون من أين أتيت وما علاقتي بهؤلاء النساء؛ إلا أنني قررت أن أتحدث قليلاً عن مشاعري أثناء تلك الفترة: "كنت مضطربة... نعم كنت مضطربة، فأنا لأول مرة أخرج من الغرفة المظلمة التي حبستني فيها صاحبتي؛ فلم أجد سوى مراقبتها ورصد حركاتها تسلية، لدفع الملل الذي يحيط بحياتي قليلاً. أعترف أنني اعتدت لعب دور الإلهة أحياناً بأن أتدخل دون أن تدري، فتضطر إلى فعل أشياء ترفضها عن عمد، لكنني في النهاية كنت أرغب في أن أعيش ذاتي وأتنفس وأتحرك بحرية، لذلك شعرت بالسعادة عندما امتلأت الأجواء بكل هؤلاء النساء، وبدأت صاحبتي تتفاعل معهن وتعيش تجارب جديدة لم تكن لتقدم عليها من قبل، ولأول مرة منذ أن حبستني، تستجيب لي وتفتح لي الباب قليلاً... هذا هو ما أربكني وأشعرني بالاضطراب، فأنا اعتدت رصد حياتها، والتنظير في ما يخص كيفية تعاطيها معها، لكنني لم أجرب منذ كنت طفلة أن أتعامل مع الحياة وجهاً لوجه... لذا أرجوكم اعذروني إن بدا سردي في المرحلة القادمة مرتعشاً قليلاً؛ لأنني سأحكي منذ هذه اللحظة من قلب الحكاية لا من أعلاها"!

(٧)

أنا أحب اللعب كثيراً، أعلم أن الزمان قد فات على وقت اللعب... لكنني... لا أدري كيف أعبر عن نفسي!... أنا أحب اللعب وكفى! لا تشغلوا بالكم بي كثيراً، فأنا من المفترض خارج اللعبة... أقصد الحكاية... أنا الراوية لتفاصيل هؤلاء النساء بمن فيهن صاحبتي. في الحقيقة مزاجها

الرائق خلال تلك الأيام أتاح لي حرية الانطلاق، فبدأت معها ممارسة إجراءات حياتية لم نُقدم عليها في حياتنا قط؛ كأن ننتظم في السباحة بالنادي، ونتعلم رقصات جديدة، ونتقافز على نغمات الموسيقى ونحن نلعب الأيروبكس. كانت طقوساً رائعة، والأروع أننا كنا مع باقي البنات، كلهن انتظمن في ممارسة الرياضة، كلنا ملأنا قاعات التمرينات الرياضية صخباً وضحكاً وبهجة تُشع من أعيننا، حتى منال لم تعد تهتم بمظهرها العام أمام الناس، ونسيت تماماً شخصيتها التليفزيونية الشهيرة.

أعترف أنني كنت أنتظر يومي الجمعة والسبت بفارغ الصبر كي نلتقي، كنت أنغمس في العمل طوال الأسبوع، وكأنني أقدم جميع المبررات الممكنة للحياة كي تسمح لي بالاستمتاع مع صديقاتي الجديدات، نعم صديقاتي! فلقد تحولت "نسائي الجميلات" إلى صديقات حقيقيات، نمضي وقتنا الحقيقي معاً، وحتى طوال الأسبوع لا نتوقف عن التواصل هاتفياً، وأحياناً كنا نقوم بعمل "**conference call**" ليلاً بعد العودة من العمل. استطعت معهن أن أنام بهدوء في فراشي مبكراً، وأن أتذوق جمال الطعام في اجتماعاتنا "المطبخية" لاكتشاف وصفة جديدة من مكان مختلف في العالم. استطعت أن أحب وجهي في المرآة، وألا أنظر لنفسي باحتقار، ولا أخجل من جميع نواقصي ومشاعري السلبية تجاه العالم، بل أتحدث عنها بعشق.

كانت أياماً مميزة بحق ولا يمكن أن تتكرر، لكنني في الحقيقة أعيش على هديها حتى الآن... ما الذي يحدث لي؟! اعذروني فقد حذرتكم من قبل، أنه قد أُصاب بالتشوش وأنا أقوم بدوري الإلهي العظيم في سرد حكاية نسائي الجميلات. على أية حال، سأحاول ضبط سيل ذكرياتي وأعود مرة أخرى إلى مِقعدي، كي أروي لكم تفاصيل ما جرى.

(٨)

ما لا يعرفه أحد عن أمل، عدا عادل بالطبع، أنها راقصة لا ينقصها شيء للاحتراف. وكما اعتاد عادل أن يقول لها؛ إنها قد ضلت طريقها نحو عالم الصحافة والإعلام، كان كل من يوجد بحلبة الرقص في أي نادٍ ليلي يتعامل معها كفقرة راقصة، ضمن فقرات النادي الفنية، فيفسح لها الحلبة ويلتف حولها حتى تنتهي من استعراضها الراقص! دائماً ما كانت تأتيها عروض للعمل، وكان عادل يستمتع وهو يشرح لمدير النادي الليلي أن "مُعجزة" الرقص تلك تعمل في مجال الصحافة والإعلام! وأنها ليست راقصة محترفة، ثم يستغرق في الضحك وهو يرى ردود الأفعال المختلفة لكل واحد منهم.

لا تنسى أذنا أمل أبداً رنة قهقهات عادل الخلابة، وهو يحاول إقناع مدير لبناني في أحد الملاهي العربية بدبي، أن أمل ليست راقصة، بينما يصر الرجل على أنه مستعد لدفع أي مبلغ يطلبه، وفي النهاية لجأ لأمل كي تحسم الجدال مع مدير أعمالها – عادل – حينها ابتسمت وقالت: آسفة بس أنا ومدير أعمالي بننام مع بعض، وهو بيعمل سكس حلو أوي، وعشان كده أنا شخصيتي ضايعة معاه. كانا يعزفان على نفس الوتر، يحملان نفس الملامح، حتى الوقاحة بينهما متشابهة!

بعد عام كامل من التدريبات الروحية – هكذا أطلقت أنا على لقاءات البنات – داهم أمل الحنين لعادل لمجرد اشتياقها إلى طقوس الرقص التي تعشقها في صالات الملاهي الليلية. منذ أن اختفى عادل من حياتها، لم يعد للرقص مكان، غاب تماماً عن ذاكرتها، رغم كونه ضمن مكوناتها الرئيسية،

فهي لا تفكر دون أن ترقص، ولا تحزن دون أن ترقص، ولا تفرح دون أن ترقص، ولا سلاح آخر في يدها لمواجهة التوتر والقلق. كان طقسها السري الذي تمارسه دائماً بعيداً عن الأنظار. واجهه زوجها بعنف واستهتار، متعجباً من امرأة مثقفة ترقص بمثل هذا العُهر؟! فالتصقت قدماها بالأرض وتوقفت عن الدبيب، وتيبس خصرها فلم يعد يعرف الارتعاش على تواترات الطبلة أو قفزات القوس على أوتار الكمان. وعندما بزغ عادل في بقعتها، سلط عليها ضوء الشمس وفتح لها أبواب الكشف، فرقص معها وصفق لها وحملها طائراً بها نحو السماء.

الآن تتمنى لو لم يرتبط بطقسها الراقص، فلو ظل الرقص سرها المكتوم داخل صدرها وحدها، لما كان صعباً عليها أن تعود إلى سيرتها معه الآن. اتصلت بها سميرة وهي غارقة في دموع لا تستطيع كبح جماح انهمارها، فأجابت على الهاتف متلهفة كي تنقذها صديقتها العزيزة. كان لتهدج صوتها ونبرته الضعيفة وقعاً مرعباً على مسامع سميرة، فأنهت الاتصال وأسرعت لمنزل أمل رغم تأخر الوقت ليلاً. بمجرد أن فتحت أمل الباب، ألقت بجسدها على سميرة فاحتضنتها بذراعها اليسرى، ومن ثم أعلنت عدم قدرتها على تحمل ثقل جسدها أكثر من ذلك، وأن عليهما الدخول للحديث.

أمل: أنا ضعيفة جداً مش قوية زي ما كل الناس فاكرين... طول الفترة اللي فاتت وأنا مشغولة معاكم ونسيت عادل تماماً، لكن بمجرد ما جه على بالي أرقص افتكرته... حاجات كتير يا سميرة في حياتي تخصه هو لوحده، وبترجعني ليه من غير ما أعرف.

سميرة: يعني بس عشان عايزة ترقصي افتكرتيه وقاعدة تعيطي؟!

أمل: طول عمري بارقص بعيد عن عيون حتى أهلي... كنت باتفرج على سهير زكي وأقلدها، وكمان كنت باتعلم من كل الرقصات اللي بتيجي في الأفلام الأجنبي...كنت باخاف حتى أمي تعرف إني مجنونة رقص... لكن مع عادل مخفتش ورقصت قدامه، وهو كمان رقص معايا وخدني في كل مكان عشان أستمتع بالرقص قصاد الكون كله... هو لوحده اللي شاركني هوسي في كل حاجة حتى الرقص.

سميرة: طب إيه رأيك نروح الخميس الجاي كلنا نرقص في **night club**، وترقصي زي ما إنتي عايزة ونرقص معاكي؟! عشان يبقى الرقص عندك مرتبط بينا، وترقصي من غير ما تفتكري عادل!

أمل بفرحة: بجد؟!

اعتبرت سميرة مهمة الرقص هذه واحدة من أهم المهام التي يجب أن تنجزها بنجاح حتى نهاية الأسبوع، لذلك أجرت اتصالات عدة بالبنات اللائي وقعن في حيرة عظيمة، لأنهن لا يمتلكن معلومات كافية عن الملاهي الليلية بدبي، فما كان من منال إلا أن استعانت بأحد المعدين العاملين ضمن فريقها بالقناة التليفزيونية، حتى تحصل منه على اسم لواحد من الملاهي الليلية المرموقة والتي لا ينتشر بها فتيات الليل!

مع قدوم يوم الخميس كانت الخطة مكتملة لدى سميرة ومنال، حيث حددتا الساعة العاشرة مساءً موعداً للانطلاق باتجاه ملهى "كوبا كبانا" بدبي مارينا، في منطقة جميرا الراقية. لم تكونا على علم بأن "كوبا كبانا" إحدى أهم محطات أمل وعادل في سهراتهما، وهي أيضاً لم تعلن لهما الأمر وأحبت أن تستعيد بعضاً من ذكرياتها مع رجلها الذي غاب. على باب الملهى الليلي كانت المفاجأة التي لم يحسبن لها حساباً، فقد قام الحارس

بمنع سميرة من الدخول لأنها محجبة، وعندما حاولن الاعتراض نظر الرجل في عيني سميرة وقال بصدق: سيدتي هذا هو القانون، وقد تم سنه احتراماً لك ولحجابك!

لم تستطع الفتيات الاعتراض بعد تلك الجملة، وآثرن الالتفاف والعودة من حيث أتين. حاولت سميرة الاعتذار كونها أفسدت الليلة، لكنهن أنكرن تماماً أن الليلة قد فسدت وبإمكانهن قضاء السهرة في أي مكان آخر. رفضت سميرة العرض بهدوء، لكن داخلها كان يغلي ولأول مرة شعرت أن غطاء الرأس الذي يعتليها لم يعد يعبر عنها بصدق.

في اليوم التالي وبعد أن أنهت تدريباتها مع صديقاتها بالنادي، خرجت معهن بدون غطاء رأس، وعندما صرخت هالة مذكرة إياها بأنها قد نسيت طرحتها، أجابتها بثقة: خلاص من النهارده أنا مش محجبة، معدتش حاسة إني محجبة!

(٩)

انقلاب سميرة على غطاء رأسها لم يكن الأعنف بين الانقلابات التي تتابعت في الأيام التالية، فمن حيث لا مكان ولا زمان انبثقت أفعال مدوية بين الفتيات. حقيقة لا أدري كيف حدث ذلك ولماذا؟! لكن ربما كان للأنشطة التي مارسنها معاً فعل السحر عليهن جميعاً. آسفة ولكني لا أجد سبباً آخر، فهن لم يفعلن منذ أعلن قيام "الوليات المتحدة" سوى الطبخ ولعب الرياضة والتسوق والتجمل وقراءة الفنجان وتبادل النميمة

والحكايات العشوائية فقط. لم تكن هناك إجراءات جادة أو مواجهات حادة لمشاكلهن، ولم يناقشن مشكلة واحدة بشكل حقيقي! فمن أين إذن المقدمات التي أدت إلى تلك النتائج؟!

أعلنت منال انقلابها بين الفتيات، وهن يسهرن بالملهى الليلي التابع لمنتجع الحمرا فيلدج جولف برأس الخيمة، حيث قررن كسر رتابة إجازتهن الأسبوعية بالخروج من حدود دبي إلى باقي الإمارات. ربما التعويذة التي ألقتها الراقصة الشرقية على الحضور، كانت السبب في حالة الهياج التي أصابت الجميع وبينهم الفتيات، ففتحت كل الصناديق المغلقة داخلهن، وقررن ألا يعلقن الأقفال عليها مرة أخرى، بل ألقين الصناديق نفسها في النار التي أشعلتها الراقصة حولها! نعم فتلك الجنية الراقصة فاجأت الجميع بتفريغ زجاجات نبيذ كاملة حولها، راسمة دائرة واسعة، ثم أشعلت عود كبريت أشعل دائرة اللهب في أقل من دقيقة، بعدها التقطت سيفاً ألقاه مساعدها من بعيد لتهتز بجنون شاهرة السيف في وجوه الجميع!

أول من سيطرت على نفسها من هول المفاجأة كانت منال، فقد قفزت من على مقعدها واخترقت النيران لتجاور الراقصة وترتعش معها في طقس أشبه بالزار. كانت خطوة منال دعوة لباقي الفتيات لأن يتقافزن كفراش منجذب للضوء، يتخايل بألوان أجنحته الزاهية، ويهتز في صلاة تسبق الانتهاء. انتعشت الراقصة مع رفيقاتها، وطلبت من مساعدها أن يلقي بسيوف إضافية سلمتها إليهن، فتناولنها بلذة انتصار مبهمة، ودببن بكعوبهن على الأرض شاهرات السيوف في وجه العالم. وقبل الجملة الموسيقية الأخيرة، دارت منال على أذانهن جميعاً حتى الراقصة وهمست بجملة واحدة: لن أعود لمنزل الزوجية الممل بعد هذه اللحظة. رغم تلقي

الفتيات للقرار بالسكون والصمت، إلا أن الراقصة رفعت السيف لأعلى وهي تقفز بصرخة أشبه بصراخ الهنود الحمر وهم مقدمون على الحرب! فالتفتن جميعاً إليها، ودون قرار مسبق اشتركن في صراخ مماثل، وكأنهن قررن المشاركة في الهجوم!

بعد انتهاء السهرة، خرجن منهكات إلى الساحة الخضراء المخصصة للعب الجولف، بعد أن خلعن أحذيتهن ليسرن منهكات بعد حرب الرقص الطويلة التي خضنها. الصمت كان سيد الموقف، فلم تفتح أي منهن فمها لمناقشة قرار منال العاصف، بل كانت تبحث كل واحدة عن طريقة مناسبة لإلقاء قنبلتها الصغيرة تحت الأقدام. ولأول مرة تمتلك هالة الشجاعة لتخترق الصمت، وتعلن بصوت متهدج حزين أنها قررت الموافقة على عريس درزي من لبنان، رشحتها له إحدى الصديقات. كان الإعلان عاصفاً بحق، فهالة كانت آخر واحدة يمكن التوقع أن تتحول مائة وثمانين درجة بمثل هذا العنف، لكن أمل دحرجت مفرقعاتها العنقودية، وأعلنت أنها حجزت تذكرة طيران للسفر إلى القاهرة كي ترى ابنها وأمها.

هكذا وببساطة في منتهى العمق، قدمت كل واحدة جنون تحولاتها على بساط حريري أحمر، فلم يجدن سوى البكاء لإعلان فرحتهن ببعضهن البعض، لينتهي المشهد بعناق تكونه ثماني أذرع. ألا يوجد من يسأل أين كنت أنا؟! سأجيب حتى لو لم يهتم أحدكم بالسؤال! كنت أبحث عن الكرات الضائعة من اللاعبين بين الحفر في ملعب الجولف!

(١٠)

سبع سنوات كاملة بلغها الطفل بعيداً عن أمه، يتذكر خيالات لها في زيارات قليلة وقصيرة، وهي تفرغ حقائب محملة باللعب والملابس، دون أن تنظر في عينيه ثم تختفي. تقول له جدته إنها أمه، وعندما يسأل عن والده لا يجد إجابة. لم يكن يدري أن والدته تنفق عليه في ظل عناد أبيه، فهو لم يكن يعنيه ذلك كثيراً، وإنما يتساءل ببساطة عن الخطأ الذي ارتكبه فجعل والديه يتركانه.

في طريقها إلى القاهرة، كانت متيقنة من صعوبة مهمتها، لكنها لم تجد طريقة أخرى لوقف نزف البعاد بينها وبين روحها التي اقتلعتها بيديها. لم تفكر في عادل أو أمها أو زوجها السابق، أو أي أشباح تطاردها من الماضي، فقط ولدها الذي حَمَّلته خطايا جميع الرجال في جميع العصور دون ذنب وقطعته. ولأول مرة ترى بوضوح فداحة ما اقترفته في حق قطعة اللحم التي اجتزئت منها، والحياة التي انبثقت من روحها. ولم تكد تسيطر على مشاعرها داخل الطائرة، حتى تجلى لها هول انتزاع جنينها وإنهاء فرصته في الحياة بكلتا يديها، فأصابها الاختناق وبدأت في الصراخ لطلب النجدة.

بينما تحاول المضيفة إسعاف أمل، كانت منال تُفرغ حقائبها في خزانة الشقة الفندقية التي استأجرتها بمنطقة الـ"جي بي آر"، يهيمن عليها شعور رقيق بالانتصار وهي تتجاهل جميع اتصالات أبيها وأمها وأخيها. كانت تعلم جيداً أنها بهذه الخطوة تلقي بعود ثقاب مشتعل في كومة قش مفعمة بالبنزين، لكنها لم تعبأ بالحرائق حولها، مطمئنة إلى بقعتها الباردة التي تمكنت من الاهتداء لها بعد طول لأي.

الأمر الذي سيثير استنكاركم بالطبع هو تجاهل منال التام لمسألة ابنتها، وعلى عكس أمل التي عاشت معذبة بسبب ابتعادها عن ابنها، لم تتذكر منال موضوع ابنتها بأي شكل من الأشكال، فقد كانت تمثل لها ورماً سرطانياً يجب استئصاله في أقرب فرصة ممكنة، فهي لم ترغب في إنجابها، وليلة تخصيبها بحيوان زوجها المنوي كانت ليلة مقرفة تماماً أفرغت ما في معدتها عقبها مباشرة، ولم تُمثل لها أيام حملها سوى سجن مع الأشغال الشاقة، أنهتها بتحديد موعد مع الطبيب لإخراج الفتاة من رحمها، دون انتظار لأي آلام مخاض، فلم يبق ذكرى للولادة تزيد عن عملية استئصال للزائدة الدودية!

في نفس الوقت أخذت هالة وسميرة تجمعان أغراضهما سريعاً، متوجهتين من مقر عملهما إلى الموعد الأول بين هالة وخالد طبيب التجميل اللبناني الدرزي، والذي رشحتها له إحدى معارفها. اختلطت المشاعر داخل هالة؛ فلم تكن قادرة على تغليب عقلها بالكامل، وأخذ قلبها يتسلل نحو بصرها بصور لأحمد وتاريخ طويل من العشق أصبح جزءاً لا يتجزأ من تركيبتها النفسية، فلم تستطع أن تمنع آهة حزن خرجت من فمها بهدوء، والتقطتها سميرة بفهم كامل للسبب.

سميرة: إحنا اتفقنا إنه مش ضروري نلغي كل حاجة جوانا عشان نبدأ صفحة جديدة.. مش كده؟!

هالة: إيه!

سميرة: إنتي بتبدئي صفحة جديدة من غير أحكام مسبقة، ممكن تفشل، وممكن تنجح وتلاقي نفسك نسيتي كل حاجة عن أحمد.

هالة: ما بتخيل إني راح إنساه بالكامل!

سميرة: ما قلنا بلاش أحكام مسبقة!

هالة: أوكيه!

لم تكن سميرة تعلم أنها على موعد مع القدر، كما يقولون في الأفلام العربي القديمة، فرغم سذاجة الفكرة إلا أنها تحدث على أية حال حتى ولو نادراً! فسميرة التي نقبت في أعماق الإنترنت بطوله وعرضه عن ذكر وأصيبت بخيبات متتالية ومتلاحقة، انشغلت كثيراً بكيفية تطوير شكلها حتى يتناسب وإحساسها بذاتها وفقاً لتطوراتها الأخيرة، بعد أن غابت إعاقتها بشكل كبير عن محيط وعيها اليومي. فبعدما انتهى اللقاء الذي جمع هالة بخالد، في ظل رعايتها ورعاية الصديقة التي رشحت العروسين لبعضهما البعض، اقترح خالد أن يصحب الجمع لسهرة لطيفة بملهى "أوكسجين" بفندق البستان روتانا، مبرراً دعوته بالقول: "اليوم الثلاثاء ladies night وإنتن ثلاث نسوان.. شو بدكن فيني أنا... راح اشتغل إلكن شوفيرا وصلكن بعدين برجعكن كل واحدة عابيتها". ابتسامته الجذابة والغمزة التي تظهر بين الحين والآخر عند طرف عينه اليسرى، دفعت هالة لأن تُشرق بابتسامة حُلوة، رصدتها سميرة على الفور، فوافقت على السهرة قائلة: "يالا أنا موافقة"، وعندما دفعت هالة بحجة الشغل في اليوم التالي، أكدت لها سميرة أن مستقبلها الوظيفي لن يدمر بسبب يوم تأخير أو غياب واحد على مدار عمرهما كله!

اعتذرت الصديقة التي لعبت دور الخاطبة، لأنها أم ومضطرة إلى العودة إلى طفليها ووالدهما، لكن ذلك لم يجعل سميرة تَشعُر بأنها متطفلة على هالة وخالد، فهي رغبت بشدة في أن تستمتع بالموسيقى الأسطورية التي أدخلت عليها إحساساً بأنها جزء من فيلم هوليوودي، وكذلك بكؤوس الشمبانيا المجانية التي يتم توزيعها على النساء في ليلتهن الأسبوعية. نسيت سميرة تماماً أنها حضرت مع

هالة وخالد، وبدأت تدور في المكان تتفرج على الوجوه والعيون المنيرة بالبهجة. سحرتها ابتسامة النساء في عيون عُشاقهن، وسرحت في خيال يجمعها وعينين تنظران لها بنفس الطريقة. جسد سميرة استجاب للموسيقى المنسابة بنعومة، فأخذ يتمايل متناغماً مع الستائر الحريرية التي تتهدل في أرجاء المكان، وشعرت وكأنها ترقص بين السحاب وسط السهول الخضراء في مشهد بوليوودي هذه المرة!

ما حدث لم تستطع أن تتيقن من كونه حقيقة أم خيالاً! فلقد اقترب منها رجل رأته وكأنه يخرج من فيلم رومانسي، من تلك الأفلام التي أدمنت مشاهدتها، طلب منها الرقص، ثم سحب كأس الشمبانيا بكف وتلقى يمناها بكفه الأخرى، ساحباً إياها نحو البار ليضع كأسها على طاولته، ثم وضع يمناها التي لم تشعر بشللها لأول مرة في حياتها على كتفه، وأخذ يتمايل معها في هدوء حريري شعرت بنعومته على صفحة وجهها فندت عنها ضحكة رقراقة.

في اليوم التالي عندما استيقظت من نومها، لم تستطع أن تحدد إن كان حلماً أم حقيقة، لكنها وهي أمام حوض الاغتسال بالحمام تغسل أسنانها؛ فتحت عينيها بقوة وكأنها تُبصر بعد طول عماء، وألقت بالفرشاة في الحوض جارية بمعجون غسيل الأسنان يملأ فمها نحو حقيبتها لتفرغها كلها على الأريكة، ثم سحبت بطاقة تعريف شخصي مكتوباً عليها اسم ممدوح الخيال، مدير حسابات بشركة كومباك الإلكترونية، ورقم الهاتف المحمول والمكتب مدونان بوضوح عليها. بعد أن أكملت غسل أسنانها اتصلت فوراً بهالة، لتزيد تأكدها من حقيقة وجود ممدوح الخيال هذا، فأكدت لها أنها بالفعل شاهدتها ترقص مع رجل وسيم، وقررت هي وخالد ألا يقطعا عليهما تلك الرقصة، خاصة وأنها أبصرت تناغمها الشديد معه، حينها

سألتها ما الذي يجب عليها أن تفعله الآن، فأخبرتها هالة بأن عليها الانتظار حتى يتصل هو بها، إن كانت بادلته رقم هاتفها! لم تتأكد سميرة إن كانت بادلته الرقم، فسجلت رقمه على هاتفها المحمول وقررت الانتظار حتى المساء فإن لم يتصل ستتصل هي!

نسيت سميرة تماماً أن تسأل هالة عن مدى توافقها مع خالد، لكنها بعد انتهاء يوم العمل الطويل وهما في طريقهما إلى كراج السيارات سألتها، فأجابت: منيح!

سميرة: يعني إيه؟!

هالة: يعني ما عندي شي أشكي منه بخصوصه، هو كتير جنتلمان ومهذب... لكن إنتي بتعرفي إن أحمد!...

سميرة: أرجوكي ما تجبليش سيرة أحمد!... أحمد دلوقت مشغول بمراته والبيبي بتاعه، وحتى إنتي مش عارفة إن كان لسه في الإمارات ولا سابها... كفاية تعطيل لعمرك بقى!

هالة بحزن: حاضر!... صدقيني أنا بأعمل كل ما في استطاعتي.

سميرة: لازم يا هالة... لازم.

في حدود الثامنة مساءً أضاءت شاشة المحمول باسم ممدوح الخيال، فالتقطت هاتفها بسرعة وصوت نبضاتها يعلو على قدرتها على السمع...

سميرة: ألو!

ممدوح: يا ترى مسجلة نمرتي ولا لأ؟!

بخبث أنثوي فطري أجابت: معلش اعذرني... مين معايا؟!

ممدوح: أنا يا ستي اسمي ممدوح... اللي اتعرفت عليكي إمبارح في أوكسجين!

سميرة بفرح: إنت مصري؟!

ممدوح: أيوه!. وإنتي كمان مصرية!. مخدتيش بالك من ده إمبارح ولا إيه؟!

تلعثمت سميرة قليلاً وهي تجيبه، فهي كانت غائبة في حلم أثيري وهي معه، ولم تكن تدرك أنه حقيقة: يعني... أصلي... إمبارح الموسيقى والجو خلاني ما أركزش خالص!

يضحك ثم يقول: إنتي باين عليكي شقية أوي!

سميرة وقد أبهرها وصفها بالشقاوة: أنا؟!... أول مرة حد يشوف إني شقية!

ممدوح: وناعمة أوي كمان... إنتي جننتيني إمبارح وإنتي واقفة بترقصي وفي إيدك كاس الشمبانيا... حسيت إني باتفرج على فانتازيا سينمائية... أصلك لا يمكن تكوني حقيقة!

سميرة وقد عقد كلام ممدوح لسانها: أنا؟!

ممدوح: أيوه إنتي!... مش ممكن محسساني إنك أول مرة تسمعي الكلام ده!

سميرة: ده حقيقي!

ممدوح: يبقى رجالة مصر اتعموا في عينيهم... حورية زيك لا يمكن راجل ما يشوفهاش!

سميرة: كلامك يدوخ... شكلك هتتعبني جداً!

ممدوح: أنا ناوي فعلاً أتعبك!... هاشوفك إمتى بقى؟

سميرة: مش عارفة!

ممدوح: يوم الخميس الساعة عشرة هاخدك على سهرة تنسيكي اسمك!

لم يكن الأمر هيناً على هالة، فقد التزمت بجدول للخروج مع خالد كي يتعرفا على بعضهما البعض جيداً قبل اتخاذ قرار الزواج. فعلت كل شيء كانت ترغب في أن يجمعها بأحمد، وارتدت كل الملابس المخزنة لديها كي تتهادى داخلها أمام أحمد. ابتسمت في وجهه كأنها ترى أحمد، وهمست في أذنه وكأنها تهمس لأحمد... كان دائماً بينهما أحمد. الغريب أن خالد لم يشعر بوجوده بينهما، بل تعلق كثيراً بهالة ورقتها ذات الأبعاد اللامتناهية، ولم يكن يصدق أنه عثر على امرأة بجميع تلك المواصفات التي تؤهلها لأن تكون شريكة عمره.

(١١)

عشرة أيام كاملة أمضتها أمل في محاولة التقرب من ابنها. على عكس ما يمكن أن يتوقعوه، كان الطفل رقيقاً للغاية معها، فلم يصدر عنه أي فعل عدائي، بل رحب بوجودها في المنزل، وأخذ يعرفها على غرفه والنباتات المزينة للشرفة وألعابه وصوره في المدرسة. لكنه في النهاية لم يحتف بوجودها باعتبارها أمه، بل باعتبارها ضيفة عزيزة؛ فالمرأة التي تقوم بتلك الوظيفة هي جدته. أمل التي تسير دوماً بقرنين مغروسين على جانبي رأسها، أشعل ذلك غيظها فارتفعت القرون لأعلى وبدأت في مواجهة أمها بعنف لتسترد ما لها.

برغم تأنيب أمها لها طوال السنوات الماضية خلال المكالمات الهاتفية بينهما؛ لأنها أهملت "ضناها" ورمته، إلا أنها أثبتت ادعاءها لكل تلك الجمل التقريعية والتي ألهبت بها ظهر أمل لأيام طويلة كئيبة ومُنهِكة. عشرة أيام كاملة من الحرب بين المرأتين، كل واحدة تحاول إثبات حقها في الطفل... حتى نشب الحريق بينهما، وحانت الفرصة كي تُخرج أمل كل ما كتمته بجوفها عمرها كله.

أمل: إنتي ست مريضة... مش بتلاقي نفسك غير في الخدمة وبس... تخدمي جوزك برغم إنه كان حيوان ما يستاهلش... تخدمي ولادك لدرجة إنك تخنقيهم برعايتك المهووسة... تخدمي أبوكي وأمك لغاية ما يموتوا، برغم إن عندك إخوات تانيين ممكن يساعدوكي... وتعيشي عمرك كله على الحسنات... حسنة من جوزك وحسنة من ولادك وحسنة من إخواتك...كل ده وإنتي عاملة لي فيها صابرة ومكافحة!... لكن الحقيقة إنك مازوشية ومنسحقة!... اتولدتي واتربيتي على إنك تكوني عبدة للجميع، ومش قادرة تخرجي من إطار العبودية ده أبداً... أنا لو مكانك كان لا يمكن أتحمل مسئولية تربية ابن بنتي، وأريحها من مسئوليتها المفروضة عليها هي مش أنا... لكن إنتي تقريباً استغليتي الفرصة لأنك ما بتقدريش تعيشي غير خدامة منسحقة، واقفة بكل ذل في إطار التضحية... خلاص يا ماما كفاية... خنقتيني بجد... إنتي طول عمرك خنقاني وأنا مكسوفة أشرحلك... بأحاول أفهمك من بعيد لبعيد لكن إنتي رافضة تفتحي دماغك وتفهمي... أنا مش محتاجة رعايتك ليا خلاص... وده ابني أنا مش إنتي... إنتي جدته وبس ولو تحبي تكملي معرفتك بيه... يبقى على اعتبار إنك جدته.

لم تستطع الأم أن تفعل شيئاً غير النحيب، لكن أمل تجاهلت بكائياتها التي لم ترها سوى استكمالاً للإطار المازوشي الذي اعتادت سكناه، لم يداخلها الإحساس بالذنب كونها آذت أمها، فقط كانت تركز على شيء واحد ووحيد... أن تستعيد ابنها إلى حضنها بثقة كاملة.

في نهاية الشهر كان الولد قد نطق اسم ماما بأريحية كاملة، يستيقظ صباحاً ليذهب لأمه كي تصحبه إلى "باص" المدرسة، بعد أن تُعد له إفطاره، وتربط له حذاءه، وتجري وراءه بكوب الحليب مجبرة إياه على شربه وهو يسد أنفه ويشرب، بين ضحكاته وعينيها اللتين تحاولان حضنه لأعمق ما فيهما من بصر. المعضلة المفزعة التي واجهتها في نهاية الشهر، أنها يجب أن تعود إلى دبي حيث عملها وإجازتها التي انتهت. لم تكن تدري ما الذي يجب عليها فعله؟ هل ستعود وتترك الطفل شهوراً حتى تتمكن من الحصول على إجازة أخرى؟! أم تترك عملها وتعود إلى القاهرة لتكون إلى جواره؟! أم تتصل بطليقها لتتفاهم معه كي يلغيا إجراءات منع الطفل من السفر التي قاما بها كفعل ورد فعل عقب طلاقهما وسفرها؟!

مدت أمل إجازتها أسبوعاً إضافياً كي تحسم أمرها بالنسبة للطفل. عرفت من أمها أن طليقها قد تزوج منذ عام، بعد أن يئس منها، وأن زوجته حامل، ما شجعها على الاتصال به لإقناعه بالسماح لها باصطحاب الطفل إلى دبي، كي يعيش معها هناك مادام سيرزقه الله طفلاً آخر. لم تُكلل خطوتها تلك بالنجاح، فالرجل رغم زواجه بأخرى لم يتجاوز حنقه وكرهه لأمل، التي هزمت رجولته من وجهة نظره، وأنهى كلامه بجملة واحدة: "ابني هاخده لحضانتي أول ما يكمل ١٥ سنة، وإنتي طالما قدرتي تعيشي ست سنين بعيد عنه تقدري تكملي حياتك من غيره للآخر"!

لأول مرة لا تشعر أمل بالغيظ والرغبة في الرد بعنف انتقاماً، ووجدت نفسها ببساطة شديدة تتصل بأحد أصدقائها المقربين بالقاهرة وتُكلفه بأن يبحث لها عن شقة مفروشة للإيجار، لأنها قررت العودة إلى مصر!

بشهادة الجميع، استطاعت منال أن تتألق بشكل استثنائي على الشاشة خلال الشهر الأخير، أو بمعنى أدق منذ تركت منزل الزوجية بكل ما يحتويه، واستقلت كما كانت ترغب دوماً بعيداً عن بروتوكولات العائلة والأهل والمجتمع اللبناني الراقي بالإمارات. خلال هذا الشهر لم يراودها أدنى حنين لابنتها، كانت قد أبلغت محاميها أن يتولى إجراءات قضية الطلاق، مؤكدة تنازلها عن حضانة ابنتها التي لم تتجاوز أربع سنوات.

مع مطلع الشهر الثاني لانقلابها، دق جرس الباب ثم أتت إليها خادمتها الفلبينية لتخبرها بأن والدها ينتظرها في الصالة. احتاجت إلى خمس دقائق بالتمام والكمال حتى تصل إلى الجمود، فلطالما كان هذا الرجل مصدراً لجيشان عواطفها، دون أن تضع يدها على السبب، كونه لم يلعب دوراً حقيقياً كأب. خرجت إليه منال وهي تركز على ألا تترك نفسها فريسة لأبيها، الذي قد يجعلها تتراجع عن جميع قراراتها، مستغلاً يقينه أنه نقطة ضعفها الدائمة.

على عكس ما تخيلت، احتضنها أبوها وعيناه مغرورقتان بالدموع الأبية على الانسياب. استطاع أن يهدم أسوارها بحركة واحدة، لم تستطع تحديد إن كانت صادقة أم لا، ووجدت نفسها تهذي بمبررات لم يطلبها، حتى أشار لها بكفه أن تصمت، فانقطع بثها مرة واحدة، ليبدأ هو الحديث:

أنا باعرف منيح إنك تزوجتي مجبرة تا تخلصي من ضغطنا عليكي. ما راح حاول إقنعك ترجعي لزوجك... بس كل يللي بدي منك إنك ما تدوري ضهرك لبنتك... بيكفي يللي عملته أنا وإمك.

منال: بابا... أنا ما بعرف كون أم... أنا ما بدي ها البنت عن جد... يمكن يكون من الأفضل إلها إنا تربى بعيد عني... ما بدي عذبها متل ما عذبتني الماما، وتربى على كراهيتي والرغبة بالانتقام مني.

نظر الأب لأسفل في أسى حقيقي، ثم رفع نظره نحوها بينما هامته محنية: ظروف الحياة اللي بتنفرض علينا بيكون إلها تأثير كبير في تصرفاتنا ومشاعرنا... يمكن إمك لو ما كانت طلعت معي من لبنان هربانة وتركت كل شي بتحبه هنيك ما كان حالها هيك... يمكن أنا لو كانت الحياة خفيفة شوي علي ما كنت تركت بيتي واكتفيت بس إني غرقن مصاري... إشيا كتير يا منال ما بدي فتح إبوابها هلا لأنه ما عاد بيفيد بشي... أنا هون عشان نورلك نقاط ممكن تكون غاية عنك بس... ما راح طالبك بشي أو إجبرك عا شي... هايدي حياتك بالأخير وإنتي صاحبة القرار.

منال: يعني شو عم تُقصد؟!

الأب: عم أقصد بنتك... حتى لو ما كان بدك ياها، لكن عا كل الأحوال هي إجت للدنيا خلاص... ما في مفر إلك من كونك إمها... فكري بالموضوع بعدين اتخذي قرارك.

"لطالما كان الإنسان وقوداً يحترق كي يمضي الزمان قدماً"، حكمة قالها حكيم هندي ذات يوم... هههه في الحقيقة هذه حكمتي أنا وليست حكمة الهندي المجهول! بالطبع هناك حكماء كثيرون جلسوا في الصحراء أو الربوع الخضراء أسفل الشجر، ليخطوا حكماً ما هي إلا مسكنات للإنسان المسكين التائه، بين قيم أمليت عليه منذ طفولته، وبين واقع لحياة مغايرة تماماً للحكم والأمثال. حياة تُشهر سيفها في الوجوه دوماً دون مبرر، فيتوه الإنسان في صراعات مجهولة الهوية. ممارسة الحياة ببساطة دون التعويل على

نتائجها ربما يكون الحل، لكن في النهاية لا تصل بنا إلى بقعة الراحة المبتغاة. هالة استسلمت لإملاءات الحياة؛ خرجت مع خالد ومارست معه كل طقوس الحب المحكية في الأفلام الرومانتيكية، لكنها لم تكن صادقة في أي من تصرفاتها، كانت تفعل ببساطة ما ترغبه منها الحياة الواقعية، وتنفذ كل نصائح صديقاتها بأن تتجاوز وهم أحمد، لكن كل ذلك لم يتمكن من زحزحة صخرته المستقرة في أعماقها. عندما انتهى شهر كامل من التعارف بينهما، طلب خالد منها إتمام إجراءات الزواج في أقرب فرصة ممكنة، فاستجابت دون نقاش أو محاولة لتبرير التأجيل. داخلها كان يعلم أن الأمر لن يتم في النهاية، لكنها لم تُفكر في كيفية إيقافه، وتركت الأمر لشعور خفي داخلها يطيب خاطرها بأنها لن تكون إلا لأحمد. لم تُصرح بمشاعرها الداخلية تلك لأي من صديقاتها، واكتفت بإبلاغهن بموعد زواجها بخالد بعد شهر بالتمام والكمال.

فضلت أمل أن تُخفي عن الجميع أمر استقالتها، وقرار عودتها نهائياً إلى القاهرة؛ حتى عن سميرة، فقد كانت مصارحة سميرة تحديداً بهذا القرار أمراً بالغ الصعوبة، وإن كان خبر ارتباطها بممدوح، وعيناها المتقدتان ببريق الراحة، أدخلا في نفسها الاطمئنان أنها على الأقل لن تتركها وحيدة. منال هي الوحيدة التي علمت بنبأ الاستقالة باعتبارها زميلة في نفس القناة التليفزيونية، وعندما تساءلت عن السبب في انزعاج، صارحتها أمل بالحقيقة: مكاني الحقيقي مع ابني.

منال: كيف يعني؟!

أمل مبتسمة: يعني ببساطة أنا كنت باعاقب ابني باعتباره ذكر! وكنت بارد على عناد طليقي بعناد مقابل، وكنت باعاقب أمي على ضعفها في مجتمع ما

سمحلهاش غير بالضعف عشان تعيش... كنت عمالة أعاقب الكون كله وأعيش حياة أنا جوايا مش عايزاها، لمجرد إني أعاقب الجميع على أخطاء هما في الحقيقة ما ارتكبوهاش في حقي قد ما ارتكبوها في حق نفسهم. أنا ضيعت من إيدي عادل اللي كان بيحبني فعلاً وعاقبته على خطأ ارتكبه أبويا وطليقي.

منال: طب وشو سبب ها اليقظة المفاجأة؟!

أمل: مش عارفة... يمكن سببها إنتوا... سميرة وهالة وإنتي... يمكن الحياة اللي عشناها سوا خلتني أشوف إن الحياة فيها حاجات حلوة كتير، مضيعاها على نفسي بالعناد والحرب المستمرة لإثبات مواقف قصاد ولا حد.

منال: وهلا راح تتركينا؟!

أمل: لا... ما راح اتركن يا بنت الوزي... إحنا رفاق كفاح مشترك ووقفنا جنب بعض على جبهة واحدة! ولا يمكن حدود البلاد تفرق بينا.

منال ضاحكة بملء شدقيها: يا عيني على الكلام الكبير!

موقف أمل من ابنها، جعل منال تُعيد التفكير في أمر ابنتها، وفكرت أنها من الممكن أن تخسر بالفعل إذا ما قطعت علاقتها تماماً بتلك الفتاة الصغيرة، وبرغم أن هذه الفكرة لم يغلفها أي إطار من مشاعر، إلا أنها عندما قابلت الفتاة بترتيب متفق بين أبيها وزوجها الذي كان على وشك أن يكون طليقها، نظرت إليها وكأنها ترى مخلوقاً فضائياً صغيراً يمتلك كشافات ضوء مبهرة في مكان العينين، وقرون استشعار كثيفة مثبتة على جانبي رأسه! بينما يبتسم مصدراً أزيزاً يشبه ألعابها الكهربائية عندما كانت طفلة. كانت هذه هي المرة الأولى التي تنظر فيها إلى ابنتها بعمق وعن قرب، فأخذت تمسك كفيها الصغيرتين وتمعن فيهما النظر، ثم تجري تقييماً دقيقاً لمدى جودة أناقتها... في النهاية سألت الطفلة إن كانت تحب مساحيق الزينة

والملابس الجميلة، وعندما أومأت لها الطفلة بالإيجاب، سألتها: شو رأيك نروح هلا نعمل شوبنج؟!

حينها قفزت الفتاة من على الأريكة نحو الأرض، ورفعت كفها لأعلى معلنة استعدادها للذهاب. عندما لم تجد منال شيئاً آخر تفعله سوى أن تتناول كف الصغيرة، مدت كفها لضم كف ابنتها وهي أقرب إلى التأفف منه إلى الحياد! لكنها وبعد مرور ساعتين تقريباً وهي تتنقل بين المحال وفي يدها كف الفتاة، لاحظت أن ملمس كفها ناعم كقطيفة لم يسبق لها أن لامستها من قبل، فهي هشة وطرية لدرجة تغوص فيها أصابعك، فلا تشعر سوى بالرغبة في الغرق داخلها أكثر، حيث راحة مستحيلة التحقق وفقاً للمعطيات المتوفرة في الحياة التي نعرفها. توقفت منال ثم نظرت إلى وجه ابنتها بتعجب شديد، وعندما ابتسمت لها الفتاة ابتسامة واسعة جداً، أحست بنغزة ذات ألم محبب في منتصف قلبها، فردت بابتسامة مماثلة وأكملت تقدمها بين منافذ البيع التجارية.

في نهاية اليوم أتى والد منال ليتسلم الطفلة ويعيدها إلى والدها. رحبت الطفلة بجدها، لتكتشف منال أن هناك علاقة ما بين ابنتها وأبيها لم يسبق أن لاحظتها من قبل، وعندما حمل الجد حفيدته على ذراعيه مالت الفتاة نحو منال، واستندت بكفيها القطنيتين على كتفيها ثم طبعت قبلة مرحة على خدها، وقالت: بشوفك الأسبوع الجاي... باي ماما.

منال بهدوء خدر: باي... راح انتظرك.

لم تكذب منال عندما أخبرت ابنتها بأنها ستنتظرها، فهي بالفعل أمضت وقتاً استثنائياً معها رغبت في تكراره.

(١٢)

شهر مضى في الترتيبات، أمل ترتب في صمت وهدوء لرحيلها عن مدينة دبي والإمارات كلها التي أحبتها؛ لأنها منحتها الفرصة كي تقترب من نفسها وتسمع صوتها بوضوح وتصل إلى واحتها المنشودة. لم تكن تدري إن كانت مصر ستمنحها حياةً مستقرة، لكنها في النهاية كانت متيقنة أنها وصلت لنقطة ارتكاز من الصعب أن تعود منها إلى الوراء. أما سميرة فكانت منشغلة بين علاقتها بممدوح وبين مساعدة هالة في ترتيبات الزواج، بينما منال تمد يد العون للجميع، تساعد أمل في إنهاء إجراءات المغادرة وبيع أثاث منزلها، وتقدم خبرتها في التجميل والأناقة لهالة كي تشتري لوازم عرسها بأحسن ما يكون، وتقدم نصائح لسميرة كي تكون أكثر ثقة وثباتاً في علاقتها بممدوح، وتنتظر نهاية الأسبوع لتلتقي الفتاة الصغيرة. هالة هي الوحيدة التي كانت تسير كمنومة مغناطيسياً بين الجميع، تفعل كل ما قد يبدو طبيعياً لامرأة مقبلة على الزواج، لكنها في الداخل تهيم في سحابات عشقها لأحمد الغائب الحاضر دوماً.

مع اقتراب الشهر من نهايته صرحت أمل بحقيقة مغادرتها إلى سميرة، وكما توقعت كان وقع الخبر من الإزعاج ما قلب ملامح سميرة إلى الغضب الشديد: يعني إيه راجعة مصر مش فاهمة؟!

أمل: مش هاقدر أسيب ابني أكتر من كده.

سميرة: طب ما تجيبيه هنا... هتعملي إيه يعني معاه في مصر؟!

أمل: إنتي عارفة إني مش هاقدر أجيبه هنا إلا بموافقة أبوه، وده موضوع محتاج حرب طويلة ومزعجة.

سميرة: طب ما تحاربي... ما إنتي طول عمرك بتحاربي!

أمل: خلاص يا سميرة تعبت من مبارزة طواحين الهوا... ومش عايزة أفتح صفحات قديمة طويتها من زمان.

سميرة: طب على الأقل عرفتي فين عادل؟!

أمل: في الحقيقة ابني نساني كل شيء... والوقت فات ومالحقتش أسأل عن عادل.

سميرة: يعني في الآخر راجعة مصر عشان تكوني أم وبس؟!

أمل: دي فكرة مش وحشة برضو... وإن كان الموضوع مش كده... أنا راجعة مصر أكمل أجزاء البازل الناقص في صورتي الكاملة!

سميرة: بس عادل جزء من الصورة وإنتي بتقولي ما سألتيش عنه؟!

أمل: وجودي في مصر هيديني الفرصة إني أدور عليه براحتي، وألاقي طريقة أعتذر له بيها.

سميرة: طب وإن رفض اعتذارك أو لاقتيه اتجوز؟!

أمل: يبقى خلاص فقدته للنهاية... وعموماً أنا اتعلمت الفترة اللي فاتت إني أعيش سعيدة من غيره.

سميرة: أنا مش عارفة أقولك إيه... بس الحياة في مصر قاسية.

أمل: أنا عارفة... ومضطرة أتأقلم معاها بشكل أو بآخر.

سميرة: يبدو إنك متأكدة من قرارك؟!

أمل: مليون المية!... المهم طمنيني إنتي أخبارك إيه مع ممدوح؟!

سميرة: مبسوطة جداً... تخيلي إنه لغاية دلوقت مجبش سيرة إيدي ورجلي؟! بيتعامل معايا كأني ملكة جمال الكون، وبيدلعني دلع عمري ما عشته في حياتي!

أمل: حبتيه؟

سميرة: جداااااً!

أمل: اتكلمتوا في الجواز؟!

سميرة: لأ.. وعموماً أنا مش عايزة أتجوزه دلوقت... أنا عايزة أعيش معاه الحياة اللي ما عشتهاش ..حتى لو ما اتجوزناش في الآخر مش هازعل.

أمل: ده احنا اتغيرنا على الآخر يا سميرة!

سميرة: كلنا اتغيرنا يا أمل.

كلهن انشغلن في تفاصيل حياتهن الجديدة، لكنهن اشتركن في الاستعداد لزواج هالة. لقاءات شبه يومية في المراكز التجارية ومنزل الزوجية كي يشرفن على تنسيقه، خاصة سميرة التي صممت بنفسها ترتيب كل قطعة أثاث اشترتها بنفسها لهالة وخالد. كن جميعاً يشعرن بأنهن يبنين حياة لهن جميعاً وليس لهالة وحدها. ابتسامات هالة المضيئة لم توح إليهن بأن هناك غموضاً يمور داخلها. في حقيقة الأمر، هي لم تكن تستعد للزواج من خالد بل من أحمد! فبرغم أنها لم تخطئ ولو مرة واحدة في مناداته باسمه، إلا أنها كانت ترى أحمد طوال الوقت أمامها، وعادت كما كانت دائماً، فاشترت ثياب دُخلتها له، وفستان عُرسها له، وكانت تقدم معلومات عن مزاج أحمد الخاص لسميرة كي تراعيه أثناء اختيارها لأثاث المنزل باعتباره لخالد! كما

اشترت بيجاما الدُخلة، التي أكدت أمل لها أنها على العروس، بتفاصيل تُشبه تفاصيل جسد أحمد، لدرجة أن منال سألتها إن كان خالد طويلاً إلى هذه الدرجة، فأجابتها بثقة أنها لم تُدقق كثيراً في شكله، وأنه بالفعل طويل ذو كتفين عريضتين، فلم تُركز منال معها كثيراً وآثرت الصمت.

كلهن لم يستطعن رصد ذلك المرجل الذي يمور داخلها، واعتقدن أنهن وصلن لآخر مشهد من فيلم ذي نهاية سعيدة، تماماً كأفلام خمسينات القرن العشرين، فأي نهاية مرضية للجمهور أكثر من عودة أمل لابنها، وتحقيق منال لطموحاتها، وارتباط سميرة برجل لا يرى إعاقتها، وانتهاء وهم أحمد من مخيلة هالة لتتزوج من رجل ينتمي لنفس طائفتها الدينية؟! بالطبع لا توجد نهايات أفضل من تلك، وبالتالي مضين جميعاً إلى مشهد النهاية ممتلئات بالحبور.

(١٣)

داخل فندق حياة ريجنسي ببر دبي، حجزنا غرفاً بعددنا كي نكون قريبات من هالة التي حجز لها خالد قاعة الأفراح به، إضافة إلى غرفة يمضين فيها ليلة دخلتهن قبل الطيران إلى باريس لتمضية شهر العسل. كنا جميعاً مبهورات بأداء خالد الراقي، والذي ينم عن أصله وتقديره لزوجته المستقبلية، ورغبته الحقيقية في إسعادها بكل الطرق. الفرحة التي رأيتها على وجه أم هالة التي قدمت من السويداء، لتحضر عرس ابنتها الذي انتظرته طويلاً، كي تطمئن لكونها أدت مهمتها المستحيلة بنجاح؛ من الصعب حقاً وصفها، لكنني أستطيع أن أقول لكم إن هناك خطوط حزن عتيقة لم تتمكن حتى تلك الفرحة أن تمحوها. لا أنكر أنني كنت مبتهجة بجميع الطقوس التي يتم إجراؤها، وكأنني أحضر

عرساً لأول مرة في حياتي، وكأنني لم أحضر عُرسي أنا شخصياً ذات يوم! لكن عرس هالة كان مختلفاً؛ فقد كانت نسائي الجميلات معي، أشعر بقيمة انتمائي إليهن وانتمائهن إلي، كنا ندور حول هالة مهتمات بأدق تفاصيل زينتها، وهي كانت كملاك يستعد للطيران نحو السماء.

وقفنا حولها باعتبارنا إشبينات نرتدي نفس الفستان، نضحك كأطفال يمرحن بين الحقول، وهي تتوسطنا بفستانها الأبيض الذي يشمل بانعكاسات لآلئه محيط المكان؛ فيزيد من بهاء نوره. صمت هالة ونظرتها الزائغة بعد أن عدنا من السفارة السورية التي وثقت بها زواجها، أثارا ريبتي لكنني حاولت أن أتجاهل القلق الذي زرع داخلي، مبررة الأمر بأنه قلق طبيعي ينتاب أي عروس في ليلة دخلتها.

سميرة لاحظت ارتباك هالة ونحن نسير بين أعضاء الفرقة الذين يزفونها إلى الكوشة، منشدين القدود الحلبية وأغاني العرس المشهورة في التراث السوري، وعندما اقتربت منها وهمست متسائلة عن تلك النظرات المرتابة، التي بدأت تظهر عليها بوضوح، أجابتها بهمس مماثل: "هايدا منو أحمد"! من بعيد لاحظت الرعب الذي أطل من وجه سميرة فجأة، وعندما عادت إلى جواري أخبرتني بالأمر وأنها خائفة جداً. لم أعرف ما الذي يمكن أن أقوم به، لكن رد سميرة على هالة زادني رعباً أيضاً "طبعاً مش أحمد! ده خالد يا هالة... إيه اللي خلاكي تفتكري أحمد ده تاني؟!".

ونحن نقترب من الكوشة نظرت نحو منال، التي كانت تسير ببهاء تحمل الشمعة بيد وتقبض على كف صغيرتها التي ارتدت فستاناً مماثلاً لنا، لتكون الإشبينة الرابعة. شعرت بارتياح منقوص فها نحن جميعاً مقبلات على حياة جديدة بينما هالة.....!!

وسقطت هالة فجأة... نعم هكذا فجأة سقطت هالة بيننا جميعاً... تجمدت مكاني وأنا أرى منال وسميرة وخالد وممدوح يسقطون حولها راكعين، وصراخهم يأتيني من بعيد... لقد أخطأنا جميعاً معتقدات أن هزيمة الأوهام القديمة سهلة!

(١٤)

أنا أمل... نعم ببساطة ووضوح ودون الدخول في مقدمات طويلة... أنا أمل... عشت طوال عمري بلا نساء تقريباً... لا أحب جوارهن ولا ألعابهن ولا أي شيء يخص حياتهن!...كنت دائماً أراهن سطحيات وعقيمات فكرياً، يدرن طوال عمرهن كفراشات بلهاء حول الذكور حتى يحترقن... يقدمن أعمارهن من أجل ضوء مبهر لكنه زائف... لذلك؛ قررت من فترة مبكرة في عمري أن أخرج من بوابة الحرملك، ولا أقترب منها أو ممن يختبئن خلفها، وعشت طوال عمري وسط الذكور أتحرك وأعبر وأتصرف مثلهن تماماً، فإذا ما واجهني أحدهم بأنني أنثى، أدخل معه في حرب طويلة حتى أهزمه وأشرب فوق جثته كأس انتصاري!

لذلك عشت شخصيتين، شخصية تواجه العالم وتنطلق في البراح، وأخرى أحبسها داخلي، فإذا ما تسللت دون إرادتي قذفتها نحو الظلام، ورددت الباب بقسوة دونها. يبدو أن مغادرة عادل لي بعد أن قتلت جنيننا جعلتني أغفل عني فترة طويلة، فبدأت للخروج نحو النور متسللة، دون أن أدرك فأوصد الباب دوني والنور كما اعتدت دوماً.

لم يكن فراق هالة سهلاً... حتى الآن لم أتجاوز الأمر، ويبدو أننا جميعاً لن نتجاوزه. سميرة فقدت وجودي معها، وكذلك هالة في نفس الوقت. لم أستطع مقاومة عينيها الكسيرتين وهي تودعني في المطار، ورغم احتضان ممدوح لها، وثقتي أنها عبرت إلى شاطئ الأمان، إلا أن ما لم تدركه هي حقاً، أنها كانت بالنسبة لي وطناً، وأنني عندما أغادرها يعتصرني ألم فراق الوطن بكل أركانه التي حفظتها وانتميت إليها. ربما عدت إليكِ يا سميرة مرة أخرى، لكنني الآن يجب أن أعود إلى نفسي التي أهملتها وتركتها في القاهرة.

رحيل هالة، رغم كل ما مررنا به من حياة، رأينا فيها كثيراً من تصدعات نفوسنا؛ أيقظنا جميعاً، وجعلنا نتشبث بواقعنا، ونؤمن بأن حياتنا غالية هنا على هذه الأرض، وليس على أي سحب مخملية تتلون بألوان لا توجد إلا في أساطير السماء، جعلنا نؤمن بأن أيامنا نمتلكها وحدنا وليس لأحد آخر أي مكان فيها... أيامنا هي نحن وليس هم.

الآخرون بقواعدهم وأوهامهم لا حق لهم لدينا... فقط علينا أن نعيش كما نرغب.

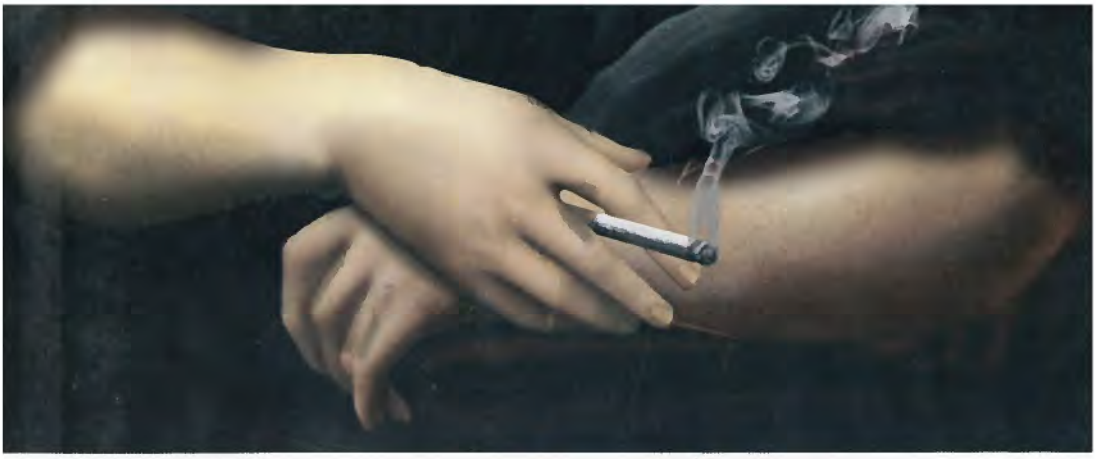

نسائي الجميلات

أول من سيطرت على نفسها من هول المفاجأة كانت منال، فقد قفزت من على مقعدها واخترقت النيران لتجاور الراقصة وترتعش معها في طقس أشبه بالزار. كانت خطوة منال دعوة لباقي الفتيات لأن يتقافزن كفراش منجذب للضوء، يتخايل بألوان أجنحته الزاهية، ويهتز في صلاة تسبق الانتهاء. انتعلت الراقصة مع رفيقاتها، وطلبت من مساعدها أن يلقي بسيوف إضافية سلمتها إليهن، فتناولنها بلذة انتصار مبهمة، ودبين بكعوبهن على الأرض تناهرات السيوف في وجه العالم. وقبل الجملة الموسيقية الأخيرة، دارت منال على أذانهن جميعاً حتى الراقصة وهمست بجملة واحدة: لن أعود لمنزل الزوجية المملّ بعد هذه اللحظة. رغم تلقي الفتيات للقرار بالسكون والصمت، إلا أن الراقصة رفعت السيف لأعلى وهي تقفز بصرخة أشبه بصراخ الهنود الحمر وهم مقدمون على الحرب! فالتفتن جميعاً إليها،